جاسوس من أجل لا أحد

ستة عشر عاما في المخابرات

باسل محمد روحي صنيب

النخبة للطباعة والنشر

باسل محمد روحي صنيب

جاسوس من أجل لا أحد

النخبة للطباعة والنشر



هـذه سـيرتي الذاتيَة وحياتي الشخصيَة، قرَرتُ أن أضعَهما في هذا الكتاب؛ فربَما في تَجْرِبتي وما مـررتُ به وفعلتُه في حيـاتي، وخاصَة عملي في شـعبة الأمن العسكري/ جهاز المخابرات العسكري، على مدى عشـرين عامًا تقريبًا، من الغرابة والتفرُد والخطَر والإثارة والمنفعة ما يهمُ القارئَ ، ويشـدُه ويقـدح فضولَه للمتابعة، مع التأكيد على من سيقرأ أنَ جميعَ الأَحداثِ والشخصيَات والأماكـن التي سـيجري ذكـرُها هي حقيقيَـة ومن الواقـع الذي قمتُ بسـرده كما هو؛ مع مراعاه تغيير بعض الأسماء فقط حفاظًا على خصوصيَة أصحابها وسلامتهم. وإنَ أيَ تفصيل أو حدث وارد في هذه السيرة أستطيع - بإذن الله - إثباتَ صحَته ودقَته بشـهادة الشُهود الذين عاصروا أو شاركوا أو شـاهدوا هذه الأمور، وأغلبُهم ما زالوا - حتَى تاريخ كتابة هذه السطور - على قيد الحياة.



النخبة للطباعة والنشر

جاسوس
من أجل لا أحد

ستة عشر عاما في المخابرات

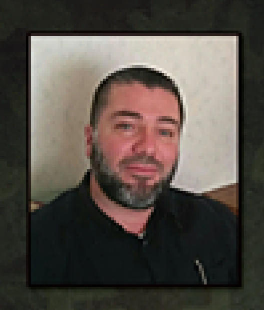
باسل محمد روحي صنيب

النخبة للطباعة والنشر

باسل محمد روحي صنيب

جاسوس من أجل لا أحد

النخبة للطباعة والنشر



هـذه سيرتي الذاتيَّة وحياتي الشخصيَّة، قرَّرتُ أن أضعَهما في هذا الكتاب؛ فربَّما في تَجْرُبتي وما مررتُ به وفعلتُه في حيـاتي، وخاصَّة عملي في شـعبة الأمن العسكري/ جهاز المخـابرات العسـكري، على مدى عشـرين عامًا تقريبًا، من الغرابة والتفرُّد والخطَـر والإثارة والمنفعة ما يهمُّ القارئَ ، ويشُـدُّه ويقـدح فضولَه للمتابعة، مع التأكيد على من سيقرأ أنَّ جميعَ الأَحداث والشخصيَّات والأماكـن التي سـيجري ذكـرُها هي حقيقيَّـة ومن الواقـع الذي قمـتُ بسـرده كما هو؛ مع مراعاه تغيير بعض الأسماء فقط حفاظًا على خصوصيَّة أصحابها وسلامتهم. وإنَّ أيَّ تفصيل أو حدث وارد في هذه السيرة أستطيع - بإذن اللّه - إثباتَ صحَّته ودقَّته بشـهادة الشُّهود الذين عاصروا أو شاركوا أو شـاهدوا هذه الأمور، وأغلبُهم ما زالوا - حتَّى تاريخ كتابة هذه السطور - على قيد الحياة.



جاسوس... من أجل لا أحد!!

ستّة عشر عامًا في المخابرات السورية

باسل محمد روحي صنيب

٢٠١٧

الناشر



www.darelnokhba.com

رئيس مجلس الإدارة

أسامة إبراهيم

المدير التنفيذى

سماح الجمال

المدير الفني

أحمد جابر

تصميم الغلاف

أحمد صادق

التصميم الداخلى

وليد محمد

دار النخبة
للطباعة والنشر والتوزيع

٣٣ شارع السنترال - المجاورة الأولى
- الحي الأول - مدينة الشيخ زايد -
الجيزة - مصر

تليفون: ٣٨٥١١٩٦٩ - ٠٠٢٠٢
٠١٢٨٨٦٨٨٧٥ - ٠٠٢
E-mail: alnokhoba@gmail.com

الطبعة الأولى
1438 هـ - 2017 م

جميع حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:
2017 - 13099
ISBN: 978 - 977 - 6580 - 87 - 9

مقدِّمة مهمَّة

بسم الله الرحمن الرحيم، والحمد لله رب العالمين، وأفضل الصلاة وأتم التَّسليم على نبينا محمَّد وعلى آله وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسانٍ إلى يوم الدين؛ أمَّا بعد:

هذه سيرتي الذاتية وحياتي الشخصية، قرَّرتُ أن أضعَهما في هذا الكتاب، مع العلم أنَّني لستُ مختصًّا في مجال التأليف أو الكتابة الأدبية أو القَصصيَّة؛ لكنَّني أظنُّ - والله أعلم - أنَّ تَجْرُبتي وما مررتُ به وفعلتُه في حياتي، وخاصَّة عملي في شعبة الأمن العسكري السوريَّة/جهاز المخابرات، على مدى عشرين عامًا تقريبًا، فيها من الغرابة والتفرُّد والخطَر والإثارة والمنفعة ما يهمّ القارئَ، ويشدُّه ويقدح فضولَه للمتابعة، مع التأكيد على من سيقرأ أنَّ جميعَ الأَحداث والشخصيَّات والأماكن التي سيجري ذكرُها هي حقيقيَّة ومن الواقع الذي قمتُ بسرده كما هو؛ مع مراعاه تحريف بعض الأسماء فقط حفاظًا على خصوصيَّة أصحابها وسلامتهم. وإنَّ أيَّ تفصيل أو حدث وارد في هذه السيرة أستطيع - بإذن الله

- إثباتَ صحَّته ودقَّته بشهادة الشُّهود الذين عاصروا أو شاركوا أو شاهدوا هذه الأمور، وأغلبُهم ما زالوا - حتَّى تاريخ كتابة هذه السطور - على قيد الحياة .

وقد كنتُ أملك أيضًا وثائقَ رسميةً بمختلف الأنواع، ومن مختلف المصادر، تؤكِّد جميعَ ما كتبتُه من معلومات، وكنت أجمعُها سابقًا وأحتفظ بها طوالَ حياتي في منزلي. ولكن - للأسف - جرى حرقُ جميع الوثائق وتدميرها مع منزلي الذي قام النظامُ السوري بنَهبه وقصفه وحرقه في الشهر الثالث من عام ٢٠١٢، بعدَ قيام الثورة السورية بعام واحد، ولله الحمد والشكر على كلِّ حال.

وأرجو منَ الله - عزَّ وجلَّ - أن يعينني وأن يوفِّقني بكرمه على أن يكونَ عملي هذا نافعًا، وأن أحوزَ به رضا ربِّي.

الطفولة والبدايات

بدأت الأَحْداثُ المهمَّة، والتي غيَّرَتْ مَجْرى حياتي، في شهر شباط عام ١٩٨٢؛ فقد وُلدتُ في مدينة حِمْص عام ١٩٧٥، وهي مدينةٌ تتوسَّط المدنَ السورية، وتشكِّل مع ريفها أكبرَ محافظة في سوريا من حيث المساحةُ الإدارية؛ وتتميَّز بأنها مدينةٌ محبوبة مشهورة بطيب ولطف أهلها ومناخها الجميل، يمرُّ بجوارها نهرُ العاصي فيزيد جمالَها وسحرها. باختصار، هي مدينةٌ مميَّزة في كل شيء؛ وجميعُ السوريين يعلمون هذا، وقد لا تُروَى فكاهةٌ في سوريا كلها تقريبًا إلاَّ ولأهل مدينة حمص دورٌ فيها أو ذِكْر.

عائلتي هي عائلةٌ مُسْلِمة على المذهب السنِّي، من الفئة التي كانت تُسمَّى في ذلك الوقت "من متوسِّطي الدخل"؛ وكان والدي – رحمه الله – موظَّفًا حُكوميًا في مطاحن القمح في مدينتنا؛ وكانت والدتي

متفرِّغةً لأعمال المنزل والعناية بنا، على الرغم من كون تعليمها في ذلك الزمان كان يسمح لها بالحصول على وظيفة معلِّمة أو مدرِّسة للمرحلة الابتدائية، لكنَّ أبي - رحمه الله - كان وعلى عاداتِ وشهامة أهل مدينة حمص في ذلك الزمان قد رفض إلاَّ أن يكونَ هو المعيل الوحيد للعائلة، رغم ازدياد صعوبة هذا الأمر عليه عامًا بعدَ عام، لأنَّ الرواتبَ التي كانت تُعطَى للموظَّفين في الثمانينات من القرن العشرين من قِبل حكومات نظام حافظ الأسد قليلةٌ جدًّا في ظل معيشةٍ صعبة وخانقة وغلاء في الأسعار. وكانت أغلبُ المواد الغذائية والاستهلاكية شبهَ مفقودة في البلاد، نتيجة ما سُمِّي وقتَها "سنوات الحصار الاقتصادي على سوريا"، مع العلم أنَّني أجزم بأنَّ غالبيةَ الشعب السوري لم تجرؤ يومًا على السؤال عن هذا الحصار، من فرضَه!؟ ولماذا!؟ لأنَّ السؤالَ في بلادي سوريا كان ثمنُه في كثير من الأحيان الموت أو السجن والتعذيب حتى الموت!

كنتُ الولدَ الأوسط لهذه الأسرة، فنحن ثلاثةُ إِخْوة ذكور فقط وأنا أوسطهم.

طبعًا كان لابدَّ لي أن أعطيَكم هذه اللمحةَ السريعة المختصرة

عن نشأتي وعائلتي؛ فهذا سيساعد حتمًا في فهم الكثير من تفاصيل الأَحْداث فيما بعد.

نعود هنا إلى فترة الثَّمانينات، وتحديدًا شهر شباط عام ١٩٨٢؛ وقد كان عمري وقتَها سبعَ سنين. ولكن، لماذا اخترتُ هذه الفترةَ بالضبط لبَدْء الحكاية؟

طبعًا أيّ قارئ سوري أو مهتمّ بالشأن السوري أو العربي سيكون غالبًا قد عرف الجوابَ مباشرة، لأنه في هذا التاريخ قام نظامُ حافظ الاسد البعثي النصيري بمجازر في سوريا قلَّ نظيرُها وشاكلتها في التاريخ الحديث وحتى القديم؛ وكان أشدّها وأعظمها وقتها طبعًا هي مذبحة مدينة حماه السورية التي جرى تدميرُ مركزها بشكلٍ كامل تقريبًا، عن طريق الحرق والتفجير والقصف وهدم المنازل على رؤوس سكَّانها بلا انقطاع على مدى شهرٍ كامل من قِبل قوَّات النظام الاسدي، كما جرى ذبحُ وخطف وتعذيب الكثيرين من أهل هذه المدينة، واغتُصِبت أعدادٌ كبيرة من بناتهم؛ ومن بقيَ حيًّا بعد كلِّ هذا، فقد جرى اعتقالُه وعُذِّب عذابًا رهيبًا. وكان مجرمو النظام الأسدي يقومون بتقطيع أطراف الكثيرين منهم، ويستمرُّون

في هذا حتى يموتَ المعتقل. وقد اختفى عددٌ كبير من أبناء مدينه حماة بعد سوقه من قِبل جلّادي النظام إلى أقبية السجون المظلمة، ولم يظهروا أبدًا بعدها؛ ولا يُعرَف عنهم على وجه التحديد حتى الآن هل هم أحياء أم ماتوا، وكيف ومتى حدثت وفاتُهم!!

هذه المجازر سُمِّيت فيما بعد "أَحْداث عام ١٩٨٢، أو أَحْداث حماة، أو أَحْداث الإخوان المسلمين".

قد يخطر للقارئ هنا أنَّني تَشعَّبت عن قصَّتي الأساسية أو ابتعدت عنها ولكن هذا غير صحيح لأن قصة حياتي الغريبة كانت جميعها تقريبا مرتبطة بهذه الأَحْداث وآثارها وما تبعها بعد ذلك.

هنا لابدَّ للقارئ أن يعرفَ، دون الدخول في التفاصيل الكثيرة جدًّا لهذه الأَحْداث والمجازر والتي تحتاج وحدَها إلى مجلَّدات لشرحها، أنَّ ما يحدث كان باختصار "وهي حقائقُ فهمها الشعبُ السوري فيما بعدُ على مرِّ السنين" كان ظاهرُه أنَّ نظامَ حافظ الأسد يقوم بتصفية حزب أو تنظيم مُعادٍ له ولنظامه، وهو حِزْب الإخوان المسلمين، ولكنَّ الحقيقةَ كانت أعمقَ وأبعد من ذلك الهدف بكثير؛ كان ما يجري هو مخطَّط وُضِع مسبقًا من قِبَل الطائفة النصيرية

في سوريا ومعهم من يدعمهم عالميًا مثل الشيوعيين والصهيونية والنظام المجوسي الإيراني.

لقد جرى الاتِّفاقُ على هذا المخطَّط منذ أعوام طويلة، وتفاصيلُه هي أنَّ النظامَ الأسدي البعثي النُصيري، الذي هو نظامُ حكم للبلاد يقوم به أقلِّيةٌ دينية مذهبية لا تتجاوز نسبتُها في سوريا في ذلك الوقت حوالى ٢٪ من الشعب السوري في أحسن تقدير، كان هذا النظامُ في الحقيقة يقوم بتركيع وإخضاع واستعباد الشعب السوري المسلم السنِّي الذي يشكِّل نحو ٨٠٪ من سكان سوريا على أقلّ تقدير، وذلك من خلال تصفيةٍ طائفيَّة مذهبية بامتياز لجميع رموز الشعب السنِّي من علماء ورجال دين وطلّاب علم وجامعيين ومثقَّفين وسياسيين وضباط وجميع من يمكن أن يشكِّلَ أيَّ تهديد حالي أو مستقبلي للنظام، وجميع من يمكن أن يفكِّرَ بأي طموحٍ سياسي أو يطالب بحقِّ هذه الأكثرية المسلمة السنية المنطقي في الحكم والسيادة على بلادهم.

كانت الطريقةُ الوحيدة الممكنة كي يتمكَّنَ نظامُ حافظ الأسد من تحقيق كلِّ هذا المخطط هي إراقة الدم؛ بحور من دم المسلمين

السنَّة ستكون هي الجدار الناري المرعب الذي سيتمكَّن من إبقاء هذا النظام في الحكم مدَّة خمسين عام تقريبًا بعدَها.

قد لا يعلم الكثيرُ من القرَّاء من غير السوريين أنَّ المجازرَ كان أكبرها وأشهرها في مدينة حماة؛ ولكنَّها طالت جميعَ المدن السورية الأخرى تقريبًا، فالاغتيالاتُ والمجازر والاعتقالات العشوائية طالت وقتَها جميعَ المدن السُّورية بشكلٍ خاص، وبعض الأرياف، وكانت ممنهجةً بشكل خاص تجاه النخبة من رجال وشباب الأغلبيَّة الإسلامية السنِّية في كلِّ مكان، ومن بين هذه الأماكن بالطبع مدينتي حمص.

كانت طفولتي المبكِّرة طفولةً عادية؛ ولكن، منذ شهر شباط عام ١٩٨٢، ورغم سنِّي الصغير جدًّا، إلاَّ أنَّني بدأتُ ألاحظ تغيُّرًا في كل شيء وشخص حولي، وأنا لا أعرف هل هو إدراك مبكِّر جعله اللّه عندي لتهيِئَتي لما سيحدث فيما بعد، أم هو أمر كان موجودًا عندَ الآخرين من أبناء جيلي!؟

منذ هذا الشهر في ذلك العام، بدأتُ ألاحظ وأرى تغيُّرَ وجوه جميع من حولي، حيث بدأت الضحكات وحتى الابتسامات تخفُّ

على وجوه الكبار، بدأتُ أسمع أحاديثَ أحيانًا تكون هامسة وأحيانًا خافتة، حتى ولو كانت تجري في بيوت وأماكن مغلقة حولَ ما جرى في مدينة حماة، وما يحدث كلَّ يوم في بقية أنحاء سوريا من قتلٍ وخطف واغتيال أشخاص، حيث كانت الاعتقالات العشوائية في كلِّ مكان، وكانت التُّهَمُ جاهزة للجميع دائمًا، وهي غالبًا ما تكون "الانتساب لعصابة الإخوان المسلمين العميلة" كما كان يُسمِّيها ويسوِّق لتسميتها بهذا الاسم نظامُ حافظ الأسد حينذئذ.

كنتُ أسمع دائمًا أسماء أشخاص أعرفهم، من بينهم مثلًا أقرباء والدي، وأذكر من بينهم أحدَ جيراننا، وهو رجلٌ لطيف ابن عائلة معروفة في مدينة حمص، والذي ما زلتُ أذكر عنه أنَّه كان يعطيني الحلويات كلَّما رأيته، وكان عندَه في منزله مكتبةٌ ضخمة تدلُّ على ثقافته الواسعة، وقد اختفى بعدَ اعتقاله بطريقةٍ وحشية من قِبل قوَّات نظام الأسد، ولم يَره أحدٌ بعدَها أبدًا.

كانت التحذيراتُ تُوجَّه لنا نحن صغار السن بشكلٍ يومي، من مثل "إذا سألك أيُّ أحدٍ أو فتح معك حديثٌ عن طائفة النصيريين فلا تجبهم بأي شيء، وقل لهم لا أعلم شيئًا عن هذا؛ وإذا سألك أيُّ

معلّم في المدرسة أو أيّ شخص آخر في أيّ مكانٍ عن حافظ الأسد، فاجعل جوابك دائمًا هو: نحن نحب السيِّد الرئيس كثيرًا ...!

وبشكلٍ عام، فقد شعرتُ أنَّ الخوفَ عامٌّ في كلِّ مكان حولي، في المدرسة والمنزل والباص والشارع، وكانت الأحاديث الهامسة تتسرَّب دائمًا إلى مسامعي ضمن مجتمعنا السني، وخاصة بسبب أنَّ من كانوا يتحدَّثون بها ورغم خوفهم وتلفُّتهم طوالَ حديثهم أينما كانوا، ولو حتى داخل منازلهم!

نعم، تصوَّروا هذا! ومن عاش ذلك الوقتَ من السوريين يعرف هذا، ويعرف المثلَ الذي كان يقال في كل مكان وقتها: "الجدران لها آذان".

لكنَّ الجميعَ تقريبًا، رغم هذا كله، كان يخفِّف من حذره بحضورنا أنا ومن هو في مثل سنِّي وقتها، على اعتبارنا بحسب ظنِّه أطفالًا صغارًا لا نفقه شيئًا.

وأذكر في تلك الفترة حدثًا لافتًا بعدَ مجزرة حماة بوقت قصير، حيث بدأتُ أسمع من الكبار أنَّ جميع بيوت أحياء حمص التي يقطنها المسلمون السنَّة يجري تفتيشُها من قِبل أجهزة أمن وجيش

النظام الأسدي بشكلٍ قاسٍ وعنيف؛ وأذكر أنَّني استيقظت يومًا من نومي لأجدَ والدايَّ يتحدَّثان عن حضور المخابرات والجيش إلى بيتنا بينما نحن الأطفال كنَّا نائمين، وأنَّهم - كما فعلوا مع الجميع - قاموا بتفتيش منزلنا تفتيشًا دقيقًا دون مراعاةٍ لخصوصية وحرمة المنزل، ودون وجود أيِّ تهمة أو أمر قضائي بالطبع، لأنَّ البلادَ قبلَ هذا الوقت كانت قد وُضِعت من قِبل نظام حافظ الأسد تحت ما يُسمَّى "الأحكام العرفيَّة"، وهي مصطلحٌ يشبه حالةَ الطوارئ التي تعلنها الدولُ في الحروب، بحيث يصبح كلُّ شيء متاحًا ومباحًا للدولة، ويصبح اضطهاد وظلم وانتهاك حريَّات الناس أمرًا عاديًا وحتّى قانونيًا!

ورغم حداثة سنِّي في ذلك الحين، إلاَّ أنَّني كنت أشعر بالغيظ الشديد والغيرة والغضب والحميَّة بسبب هذا الأمر، والذي يعدُّ ليس انتهاكًا لجميع قوانين الدنيا فقط، بل هو انتهاكٌ أيضًا لعاداتنا وتقاليدنا وديننا الذي يعطي حرمةً وسرِّيةً لجميع ما يتعلَّق بالنساء؛ فكيف يمكن أن يُسمحَ لأشخاص غرباء بالدخول دون سببٍ أو مبرِّر واضح للتفتيش والتعدِّي على ملابس وحاجيَّات النساء الخاصة

جميعها، دون أن يتجرَّأَ أحدٌ على الاعتراض أو أن يتفوَّه بكلمة.

بسبب كلِّ هذا، بدأتُ أسمع وأتعرَّف على الكلمة الأخطر والأكثر تداولًا بين الناس حينئذٍ، والأكثر إرعابًا للمواطن السوري، منذ تسلُّل حافظ الأسد والطائفة النصيريَّة إلى الحُكم، وحتَّى قيام الثورة السورية، وهي كلمة "مخابرات"، الاسم الذي يطلقه السُّوريون على أجهزة الأمن القمعية الاضطهادية الطائفية، التي أنشأها حافظ الأسد، وجعلها موجودةً، وتعمل بأشكال وأسماء متعدِّدة؛ وكان قوامُ عناصرها جميعًا في غالبيته السَّاحقة من طائفته النصيرية، وقد جعلها يدَه الباطشة ووحشَه المخيف وسيفَه المسلَّط على رقاب الأبرياء مدَّةَ خمسين عامًا تقريبًا. والتي أصبحتُ أنا – فيما بعد – موظَّفًا فيها وجزءًا منها لمدّة ثمانية عشر عامًا تقريبًا، لأسباب سأسردها لاحقًا.

بعدَ هذه الفترة، أصبحتُ أرى جميعَ أفراد المجتمع السنِّي في سوريا يعيشون حالةَ انفصام شخصية اختياري يوميًا في حياتهم، وكنَّا نحن طبعًا كأطفال نُؤمَر من الكبار بأن نعيشَ هذه الحالة مثلهم، مع تحذيراتٍ شديدة ويومية من العواقب الرهيبة علينا

وعلى عائلاتنا في حال نسينا أو خالفنا مقتضياتِ أن نعيشَ هذا الانفصام، نعم حالةٌ عجيبة جماعية، فكيف؟ ولماذا هذا الانفصام!؟

الانفصامُ هو مرضٌ يتخيَّل فيه المريض - عافانا وعافاكم الله - أنَّه يملك شخصيةً أخرى تلازمه أو أنَّ روحًا أخرى موجودة في جسده، ويعيش هذا الأمرَ حتى أنَّه يعيش وكأنّه بوجهين مختلفين، وهذا تحديدًا ما وجدَه واختاره واضُطرَّ إليه الشعبُ المسلم السني السوري كحلٍّ وحيد للاستمرار في الحياة، والسلامة من الهلاك تحت ظلِّ هذا الحكم الطائفي الإجرامي بامتياز.

كان الجميعُ في قلوبهم وأفكارهم يبغضون حافظ الأسد ونظامَه البعثي النصيري، ويعلمون أنَّه شيطانٌ بشري ابتلاهم الله - عزَّ وجلَّ - به، ولكن طبعًا كان أيُّ نوعٍ من التعبير عن هذا الشعور وهذه الأفكار بأي لفظ أو حركة أو ردَّةٍ فعل، أو حتى بتعبير على الوجه، قد يعني - إن لاحظته أعينُ أجهزة وجواسيس النظام التي كانت منتشرةً في كلِّ مكان في سوريا - نهايةَ فاعله، ومعه عائلته وحتى أصدقاؤه أحيانًا، كنهايةٍ بشعة باغتياله أو قتله أو اعتقاله واختفائه إلى الأبد؛ وهذا جميعه لم يكن فرضيةً أو خوفًا غير مبرَّر، بل كان

واقعًا وحقيقة؛ ففي كلِّ يوم تقريبًا كانت هذه الحالاتُ تحدث، ويسمع الناس عن حدوثها وأمثالها في جميع أنحاء سوريا تقريبًا.

من أجل جميع ما ذُكر سابقًا، كان المطلوبُ منَّا ومن جميع أبناء مجتمعنا "أيّ الغالبية المسلمة السنِّية" في سوريا أن نعيشَ بشخصيَّتين بشكلٍ يومي طوالَ الحياة؛ ففي خارج منازلهم وفي العمل والأماكن العامة، كان يجب إظهارُ وإثبات الحب والولاء لنظام حافظ الأسد، والاحترام لصوره وأصنامه التي كانت موجودةً في كلِّ مكان وزاوية في سوريا!

نعم كانت صورُه موجودةً على كتب التلاميذ والدفاتر في روضات الأطفال وفي الشوارع وعلى الجسور، وفي كل زاوية وغرفة من أيّ دائرةٍ حكومية أو ثكنة عسكرية. كانت هناك صور وأصنام تمدح حافظ الأسد "فهو - حسب زعمه وزعم نظامه - الطبيب الأول والمعلِّم الأوَّل والحكيم الأوَّل والفلاح والعامل الأوَّل، وجميع ما يفعله أو يتصرَّف به يُسمَّى تاريخيًا فورًا!!! كلماتُه تاريخيَّة، مواقفه تاريخية، أقواله يجري تحفيظُها للكبار والصغار، ويُمتَحنون فيها في المدارس والجامعات، والويل والهلاك لمن عصى أو فكَّر بالعصيان.

أمَّا داخلَ البيوت المقفَلة وبين الأقرباء والعائلات، فكانت تنتقل بشكلٍ يومي دائم قصصُ ظلمِه وبطشه بالشعب، وتتبعها اللعناتُ والدعاء عليه بهلاكه عادة. ويحدث هذا مع تلفُّت دائم للمتحدِّثين في أثناء أيِّ حديث بعيونٍ خائفة من أن يظهرَ لهم من خلف الجدران والأبواب المقفلة من يأخذ المتحدِّثين بهذا إلى هلاك لا يعلم إلَّا اللّه - عزَّ وجلَّ - نوعَه ومكانه!!

ومن أغرب ما يمكن أن يُذكَرَ عن فرادة وتميُّز الوضع السوري، في ظلِّ حكم الأسد، أنَّه - حسب معلوماتي واطلاعي وقراءاتي طوالَ عمري - هو أشدُّ الأنظمة القمعية والأمنية والاضطهادية الظالمة في العالم، حيث يمكن أن تقومَ الأنظمةُ القمعية الأخرى جميعها باعتقال الناس عشوائيًا، وحتى تعذيبهم وإعدامهم وتلفيق التُّهَم الجاهزة والمفصَّلة لهم، ويجري الاعتداءُ في بعض هذه الأنظمة على عائلات المعتقلين وكلّ من له صلةٌ بهم ظلمًا وعدوانًا؛ وطبعًا جميعُ هذه الأمور وأشدُّ منها كان يحدث في سوريا تحت حكم النظام البعثي النصيري. ولكنَّ الغريبَ والمدهش والمحزن جدًا، والذي كما ذكرت لا أعتقد أنَّه يوجد شبيهٌ له في جميع دول العالم،

هو أنهَّ كان ممنوعًا في سوريا الأسد أن تسألَ أو تستفسر عن أيّ معتقلٍ سياسي مهما بلغت قرابتُه منك، ولو كان والديك أو ولدك أو بنتك أو الزوج والزوجة!!!

وليس هذا فقط، فأنت في النظام الأسدي ممنوعٌ أن تسألَ من هي الجهة التي اعتقلت فردًا من أسرتك "بعد أن يكونَ قد خُطِف بشكل وحشي أمامَ عائلته"، وفي أيّ مكان هو مُحتَجز، وهل هو لا يزال حيًا أم مات؛ فكلُّ هذا، ومهما طال زمن وسنوات اختفاء أيِّ مواطن، ممنوعٌ السؤال عنه؛ ومن يتجرَّأ على مخالفة هذا ومحاولة معرفة أيّ شيء عن معتقله السياسي، فهو وبكل بساطة إمَّا - إن كان حسنَ الحظّ - سيتلقَّى ردًّا تهديديًّا أرعنَ جدًّا مع بعض التعذيب لساعاتٍ في أحد الأفرع الأمنية، أو في أغلب الأحوال يجري ربطُه فورًا بتهمةٍ ويلحَق بمعتقله إلى مصيره المهلك!! ولا حولَ ولا قوَّة إلا بالله.

ولابدَّ لي هنا من أن أذكرَ موقفًا جميلًا ومشرِّفًا، وأظنُّه بطوليًّا لم يكن معظمُ الناس يجرؤون على فعله في ذلك الزمان قام به والدي رحمه الله، وذلك أنَّه بعدَ فترة أَحداث حماة التي ذكرناها

سابقًا، طلب النظامُ وأجهزته الامنية من جميع المنتسبين لحزب البعث العربي الاشتراكي الحاكم "والذي اسمه هو جملةٌ من الدجل والخداع مثل صفات من أسَّسه" أن يشاركوا في حمل السلاح وفي اضطهاد وقمع الناس.

وللأسف، كانت هناك نسبةٌ لابأسَ بها من أعضاء هذا الحزب في بداياته من المسلمين السنَّة، رغم أنَّ هذا الحزبَ وكغيره من أدوات النظام صُنَع من أجل تدعيم حكم واضطهاد ذلك النظام للشعب، ولكنَّ دخولَ السنَّة فيه كان لسببين رئيسيين: فالبعضُ كان قد انتسب إلى هذا الحزب في بداية تأسيسه مخدوعًا بالشعارات المثالية والرنَّانة والقومية التي رفعها الحزب، وهؤلاء ومنهم والدي - رحمه الله - كانوا يظنُّون أنَّهم فعلوا الصوابَ، وقاموا بواجبهم الوطني في بناء مستقبل بلدهم، ولم يشعروا بالخدعة والفخِّ اللذين أوقعهما فيه نظام الأسد إلَّا بعدَ ظهور الطبيعة العنصرية المذهبية الطائفية لهذا الحزب وغيره من أجهزة الدولة والحكم الأسدية في أثناء أَحْداث حماة ١٩٨٢ وما بعدها؛ والجزء الآخر من منتسبي هذا الحزب، وهم كانوا من أجيال السوريين التي أتت بعدَ

هذه الفترة، وأنا وجميع أقربائي وجيراني وأصدقائي منهم، كنَّا قد انتسبنا بالإكراه، فقد أصبح هذا الأمر "أيّ الانتساب لحزب البعث" طقسًا من طقوس البيعة الإجبارية وإظهار الولاء الإلزامي للنظام الأسدي الحاكم؛ فإن لم تكن عضوًا في حزب البعث، فإنَّ أمورَك في الدراسة ستكون أصعبَ، وستعاني في الخدمة العسكرية الإلزامية، ولن تستطيع الحصولَ على وظيفة حكومية تعيش منها غالبًا، مع العلم أنَّ الوظيفةَ في الدوائر الحكومية في ذلك الزمان كانت مصدرَ الدخل الوحيد تقريبًا المتاح لمعظم أبناء طبقة ذوي الدخل المتوسِّط من المواطنين السوريين.

ورغم أنَّ والدي - رحمه الله - كان من المنتسبين القُدامى لحزب البعث، وهذا كان يعني تَمكُّنَه مستقبلًا - إن أرادَ - أن يستلمَ منصبًا أو وظيفة مهمَّة في الحزب في وقت ما غالبًا، إلَّا أنه رفض رفضًا قاطعًا وبشدة أن يشاركَ في حمل السلاح ضدَّ أبناء بلده وقومه حين طلب النظامُ منهم ذلك. وكان هذا الرفضُ قد يعني وقتَها - كأيِّ تصرُّفٍ آخر معارض للنظام مثله - هلاكَ أبي، وربَّما هلاك عائلته؛ لكنَّ والدي أصرَّ على رفضه، وتعرَّض لضغوط

وتهديدات بسبب موقفه هذا، وأحاله النظامُ الأسدي إلى محكمةٍ حزبية، ثم بعدها جرى فصلُه من حزب البعث، وسلَّمه الله وأنجاه بمعجزةٍ من الهلاك بسبب هذه التجربة التي ظلَّ هو ومن يعرف قصَّتَها هذه يروونها للناس الموثوقين طبعًا وفي السر، وبكل فخرٍ واعتزاز، لأنَّها أصبحت شهادةَ شرف وسموَّ أخلاقٍ لوالدي. والحمد لله رب العالمين.

كنز من الثقافة والمعرفة

في هذه الفترة، وبينما كانت تَمرُّ سنواتُ طفولتي في ظلِّ الظروف التي ذكرتها سابقًا، وليتمَّ اللّهُ - عزَّ وجلَّ - قدرَه وإرادته، ظهر في حياتي وحياة أسرتي حوالي عام ١٩٨٤ جيرانٌ جُدُد كان لهم أثرٌ كبير وواضح فيما جرى في حياتي من أَحْداث لاحقًا. لذا، كان لابدَّ لي من أن أتحدَّثَ عن هذه العائلة وأثرها الذي قد يمرُّ ذكرُه مرَّات أخرى ضمنَ الأَحْداث القادمة.

هذه العائلة المذكورة التي أقامت في بنائنا السكني، الذي نقيم فيه، وأصبحوا جيرانًا لنا في هذه الفترة في الشقَّة التي تعلو شقتنا مباشرة، هذه العائلة هي عائلة "أبو إياد" كما كنا نلقِّبهم، وهي تتكوَّن من رجل كان يعمل ضابطًا في الجيش السوري برتبة متوسِّطة الأهمية ضمن الجيش في ذلك الوقت، ولكن بالنسبة

للشعب السوري المضطهد كانت كلُّ الرتب مرعبةً لهم، مثلها مثل أيّ شيء آخر متعلِّق بالدولة، وزوجته أمّ إياد التي كانت معلِّمة في مدرسة ابتدائية، وبفضل وساطة ونفوذ زوجها أصبحت مديرةً لهذه المدرسة فيما بعد، والولد الوحيد لهذه الأسرة اسمه إياد، وهو في وقتها ولدٌ أفسدَه الدلال وتملُّق كلِّ من حوله له ولأهله، بسبب المصالح والمطامع الشخصية التي كان جميعُ من حوله يسعى للحصول عليها عن طريق نفوذ والديه، واللذين هما أيضًا عوَّدا إيادًا ألاَّ يرفضا له أيّ طلب مهما كان غاليًا أو صعبًا بالنسبة لغيرهم من العائلات والأولاد؛ كلُّ هذا، بالإضافة إلى سيل الهدايا والرشاوى التي كانت تنهال عليه من كلِّ جانب من المعارف والأقرباء والجيران، والتي كان أغلبها يشكِّل حلمًا صعبَ التحقيق لأيِّ ولد آخر في زماننا. وقد يتساءل القارئُ، الذي لا يعلم تفاصيلَ الوضع السوري، لماذا كل هذا!!؟ وما أهمِّية مجرد ضابط عادي في الجيش حتى يتمتَّعَ هو وعائلته بميزات قد لا يتمتع بها حتى بعض الوزراء في دول أخرى!؟

هنا لابدَّ أن أعودَ مجدَّدًا إلى شرح الخصوصية الغريبة الموجودة في العلاقة بين المواطن السوري والدولة والحكومة الأسديَّة؛ ففي

أغلب بلاد العالم فإن أيَّ ضابط في الجيش هو خارج أوقات دوامه شخصٌ وفرد عادي من أفراد مجتمعه، ليس له سلطة خاصة أو وضعٌ مختلف عن بقية المواطنين؛ أمَّا في سوريا، فالأمرُ على خلاف ذلك، حيث يبقى عنصر الأمن أو الضابط سيفًا مسلَّطًا على رقاب العباد طوالَ الوقت، لاسيَّما بسبب ما ذكرناه من المجازر والاضطهاد والحكم الأمني القمعي والذي ترافق مع تخلُّص نظام الأسد من المسلمين السنَّة في أغلب أجهزة الدولة عن طريق تسريحهم من العمل هذا في أحسن الأحوال طبعًا، أو من خلال تلفيق أيّ تهمة لهم واعتقالهم، وبشكل خاص في القوات المسلحة السورية وبطريقةٍ مكثَّفة، فقد جرى التخلُّصُ من أغلب ضباط وصف ضباط الجيش وقيادات الشرطة الذين ينتمون للطائفة السنِّية، وجري استبدالُهم بآخرين من الأقلِّية النصيرية الحاكمة؛ أمَّا أجهزةُ الأمن والمخابرات فقد كان الاستبدال فيها كاملًا "عدا حالات استثنائية نادرة جدًّا، وفقط لمن أثبت ولاءه المطلَق وطاعته العمياء لنظام الأسد، ثم عمَّد هذا الإثبات بمشاركته معهم في قتل الأبرياء وانغماس يديه في دماء الشعب".

ولخدمة هذه الغاية والمخطَّط، كان يجري تطويعُ وتوظيف شباب الأقلِّية النصيرية في الجيش والقوَّات المسلحة السورية بشكل سريع ويومي ومستمرّ لمدة أكثر من خمسة وأربعين عامًا هي فترة حكم عائلة المجرم الأسد، حتى أصبحَ جميعُ ما يعرف بالقوات المسلحة في سوريا، وحتى أغلب أجهزة ودوائر الدولة والحكومة المدنية شكلًا "وهي تُدار عسكريًا مضمونًا" في سوريا، هي مؤلَّفة من النصيريين، وهذا ما جعل السلطةَ والقوة والسيطرة لهؤلاء لا حدَّ لها في هذا البلد، ولا يستطيع أحد مجابهتها أو الاعتراض عليها، لأنَّ قوةَ السلاح الوحيدة أصبحت موجودةً في أيديهم، وهذه كانت من أخطر وأغرب النقاط التي نجح الأسد وطائفته في تنفيذها لحكم سوريا، وجعلت هذا البلدَ حسب علمي مختلفًا عن جميع دول العالم في ظلِّ حكمهم؛ ففي جميع الدول، يكون عناصر الجيش والقوات المسلحة والأمن وموظَّفو الدولة هم خليطًا من جميع فئات الشعب؛ وبسبب هذا، فعندما يحدث أيّ اعتراض أو ثورة في بلادهم، فإنَّ بعضَ أصحاب النفوذ ومن يحملون السلاح قد ينحازون مع مطالب وتحركات الشعب كونهم هم جزءًا منه،

وهذا الشعب يكون فيه أهلهم وأقرباؤهم وجيرانهم. أمَّا في سوريا، فقد أصبح الجيش والأمن وجميع القوات المسلحة جميعًا كيانًا عنصريًا مختلفًا ومنعزلًا عن باقي الشعب، ليس أفرادهم من أبناء أغلبية شعب البلاد، بل هو فئةٌ معزولة حاقدة لا يمكن أن تتعاطفَ أو تنحاز مع الشعب السوري، وبخاصة بسبب أنَّ الأغلبية الأكبر من هذا الشعب الذين هم "المسلمون السنة" تعدُّ بالنسبة لثقافة النصيريين "طائفة الأسد" وضمن كتبهم ومعتقداتهم وموروثاتهم أنها عدوهم الأزلي.

بسبب جَميع ما ذُكر، فإنَّ سلطةَ وقوَّة الجيش على المواطنين المدنيين، وفي الحياة المدنية في سوريا، كانت قويةً ومختلفة عن أيّ دولة أخرى، لأنها مستمدَّة من خوف الشعب من جميع ما يتعلَّق بدولته وحكامه، وطبعًا أضعاف هذا المقدار كانت سلطة وقوة وصلاحيات عناصر وضباط أجهزة الأمن والمخابرات، وهذا ما سأشرحه لاحقًا في وقته بإذن الله.

وبسبب وجود بعض المناطق السنِّية في سوريا، التي أثبت بعضُ أبنائها ممَّن كانوا في بعض المناصب "غير الأساسية طبعًا" الولاءَ

المطلق للمجرمين - كما ذكرنا سابقًا - فقد أعطاهم نظامُ الأسد لهم ولأبناء مناطقهم بعضَ السلطة والامتيازات الشكلية، وسمح بانخراطهم في بعض القوى المسلَّحة لنظامه "بشكلٍ محدود ومدروس ومراقب طبعًا"، مُحققًا بهذا عدَّةَ أهداف خطيرة ومهمَّة ساعدته على البقاء مسيطرًا على الشعب كل هذه السنوات، ومن أهم هذه الأهداف حسب رأيي:

- تفريق وحدة مجتمع الأغلبية السنِّية، وزرع الخلافات والحقد بين أفراده؛ فمن كان النظامُ قد قتل له أحدَ أفراد اسرته أو آذاه بأي طريقة سيجد أنَّ بعضًا من أبناء طائفته ومجتمعه يعمل مع عدوه، وهذا طبعًا سيسبِّب الأحقاد.
- الاختراق: معروف طبعًا أنَّ جميعَ الأنظمة القمعية تعتمد على توظيف وتجنيد خونة تستطيع من خلالهم اختراقَ صفوف ومعرفة أسرار أيّ مجتمع أو مجموعة.
- نفي تهمة الطائفيَّة والعنصرية وتحسين صورة النظام أمام الرأي العام العالمي والعربي: حيث كان وما زال النظامُ الأسدي يتحدَث بأنه حكمٌ شعبي عادي، وليس قمعيًا طائفيًا

عنصريًا، وذلك بإظهار وإبراز بعض المسؤولين السنَّة أمامَ الرأي العام العالمي والعربي؛ وبالطبع - وكما شرحتُ سابقًا وكما عرفتُ وتأكَّدت فيما بعد من خلال عملي الأمني وحياتي - فإنَّ جميعَ هؤلاء المسؤولين والضباط السنَّة ما هم إلَّا صورة وواجهة وهمية ليس لهم أيُّ رأي أو قرار حقيقي في سياسة الدولة، ويجري إعطاؤهم سلطةً قوية فقط على أهلهم من أبناء الشعب للأسباب والأهداف التي ذكرتُها سابقًا.

ومن أهمِّ المناطق الخاصَّة بالمسلمين السنَّة، التي كان يُسمَح لأبنائها بمثل هذه الاستثناءات، محافظة درعا ومنطقة الرستن في ريف محافظة حمص؛ وهذا يعلمه أغلب السوريين، حيث لم يكتفِ بعضُ ضباط هذه المناطق ومسؤوليهم بعدم الاعتراض على مجازر حماة عام ١٩٨٢ وما قبلها وبعدها فقط، بل إنَّ الكثيرين منهم شاركوا بأنفسهم مع نظام الأسد في هذه الجرائم، وكانت المكافأةُ لهم في السنوات التي تلت ذلك السماح والتغاضي عن وجود أعداد منهم في بعض مواقع السلطة المحدودة عندَ النظام.

ومن هذه الفئة، التي جرى التغاضي عنها من الضباط، كان

جارُنا المذكور أبو اياد الذي ينحدر بأصوله من منطقة بصرى في ريف مدينة درعا؛ ومن أجل ما شرحتُه، كان لرتبته ووظيفته العسكرية تأثيرٌ في حياته وحياه عائلته وجميع من حوله؛ ففي ظلِّ نظام الأسد ولسنوات طويلة، كان يكفي لأي عسكري أن يرتدي الزيَّ الخاص بعمله، وأن يضعَ عليه الرتب العسكرية حتى تصبح أغلبُ أموره سالكةً وسهلة أينما اتَّجه في سوريا، حيث يمكنه مثلًا أحيانًا أن يوظِّفَ شخصًا في أحد الوظائف الحكومية، أو أن ينقلَ موظفًا إلى عمل آخر، ويمكنه أن ينقلَ طالبًا من مدرسة لأخرى، ويمكنه أن يعفي بعلاقاته أحدَ التجار من مخالفة تموينية، ويمكنه أن يؤمِّنَ زيارةً لأهل سجين مثلًا، ويمكنه أن يساعدَ ويدعم ويغيِّر مصيرَ وأيام أيّ شاب من أيّ أسرة في أثناء فترة خدمته الإلزامية والمفروضة على جميع الشباب السوريين في الجيش، والتي مدَّتها عامان ونصف، وقد تمتد أكثر أحيانًا.

كما يوجد أيضًا الكثير، غير هذه الأمور التي أوردتُها كمثال عمَّا يستطيع أيّ ضابط أو موظف عسكري أو أمني أن يفعله، وجميعُ هذه الخدمات تسير وتمرَّر وفق نظام متشابك من الرشاوى "ويسمِّيها

نظام الأسد الفاسد هدايا أو إكراميات"، والتي يجري تناقلُها وتبادلها بشكلٍ يومي بين جميع الاطراف في المجتمع السوري الذي جرى إفسادُه تمامًا في عهد حافظ الأسد.

وبسبب جميع ما سبق، في حال قام أيّ مواطن عادي برفض أيّ طلب أو حاجة لضابط، يستطيع هذا الضابطُ بسهولة أن يجعلَ حياةَ هذا المواطن صعبةً جدًا، هذا إن لم يقم أيضًا بتلفيق تهمة سياسية لهذا المواطن "وهو أمر سهل وسريع"، تجعله يغيب في ظلمات أقبية المعتقلات التي قد لا يعود منها أبدًا!!

من أجل كلِّ ذلك، كان جارُنا الضابط أبو إياد يحظى ومعه أسرته بما كان جميعُ من حولنا من جيران وأقارب لا يملك مثله؛ فالسيارةُ مثلًا كانت حلمًا بعيدَ المنال جدًّا لأغلب المواطنين السوريين المتوسِّطي الدخل وقتها، بينما كان أبو إياد لديه سيَّارتان، واحدة يملكها وأخرى مخصَّصة له من الجيش؛ وكانت الهدايا تنهال عليه وعلى زوجته وولده الوحيد بشكلٍ يومي وبكمِّية كبيرة؛ وكان الناس يتسابقون لإرضائهم أينما ذهبوا وتوجَّهوا. وبعدَ حضورهم وإقامتهم في جوارنا، وبسبب التقارب والصداقة التي

جمعت والدتي بجارتنا أم إياد، وكون ولدهم "إياد" في مثل عمر أخي الأكبر، ووجودهما معًا كزملاء دراسة في ذات المدرسة، فقد بدأت أنا نتيجة لهذه العلاقات أتردَّد مع والدتي وأخي إلى منزل هذه العائلة.

كان إياد هذا، وهو الولد الوحيد لهذه الأسرة، شخصًا أنانيًا مغرورًا "نرجسيًا"، تَعوَّدَ دائمًا للأسباب التي شرحتُها سابقًا من أهله "كونه وحيدَهم المدلَّل" ومن باقي الناس "لإرضاء والده الضابط"، أن يكونَ هو محور اهتمام كلِّ من حوله، وألاَّ يجري رفضُ أيّ طلب له؛ ولهذا، فقد كان إياد يملك ما يمكن وصفُه بقصر الأحلام ومدينة العجائب بالنسبة لأيِّ ولد عادي من عائلة عادية، مثلي في ذلك الوقت.

منذ أوَّل زيارة لي إلى غرفة إياد، كان ذهولي ودهشتي كبيرين؛ فمجرَّد كون ولدٍ صغير يملك غرفة خاصة به وحده هو أمرٌ لم يكن أغلبُ الناس من حولي يستطيعون الحصولَ عليه، فكيف إذا كانت هذه الغرفةُ ممتلئة بل وتفيض بالألعاب والأدوات العلمية الباهظة الثمن والمستوردة من الخارج، مثل جهاز عارض أشرطة الفيديو

الذي كان قد عُرِف حديثًا وقتها في سوريا، ولا يملكه إلّا الأغنياء في ذلك الزمان، وغيره الكثير ممَّا يحلم به أيّ ولدٍ في ذلك الحين، بل وحتى ما يحلم به الكثير من الكبار. ولكنَّ المفاجأة الأسعد والأهم، والتي كانت تمثِّل بالنسبة لي غايةَ اهتماماتي والتي لعب وجودُها عنده دورًا كبيرًا في حياتي، هي المجموعة الهائلة والرائعة من الكتب والقصص والروايات العالمية والمجلَّدات والموسوعات العلمية، حيث كانت هذه المكتبةُ بالنسبة لي في ذلك الزمان أغلى من كنوز الأرض جميعها، وقد قمتُ بعدَها بالالتصاق بهذه الكتب وهذه العائلة مدَّةً بلغت نحو ست سنين كاملة بكل ما تحمله كلمةُ التصاق من معنى؛ وتحمَّلتُ خلال هذه السنوات الفظاظةَ الشديدة التي كان يعاملني بها أبو إياد كلما رآني، وطرده لي من منزلهم مرَّات عديدة، تحمَّلت غرورَ وتقلب مزاج إياد ومحاولته الدائمة لاستغلالي ضدَّ أخي الأكبر بسبب محاولات إياد الدائمة للتآمر عليه والتفوُّق عليه في كل شيء "كون أخي زميله ومنافسه في المدرسة"؛ كما تحمَّلتُ نقدَ أهلي الدائم لي واندهاشهم من قبولي لجميع ما سبق من عائلة أبو إياد، واستمراري في الإصرار على الالتصاق بهذه العائلة وزياراتي لهم

في كلِّ يوم وفي كل وقت، جميع هذا وغيره لم يكن يهمني أبدًا في ذلك الوقت، فقد كنت هائمًا في بحر الكتب والقراءة والعلوم والثقافة، حتى إنَّ أهلي وقتها أطلقوا علي اسم: "دودة الكتب"؛ وحتى إنَّني، وبأفكاري الصبيانية في ذلك الزمان، كنت أقرأ ما استعيره من إياد من كتب في كلِّ مكان وزمان، حتى في أثناء الطعام وفي الخلاء "أعزَّكم الله ".

لقد مرَّت الكثيرُ من الليالي، التي كنت أذهب في صباحها إلى المدرسة دون نوم طوالَ الليل، بسبب كوني كنت أقرأ روايةً عالمية أو كتابًا علميًا أو فلسفيًا أو تاريخيًا، حيث لم أكن أرفض أو أوفِّر أو أترك أيَّ نوع من العلوم والكتب، حتى الأنواع التي كان غيري يرفضها أو يعتبرها غريبةً أو أنَّها تهم فقط من يختص في مجالات معيَّنة من العلوم، أو أنَّها لا تناسب سني مثل كتب التحليل النفسي أو الفلسفة أو الكتب السياسية والعسكرية. وكان لا يمضي يومٌ دون أن أقومَ باستعارة مجموعة جديدة لا تقلُّ عن عدة كتب ومجلدات يوميًا من إياد. والجميلُ في الموضوع أنَّ الله سبحانه وتعالى جعل لي هذا الكنز من الكتب والعلوم متجدِّدًا وغير محدود، لأنَّه بقدر ما

كنت أنا اقرأ واستنفد ما داخل هذه الكتب وأستعير منها يوميًا من عند إياد، فقد كان والده يحصل ويحضر له المزيد والمزيد وأكثر وأكثر منها، بسبب الهدايا التي تأتيه كما ذكرنا سابقًا، وكان الكثيرُ من هذه الكتب من الأنواع الغالية جدًّا والنادرة، والتي لم يكن أغلبُ الناس العاديين يستطيعون الحصولَ عليها.

وبالطبع، كان من أهمِّ ما اطلعتُ عليه وقرأته بفضول وشغف كبيرين، يبلغ حدَّ الدراسة والحفظ، هو الكتب الوثائقية والتاريخية التي تتحدَّث حولَ أجهزة الاستخبارات العالمية وتجارب الجواسيس العالميين الذين عملوا لصالح مختلف الأجهزة والدول في العالم، حيث قرأتُ حولَ نجاحاتهم وفشلهم، حولَ طريقة عملهم، حولَ تصرُّفاتهم وسلوكهم، حولَ أهدافهم، وما درسته وحفظته وفهمته وقتها من ذلك النوع من الكتب أصبح فيما بعد جزءًا من حياتي أنا الشخصية فيما بعد طوالَ عمري، كما سأذكر لاحقًا!.

وفترةُ القراءة المكثَّفة جدًّا هذه كان لها تأثيرٌ عميق ومفيد وكبير جدًّا في مستقبلي وثقافتي وأفكاري واطلاعي على الأفكار والتجارب والخبرات العالمية، فالحمد لله رب العالمين حمدًا كثيرًا طيِّبًا مباركًا فيه.

قيامنا بتأسيس تنظيم سري يعمل ضد نظام الاسد

كانت السنواتُ تمرُّ بسرعة في ظلِّ استغراقي في القراءة، كما ذكرت في الفصل السابق، وقد تلازم هذا جميعُه مع ما كان والدي "أسأل اللّه أن يرحمَه ويرحمنا" يحرص دائمًا من تعليمي وتلقيني إيَّاه في كل وقت وفرصة تُتاح له من الأفكار المنيرة والخيِّرة التي يجب أن نتعلَّمها من ديننا الإسلامي، مثل إنصاف المظلوم، وعدم ظلم الناس، وعدم التعدِّي على حقوق الآخرين، والقناعة بما رزقنا اللّه، والحرص على الرزق الحلال، وغيرها الكثير من التعاليم الإسلامية المشرِّفة والمعروفة. وقد كانت جميعُ هذه التعاليم تتناقض تمامًا مع ما كنت أشاهده في بلادنا سوريا في تلك الفترة، من فسادٍ ورشاوى وانحلال أخلاقي يقوم نظامُ الأسد بنشره وتعويد الناس عليه في كلِّ يوم. وبما أنَّ التهمةَ الأعظم والأخطر والأكثر إهلاكًا للمواطن

السوري في عصر نظام الأسد هي إكثار الصلوات في المساجد أو حضور الدروس الدينية والعلمية في المساجد والمنازل، والتي يلقِّيها علماءُ الدين، وحتى أبسط واجبات المسلم كتربية اللحية، والتي هي عادة تعدُّ حرية شخصية لكلِّ إنسان، كانت تهمةً وشبهة ويمكن أن تجعلَ فاعلها تحت المراقبة الأمنية وتجسُّس المخبرين والعملاء للنظام السوري، وبذلك قد تؤدِّي إلى اعتقاله وهلاكه. فلهذا، كان أغلبُ الأهالي يحرصون على التأكيد على الوصايا اليومية لأولادهم من مثل:

- يُفضَّل أن تُصلِّي في المنزل، رغم أنَّ الصلاةَ في المسجد أكبرُ ثوابًا ومطلوبة من كلِّ مسلم؛ ولكنَّنا لا نريد أن نلفتَ أنظارَ النظام تجنُّبًا للتورُّط في المشاكل.
- تجنُّب التحدُّث في الدين بشكل علني، وإلَّا مع من تثق فيه تمامًا.

وغير ذلك من الأمور، ممَّا كان يزيد التناقضَ والانفصام في حياتنا، وكنت دائمًا أربط في ذهني وتحليلي ما علَّمني إياه والدي من تعاليم الإسلام مع ما قرأته أنا في الكتب عن تجارب الأبطال في

مختلف دول العالم الذين ضحَّوا – عبرَ التاريخ – بحياتهم من أجل إنقاذ شعوبهم ودعم قضايا قومهم أو للتخلُّص من الظلم والعدوان أو من الاحتلال الذي كان واقعًا على بلادهم. ولهذا، ورغم حداثة سني وقتها، كان هاجسي السرِّي الدائم في داخل نفسي هو السؤال: ماذا أستطيع أن أفعلَ من أجل قضية ووضع قومي المظلومين!!؟

هل سأعيش كما عاش جيلُ والداي طوالَ حياتي خائفًا مضطهدًا!!؟

هل هذا يتناسب مع كرامتي الإنسانية والإسلامية!؟

وشاء الله – سبحانه وتعالى – عندَ بلوغي المرحلةَ المدرسية الثانوية، حين كان عمري حوالى ستة عشر عامًا، أن ألتقي بمجموعةٍ من الشباب في مثل سني حينئذٍ، وذلك في أثناء أحد المعسكرات الصيفية المدرسيَة التي كان يفرضها نظامُ الأسد في سوريا على جميع الطلاب، بغيةَ محاولة تثبيت أفكاره المسمومة وعقائده الإجرامية وزراعتها في أدمغة الطلبة منذ حداثة سنِّهم، مثل تقديس حافظ الأسد وتمجيده، وغيرها من الأمور التي تتناقض وتتعاكس تمامًا مع كلِّ معتقدات وتراث وعادات أغلبية

الشعب السوري المسلم السنِّي. وقد أصبح هؤلاء الشبابُ فيما بعد هم مجموعة أصدقائي المقرَّبين وزملائي وشُركائي في الأفكار وفي الحياة، خلال السنوات التي تلت هذا المعسكر، وخاصة أنهم جميعًا كانوا يتطابقون معي من حيث المنبتُ والنشأة والتربية والطائفة والدين والخلفية الاجتماعية والمعاناة الشخصية والعائلية من ظلم النظام السوري وأعوانه؛ وهذا ما جعلنا جميعًا وبسرعة كبيرة نصبح مجموعةً مترابطة متقاربة.

ومن بين هذه المجموعة الجديدة من الأصدقاء كان الشابُ الأبرز بينهم والأقرب إلى طريقة تفكيري والأكثر شبهًا بي في طريقة تمييز واختلاف مستوى الثقافة الشخصية، عن باقي أقراننا وجيلنا ووجود النضج الفكري والنفسي الذي كان وقتها مبكِّرًا وسابقًا لعمرنا، هو المدعو أحمد؛ وهو شاب ينحدر من عائلة متوسِّطة الدخل المادي مثل أغلب أسر مجتمعنا، وكان والدُه - رحمه الله - رجلًا كادحًا يعمل في تجارة المواد الغذائية، بالإضافة لكونه يعمل أيضًا مؤذِّنًا لأحد مساجد مدينتنا حمص. وتعود أصولُهم إلى عائلة دمشقية، ولكنَّهم أقاموا في حمص منذ سنوات طويلة. وكان

عملُ والد أحمد كمؤذن مسجد أفاده في حصوله على قدرٍ أكبر من أقرانه من الثقافة الدينية والعلمية التي كان يحصل عليها عن طريق متابعته للدروس العلمية والكتب واحتكاكه وتبادله المعارف مع طلاب العلم الذين جميعًا - وبفضل الله - لم ينقطعوا يومًا من مساجد حمص، برغم الكمِّ الهائل من القمع الذي مارسه ضدَّها نظامُ الأسد.

كما أنَّ هذه الظروفَ جعلت أحمد يتعرَّف، وعن قرب، بل ويعيش حالةَ الظلم والقهر والإذلال التي كانت توجَّه ضدَّ جميع من أو ما هو متعلِّق بالدين الإسلامي وبالأغلبية السنِّية بالتحديد. وإذا كانت هذه الممارساتُ موجَّهة ضدَّ الجميع، فإنها وبكل تأكيد كانت موجهةً بشكل مكثف وشديد ضدَّ جميع من يعمل أو يدرس في المجالات الدينية الإسلامية السنِّية، مثل خطباء المساجد والمؤذنين وأصحاب المكتبات الدينية. وكان أحمد يرى في معظم الأيام والدَه وجميع أصدقائه ممَن يرتادون المساجد في حمص، وهم من خيرة ونخبة المجتمع السوري، يجري اعتقالهم أو استدعاؤهم إلى الأفرع الأمنية بشكلٍ دوري ودائم، ممَّا ولَّد في نفسه ذات الوعي والمسؤولية

والأسئلة التي تولَّدت داخل نفسي أنا من قبل، ماذا نستطيع أن نفعل!؟ وكيف يمكننا أن ننقذَ أهالينا وقومنا وجميعَ أحبائنا من هذه المأساه المستمرَّة التي نعيشها!؟

في الحقيقة، ومنذ أوَّل لقاء لنا في أحد المعسكرات المدرسية، كما ذكرت سابقًا، أحسستُ أنا وهذا الشاب أنَّ كلَّ واحدٍ منا وجد ضالَّته في الآخر، حيث كان كلُّ واحد منا قبل أن يتعرَّفَ إلى الآخر يجد ويحس نفسه غريبًا بين أقرانه، ومن هم بمثل عمره؛ فالطبيعي بالنسبة لعمرنا، الذي كان في ذلك الوقت حوالى ستَّة عشر عامًا، أن يكونَ جلُّ اهتمام جميع زملائنا في المدرسة وأصدقائنا ومن هو في مثل عمرنا هو بالأمور المعتادة لهذا السن، مثل التعرُّف إلى الفتيات ومتابعتهنَّ واللعب والرياضة وغيرها من الأمور التي كانت هي محتوى جميع أحاديث وتصرفات هؤلاء. ولذلك، فإنَّ من كان له هم واهتمام أعمق وأعظم وأخطر من هذه المسائل، مثلي ومثل أحمد، يشعر نفسه غريبًا بين أقرانه، ويجد اختلافًا كبيرًا بين الأحاديث الثقافية والسياسية والتاريخية والدينية وغيرها التي يمكن أن يتحدَّثَ ويهتم بها من مثلي ومثل أحمد وبين نوعية

ومحتوى المواضيع والأحاديث التي يهتم بها الباقون.

كان كِلانا، قبل أن يعرفَ كلٌّ منا الآخر، يجد نفسَه مضطرًّا إلى اللجوء لمصادقة ومحادثة الأجيال التي تكبرنا وتزيدنا بالكثير من السنوات، لأنَّ عندَ بعضهم فقط كنَّا نجد اهتماماتٍ وأحاديثَ تشبه ما نبحث نحن عنه ونهتم به. ونتيجةً لما سبق، فمنذ أن تعرَّفنا أنا وأحمد إلى بعضنا، كنَّا كمن كان عطِشًا طوالَ عمره، ووجد الماء فجأةً؛ لذا، كنَّا ولسنواتٍ طويلة وكثيرة تلت هذه اللحظة متلازمين تمامًا في أغلب أوقات اليوم، وفي كلِّ مكان، في المدرسة وفي المنزل وخلال جميع الظروف؛ ففي الحرِّ الشديد والبرد القارس، لم نكن نشبع أو نكتفي أبدًا من تبادل المعلومات والمناقشات والأفكار والمشاريع والأحلام والتخطيط للمستقبل. لم نكن نفترق إلَّا عندَ وقت الطعام أو النوم، وسرعان ما نعود بعدَها لإكمال النقاش الذي كنَّا قد بدأناه سابقًا، أو لشرح كتاب قرأناه أو تجربة خاضها أحدُنا.

وبسرعةٍ هائلة، وفي وقت قصير ومنذ بداية صداقتنا "ورغم خطورة وندرة هذا الأمر بين السوريين في ذلك الوقت"، تولَّدت وترسَّخت بيننا ثقةٌ مطلقة متبادلة، وغالبًا ما كانت جميعُ الأحاديث

والنقاشات التي تدور بيننا تتَّجه بشكلٍ تلقائي، مقصود حينًا وعلى نحو لاشعوري أحيانًا أخرى، إلى الوضع السياسي والمأساة التي كنَّا جميعًا نعيشها في ظلِّ الحكم الديكتاتوري القمعي للمجرم حافظ الأسد ومن معه. ولما كانت مجرَّد الصداقة أو اللقاءات مع أيّ شخص له أو لأحد أقربائه أيّ صلة بالمساجد أو بالأشخاص الملتزمين دينيًا تشكِّل أمرًا مرعبًا جدًّا لأيِّ مواطن سوري، كونه يعلم أن هذه العلاقةَ يمكن أن تجلبَ إليه ومعه عائلته أنظارَ ونقمة أجهزة النظام الأسدي، فقد كان خوفُ أهلي على أنفسهم وعليَّ كبيرًا عندما شعروا بهذه الصداقة بيني وبين أحمد، وحاولوا كثيرًا وبمختلف الطرق حتى العنيفة منها بعضَ الشيء معي، أو مع صديقي أحمد أحيانًا، أن يوقفوا هذه الصداقةَ، وخاصَّة بعد أن علموا أنَّ بعضَ لقاءاتنا كانت تجري في المساجد، وأنَّنا نحضر معًا الخطبَ والدروس الدينية فيها أو في بعض المنازل بشكلٍ سرِّي ومتكرِّر. وقد زاد هذا من غضبي من الوضع العام في سوريا، وزاد من إصرارنا أنا وأحمد على متابعة صداقتنا، لأنَّني كنتُ أعلم في قرارة نفسي أنني أفعل الصوابَ، وأنني اخترتُ صديقًا أحسبه

ويحسبه الناس صالحًا وجيِّدا في ذلك الوقت، وأعلم أنَّ والداي يظنان ذلك أيضًا في قرارة نفسيهما، وكان الأمرُ الطبيعي الذي يجب أن يحدثَ في الحالة الطبيعية أن يفرحَ أيّ والدين ويفتخران أنَّ ابنهما ملتزمٌ بالأخلاق الحسنة وبالتردُّد إلى بيوت العبادة مع صديقه، وبالأحاديث العلمية والدينية المختلفة بدلَ أن يضيع وقتَه مثل الشباب الآخرين باللعب وتعلُّم العادات السلبية مثل شرب الخمر أو مشاهدة الأفلام الإباحية وغيرها من التصرُّفات التي كان يفعلها كثيرٌ من الشباب.

ولكنَّ الوضعَ الاجتماعي والسياسي الشاذّ، الذي صنعه نظامُ الأسد الطائفي في أثناء حكمه لسوريا، جعل الفسادَ والانحلال الأخلاقي والفجور هي الأمور المحمودة والمأمونة العواقب، والتي شجَّع عليها جميعًا ونشرها هذا النظامُ بين الشعب السوري بغيةَ إضعاف وتشتيت عقول هذا الشعب كي يبقى مسيطِرًا عليهم، ومن أجل منع وجود أمثالنا بين الشعب ممَّن يفكِّر بطرق التخلُّص من النظام ومن الظلم، وهذا طبعًا سيشكِّل خطرًا وتهديدًا لوجوده، وجعل الصلاحَ والالتزام بالإسلام والتفكير الحر أمرًا مرعبًا ينفر

منه الناسُ ويخافون. وبسبب جميع الأسباب والتفاصيل السابقة، فقد كنت أعذر وأتفهَّم والدايَّ تمامًا وسبب تصرفاتهما "سامحهما الله "، فهما كانا مثلهما مثل عشرين مليون مسلم سنِّي آخرين مظلومين مضطهدين مقهورين في سوريا.

ونتيجةً لخوف أهلي هذا، بالإضافة إلى كمية الوقت الكبيرة التي كنا نلتقي فيه والتي تجعلنا بحاجة لمكان لا نزعج عائلاتِنا بإشغالنا له فتراتٍ طويلة، فقد أصبحت أغلبُ لقاءاتي المنفردة بأحمد تجري في حديقةٍ عامة تقع مقابلَ منزل أهله؛ وعلى أحد مقاعد هذه الحديقة، بقينا فترةً تزيد على خمسة عشر عامًا نلتقي ونتناقش ونتشارك كلَّ شيء بيننا، وفي بعض الأحيان مع باقي مجموعتنا من الأصدقاء حتى أصبح أهلُنا والجيران وروَّاد الحديقة وجميع من يعرفنا يعلمون أنَّنا متواجدون في هذه الحديقة دائمًا.

كنَّا خلال ذلك نتحمَّل ما نتحمَّله في هذا المكان المكشوف من حرِّ الشمس في الصيف والزمهرير والبرد والثلوج في الشتاء ونحن جالسون دائمًا ولساعات طويلة على مقعد هذه الحديقة كلَّ يوم، بطريقة كانت تُذهِل من يرانا في هذه الحال، وقد ارتأينا أيضًا أنَ

وضعَ المقعد في وسط حديقة عامَّة كان يعطينا شعورًا بالأمان التام، لأنَّ جميعَ الاتجاهات حولنا كانت مكشوفةً، وبهذا لن يستطيع أيّ أحد من عملاء وموظّفي وجواسيس أجهزة الأمن والاستخبارات الأسدية، المنتشرة في كل مكان، أن يقتربَ منا دون أن نشعرَ به ونحذر منه؛ كما اعتقدنا أيضًا أنَّه لن يخطرَ على بال أحد أنَّ جلسات وأحاديث بغاية الخطورة تكون أغلبها مضادَّة لنظام الأسد، ولا يجرؤ أحد على فعلها حتى في الأماكن التي تعدُّ مغلقةً وآمنة، ستجري بكل بساطة أمامَ أعين الجميع في حديقة عامة؛ وقد نجح هذا التفكيرُ والتخطيط فعلًا لفترة طويلة جدًّا .

وفعلًا ، دارت بيننا في هذا المكان نقاشاتٌ، وتحدَّثنا في مواضيع وأنجزنا أمورًا كانت من الخطورة بحيث إنَّ أيّ موضوع منها كان يمكن أن يهلكَنا وينهي وجودَنا ووجود عائلاتنا وعائلات أصدقائنا بكلِّ ما تحمله كلمة هلاك من معنى لو علم أحدُ تابعي النظام الأسدي به، وقد أُعدِم الكثيرون من قبلُ هم وعائلاتهم أحيانًا من قِبَل هذا النظام بسبب أحاديث أقلّ أهمية وخطرًا بكثير ممَّا كنا نحن نتداوله في هذا المكان، والأمرُ الطريف أنَّنا اسمينا هذا المقعد

الذي نجتمع فيه في الحديقة ساخرين ومازحين "قصر المؤتمرات".

والحقيقة أنَّ الشجاعةَ الشديدة واندفاع الشباب والإصرار على الهدف الإصلاحي لمجتمعنا السوري، الذي جعلناه وقتها حلمَنا وأملَنا الوحيد، هي ما أظنُّه جعلنا نتحمَّل أن نضعَ أنفسنا وجميع من حولنا في هذا الخطر الرهيب لمدَّة سنوات طويلة، رغم أنَّنا في أعين غيرنا في ذلك الوقت مجرَّد شباب صغار في بداية أعمارهم لا يظن أحدٌ منهم أنَّ أمثالنا يمكن أن يشكِّل خطرًا أو تهديدًا لأحد.

كان السؤالُ الذي نطرحه دائمًا هو ذاته يتكرَّر بيني وبين أحمد، وهو ماذا نستطيع أن نفعلَ بإمكانياتنا الضعيفة جدًّا حينئذٍ كي ننقذَ أو نشارك في إنقاذ مجتمعنا ممَّا يعانيه من الاضطهاد!؟

أخذنا على مدى سنوات ندرس ونراجع ونقرأ ونسأل ونتعلَّم عن جميع ما سمعنا به من تجارب الأحزاب والتنظيمات والثورات في العالمين العربي والعالمي، ولماذا نجح من نجح منهم، ولماذا وكيف فشل من فشل منهم!؟ وكنَّا لا ندخِّر جهدًا مهما كان صعبًا بهدف زيادة اطِّلاعنا ومعلوماتنا في هذا المجال؛ فإذا سمعنا بكتابٍ مثلًا جرى منعُ تداوله من قبل نظام الأسد بسبب أنَّ مؤلفه هو أحد

مفكِّري حزب الإخوان المسلمين أو غيره من الأحزاب والحركات الكثيرة التي منع النظامُ تداولَ أفكارها بين أفراد الشعب، وعلمنا أنَّ هذا الكتابَ مخبَّأ في مكان يخص أحدًا نستطيع الثقة به من مجتمعنا، كنَّا نبقى مصرِّين ونخطِّط ونعمل حتى نتعرف إلى هذا الشخص، ونستطيع الحصولَ على الكتاب منه وقراءته. وإذا سمعنا بأحد جرى اعتقالُه أو استدعاؤه سابقًا من قِبَل أحد أجهزة القمع السورية وخرج حيًّا بعد ذلك، كنَّا نسعى حتى نلتقي به ونجعله بشتى الطرق يثق بنا حتى يروي لنا ما نجهله عن طريقة عمل أجهزة الأمن السورية. وبعدَ نجاح كل جهد من هذا النوع، وبعد كل معلومة جديدة، كنَّا نحصل عليها كانت تشتعل بيني وبين أحمد "وأحيانًا بحضور بعض من نثق بهم من باقي مجموعتنا من الأصدقاء" النقاشات التي كانت تستمرُّ لأيام، وأحيانًا لأشهر، حولَ كيف نستطيع تقليدَ الأحزاب والحركات التي حصلنا على معلوماتٍ عنها، وكنَّا غالبًا ما نصل إلى طريق مسدود بسبب العوائق الهائلة التي وضعها النظامُ الأسدي لإيقاف ومراقبة أيّ عمل من النوع السياسي أو الثوري أو حتى الفكري ضده، والرقابة

الكاملة التي يفرضونها على جميع فئات الشعب وجميع الأماكن، وبسبب إمكانياتنا نحن شبه المعدومة "وخاصة المادية"، لأنَّنا كنا مجرد طلاب مدارس نحصل على مبالغ بسيطة فقط من عائلاتنا كمصروف.

استمرَّ تكرارُ هذه الأمور جميعها بيني وبين أحمد مدَّةَ ثلاث سنوات، حتى أصبحنا في نهاية المرحلة الدراسية الثانوية حيث بدأ شعورُ الثقة بالنفس يزداد في أنفسنا؛ وهنا كان قرارنا الذي ترك أثرًا في كامل حياتي أنا الشخصية فيما بعد، حيث قرَّرنا أنا وأحمد أن زمنَ الكلام والنقاش بيننا طال كثيرًا وحان وقتُ العمل والفعل؛ وكان هذا الفعل الذي قرَّرناه وقمنا به وقتها لا يجرؤ عليه أشجع الشجعان في سوريا، ومن تجرَّأ على فعله "مثل الإخوان المسلمين مثلا" كان مصيرُه الهلاك؛ فقد قرَّرنا تأسيس تنظيم ضد نظام الأسد، وأن يصبح نواة لحزب أو حركة سياسية أكبر فيما بعد إن وفَّقنا الله سبحانه وتعالى في ذلك، وطبعًا كانت خطتُنا أن نبدأَ بدعوة جميع من وطَّدنا معهم الثقة من أصدقائنا وزملاء دراستنا للانضمام لهذا التنظيم، وأن يجري هذا بعدَ اختباراتِ ثقة نهائية

نقوم بها أنا وأحمد بالاتفاق والتنسيق فيما بيننا لكلِّ شخص ننوي دعوتَه، ودون أن نشعره بهذا في البداية، ثم تجري دعوةُ كل شخص وحده على حدة من قبل أحدنا، مستخدِمين في هذا جميعَ ما قرأناه وتعلمناه عن تجارب أجهزة الاستخبارات العالمية ومذكَّرات الجواسيس التي عكفنا أنا وأحمد طوالَ سنوات على قراءتها ودراستها بشغف، حيث كنا نعطي كلَّ شخص أسرارًا ومهامَّ وهمية تحمل خطرًا محدودًا فقط علينا، وننتظر بعدَها ونراقب ردَّة فعله لفترة، ثم نقوم بعدها - إن سارت الأمور على ما يُرام - بجسِّ نبضه ودرجة حماسه لفكرة تحرير شعبنا السوري من نظام الأسد، وكم هي درجة استعداده للعمل والمخاطرة والتضحية من أجل هذا الهدف، من خلال نقاشات وأحاديث نستجرُّه إليها؛ وعندما نتفق أنه مستعدٌّ ومناسب لتنظيمنا، كان يقوم أحدُنا كما ذكرنا وبشكل منفرد وشخصي وسري ومباشر بدعوة هذا الشخص إلى الانتساب لهذا التنظيم، وبعدها امتصاص ردود افعاله "التي غالبًا ما تكون رعبًا شديدًا وارتباكًا في البداية" ومراقبتها ودراستها فيما بعدُ للاستفادة من النتائج في تحسين طريقتنا للدعوة، هذا جميعه مع

الاستعداد من قِبلنا للإجابات المناسبة عن بعض الأسئلة البديهية التي سيطرحها أغلبُ الأشخاص حين ندعوهم إلى هذا الأمر، ومن هذه الأسئلة:

- هل نحن سنكون تابعين لأيِّ تنظيم أو حزب آخر معروف؟

- **الجواب:** لا نحن فقط مجموعة من الشباب الذين نريد أن نرضيَ اللّه - عزَّ وجلَّ - ونؤدي واجبَنا تجاه ديننا ووطننا ومجتمعنا بمحاولة رفع الظلم عنه.

- ماذا يجب أن نفعلَ، وما هو المطلوب ممن يقبل الانتساب؟

- **الجواب:** حاليًا ليس مطلوب سوى الموافقة على الفكرة والمبدأ، وزيادة العدد من خلال قيام كل منتسب جديد بترشيح أشخاص يرى أنَّهم قابلون للانتساب معنا، ويثق بهم ثقة مطلقة، وطبعًا كالعادة ستجري مراقبةُ واختبار هؤلاء المرشَّحين الجدد فترةً كافية قبلَ دعوتهم للانتساب للتنظيم، وطبعًا يجري هذا بشرط المحافظة على السرِّية المطلقة والتمويه الكافي وعدم إظهار أيّ ميول تجاه هذا النوع من الأفكار والأعمال علنًا على الملأ.

- **هل نحن نملك أيّ مصادر تمويل؟**

- **الجواب:** حالياً نحن نعدُّ أنفسَنا نواةً بسيطة بقدر إمكانياتنا المتواضعة كمجرَّد طلاب، وسيجري البحثُ وإيجاد مصادر تمويل إن أعاننا الله، ربما من خلال تنسيب أشخاص لديهم القدرة المادية ولديهم القناعة والرغبة بتمويل هذا الأمر الذي يخدم قضيةَ قومهم، أو من خلال جمع مبالغ اشتراكات من أعضاء هذا التنظيم إن أصبحَ العددُ جيِّدًا وكافيًا لتغطية التمويل من أفراده.

وغير هذه طبعًا من الأسئلة التي تختلف باختلاف الأشخاص.

وقد كان نجاحُنا جيِّدًا وشبه كامل بالنسبة إلى الدائرة المقرَّبة من الأصدقاء التي تحيط بنا، كوننا أصلًا كنَّا قد اخترناهم سابقًا، واستمررنا في صداقتنا معهم، بسبب تقارب بعض أفكارهم وميولهم مع مبادئنا. وقد وافق الجميعُ تقريبًا، وانتسبوا معنا رغم الخوف والذعر الذي كان يظهر على وجه كل شخصٍ منهم حين نعرض عليه الانضمام إلينا بشكلٍ مباشر، وقد كنا أحيانًا أنا وأحمد وبخبث غير ضار نستمتع برؤية ردود أفعالهم ومراقبة انفعالات وجوههم، ثم نقوم فيما بعدُ بمناقشة ردود الأفعال هذه وما طرحوه

من أسئلة بيننا كي نستفيدَ من النتائج فيما بعد في أثناء قيامنا بدعوة غيرهم.

لقد كان النجاحُ والعدد الذي حصلنا عليه من المنتسبين جيِّدًا بالنسبة لمبتدئين مثلنا، وخاصة مع إمكانياتنا المتواضعة جدًّا؛ وقد توقَّفنا فترةً صغيرة أنا وأحمد عندَ مناقشة اختيار اسم لهذا التنظيم، وكنا نستعيد في أذهاننا ما نعرفه من أسماء التنظيمات العربية والعالمية التي نعرفها أو سمعنا بها، عسى أن نستفيدَ منها في وضع اسم لتنظيمنا الناشئ، ولكنَّ أحمد اقترحَ اقتراحا وقتها لاقى لديَّ قبولًا من حيث إنه عمليٌّ وبسيط، كان اقتراحُه عدم الاستعجال في وضع اسم نهائي لتنظيمنا حتى يصبحَ العدد أكبر، وتزداد الثقة بالنفس وبالآخرين بين أعضائه؛ وهذا الأمر سيقلِّل الأخطار أيضًا في حال وقوع أيّ أحد من الأعضاء "لا سمح الله" في يد النظام الأسدي، واقترح أحمد أن نضعَ حاليًا اسمًا وهميًا ساخرًا سخيفًا، لا يمكن أن يثيرَ انتباه أيّ أحد أو يشعر بخطورته حتى لو سمعه سوى من يعلم معناه من مجموعتنا، وبهذا يكون اسمًا مشفَّرًا بيننا، وقد أسميناه "مجموعة تعليم الأطفال الصغار الدخول إلى الحمام"؛

وقد ضحكنا وسخرنا طويلًا من هذا الاسم، وكنا نضحك في كل مرة نخبر أحدًا ممن هو معنا في التنظيم، ولكنها في الحقيقة بدت لي وقتها على بساطتها فكرةً مبتكرة عبقرية، وجعلتنا نتمكَّن من الإشارة إلى أيّ موضوع يخص تنظيمنا إن اضطررنا للحديث عنه في مكان عام دون لفت انتباه أيّ شخص حتى لو كان موجودًا معنا.

في هذه الفترة، أكرمني الله بالنجاح والحصول على الشهادة الثانوية، وقد برزَتْ في دماغي فكرةٌ نتيجة بحثي وتفكيري الدائم ليلَ نهار حول ما هية الخطوة القادمة الممكنة في طريق أهدافنا!؟ ماذا سنفعل بعدَ أن أنشأنا تنظيمًا، وضممنا إليه أعضاء، فما الخطوةُ الأولى التي سنستطيع تنفيذَها ضد نظام الأسد؟ خطر على بالي وقتها العديدُ من الاحتمالات جوابًا عن هذه الاسئلة؛ فمثلًا، هل نوزع منشورات تحرِّض الناس على الثورة والتمرُّد؟ هل نكتب على الجدران العامة عبارات ضد النظام؟ هل نحاول الحصولَ على سلاح إن استطعنا تأمين مصادر تمويل، ونقوم بتدريب عناصر تنظيمنا على المقاومة المسلَّحة كما فعلت معظمُ التنظيمات الثورية في العالم؟

وهنا برزت الحقيقةُ التالية في رأسي: من هو عدوُّنا الأكبر والأخطر والمخيف أكثر؟ الجواب: طبعًا أجهزة أمن واستخبارات النظام ذات العدد والانتشار الهائل في سوريا؛ إذًا ما هي أفضل طريقة للانتصار عليهم أو مجابهتهم وتحدِّيهم!؟ الجواب: ليس لدينا معلوماتٌ كافية أبدًا عنهم، لأنَّ الجهاز الأمني السوري جرى تشكيلُه بأغلبه من عناصر تنتمي للطائفة النصيرية الحاكمة، وهي أقلية طائفية تقدِّس حافظ الأسد، ومن شبه المستحيل اختراقهم من خلال تجنيد أو استمالة أحد منهم، لأن مصلحتَهم الكاملة في بقائهم مخلصين تمامًا لنظامهم نظام الأسد.

ما هو الحلُّ إذًا؟ كيف سنستطيع مواجهةَ أكبر مخاوفنا وأكبر أعدائنا؟

عندَ هذه النقطة من التفكير، وفي ذلك الوقت وكوني كنت بعدَ حصولي على الشهادة الثانوية العامة في المرحلة التي يجب عليَّ وعلى كل طالب فيها أن يختارَ الاختصاص والجامعة أو المعهد والمجال الذي يجب أن يتابعَ دراسته فيه، فقد بزغت في ذهني فكرةٌ واضحة خطيرة وجريئة!

لماذا لا أقوم بنفسي بمحاولة اختراق هذا الجهاز الأمني الرهيب!؟

لماذا لا أسعى بنفسي للتوظُّف والعمل فيه!؟

وهل هناك أمرٌ أفضل وأكثر نجاحًا لأي تنظيم معارض لنظام الحكم، في أيّ بلد في العالم، من أن يكونَ أحدُ أعضائه بل مؤسِّسه يعمل جاسوسًا لصالحه من داخل أكثر جهاز أهمية وحساسية لذلك النظام، والذي يعتمد عليه الأخيرُ اعتمادًا كاملًا في إبقاء قوته وسيطرته على الشعب!؟

عندما وصل ذهني إلى هذا الحلِّ وإلى هذه النتيجة، شعرتُ فورًا بأنَّ دقَّات قلبي تسارعت حتى تكاد أن تنفجر، وأحسستُ بانقباض في معدتي، فأنا والله أعلم وبفضله هو - عزَّ وجلَّ - لم أخف يومًا من أيّ مخلوق، ولكن هذا الأمرَ قد يكون أفضلَ خطة في العالم إن نجح، ولكنه في الوقت نفسه قد يكون أكثرَ عملٍ أحمق يؤدي إلى الهلاك الرهيب إن لم يُنفَّذ بشكلٍ جيِّد، أو فشل أو انكشف، ونسبة احتمالات نجاحه أو فشله وأي احتمال هو على الأغلب أمورٌ لا يعلم حقيقتها إلَّا الله عز وجل؛ كما أنني كشاب في مقتبل العمر وبداية

المرحلة التي يفترض فيها أن ابدأَ بتأسيس مستقبلي، وأن أتمتَّع بحياة وأيام طبيعية في الجامعة، كما سيفعل جميع أقراني، ربَّما سأكون بهذه الخطة قد ضحَّيت بمستقبلي وحياتي ورميت نفسي في جحر للشياطين والمجرمين الذين لا يشبهونني ولا أشبههم في شيء، وسأُضطر أن أعيشَ وأعمل معهم إلى نهاية حياتي، أو إلى أجل لا يعلمه إلَّا اللّه عز وجل، وأن أتقبَّلَ ذلك رغم كونهم أعدائي وأعداء قومي، وهذا جميعه من أجل هدف لا أحد يعلم إلا اللّه سبحانه إن كنتُ سأستطيع إنجازَه أم لا!!

كانت خطوتي بعدَ هذا هي عرض فكرتي وخطَّتي هذه على شريكي وصديقي أحمد، ومعرفة رأيه في هذا الأمر ومناقشته في تفاصيله؛ وأستطيع أن أؤكِّد أنَّني وحتى لحظة كتابتي لهذه السطور، ورغم أنَّه قد مضى عشرون عامًا على تلك اللحظة، ولكنَّني لا زلتُ أذكر ولا أستطيع أن أنسى ردةَ فعل أحمد عندما طلبتُ منه اجتماعًا عاجلًا وسرِّيًا جدًّا، وحضرتُ أنا إلى منزله وكنا وحدنا هناك كون أهله كانوا قد غادروا المنزل؛ وبمجرَّد أن أنهيتُ شرح فكرتي له، حتى جحظت عيناه وانتفض كأنه قد لُدغ، وشعرتُ أنَّ

جدارَ الثقة المطلقة الذي بنيناه أنا وهو خلال سنوات من الصداقة والأخوَّة والشراكة كاد أن ينهارَ في هذه اللحظة، وتغلَّبت عليه غريزةُ الخوف والشك في الغدر والخيانة التي طالما زرعها ورسَّخها نظامُ الأسد بين الشعب طوالَ عقودٍ مضت، من خلال دسِّ الخونة والعملاء وتجنيدهم، والذين كان بعضُهم يوافق على خيانة حتَّى عائلته وأقاربه؛ وكانت أولُ عبارةٍ تفوَّه بها أحمد: "إن أنتَ فعلتَ هذا حقًّا وتوظَّفت في أيّ جهاز أمن سوري، فاعتبر في نفس اللحظة التي تفعل هذا فيها أنني لا أعرفك ولم أعرفك أبدًا طوالَ حياتي، ولن أعرفك أو أتعرَّف إليك بعدها ".

ولكن، بعدَ ذلك، وعلى أثر نقاشات طويلة جدًّا شرحتُ خلالها خطتي لأحمد، حيث إنَّني لست أنوي أن أكونَ جاسوسًا لتنظيمنا داخل الاستخبارات الأسدية، وأكتفي بذلك، بل إنَّني قد خطَّطت أيضًا أنه – في حال نجح الأمر واستطعت أن أخدعَهم بشكلٍ جيِّد – فإنَّ الخطوةَ التي بعدها وبالإضافة للأعمال الاعتيادية للجواسيس التي كنتُ أنوي تنفيذَها داخل الجهاز الأمني من تخريب وتسريب معلومات وزرع شائعات وفتن بين صفوف أعدائنا ... إلخ، سأحاول

أن أكونَ عونًا وداعمًا، وأتوسَّط لغيري من شباب قومي المجتمع السنِّي للدخول والتوظُّف والعمل في هذا الجهاز، وزرع المزيد والمزيد من أمثالي داخله حتى نتمكَّنَ شيئًا فشيئًا من التسرُّب إلى داخل أجهزة النظام الحاكم، وزيادة عددنا بينهم، كما فعلوا هم مع شعبنا من قبلُ حتى نقلبَ السحر على الساحر، لأن أبناءَ طائفة الأسد النصيرية سابقًا تسلَّلوا وسيطروا على الجيش والأمن والقوات المسلحة تدريجيًا بذات الطريقة السرِّية في بداية الأمر، حتى استطاعوا فيما بعدُ الاستيلاء على سوريا وشعبها رغم كونهم أقلِّية صغيرة.

كان أحمد يعلم تمامًا مثلي، ومثلما شرحتُ له، أنَّ هذه الخطةَ إن أنجحها الله - عزَّ وجلَّ - فستكون ذات أثرٍ رائع وكبير في كفاحنا ضدَّ ظلم واضطهاد نظام حافظ الأسد لشعبنا؛ ولكنَّ السؤالَ الأكبر والأهم والأخطر يبقى هو: هل سينجح شابٌّ صغير مثلي في هذا العمل والاختراق الذي عجز عنه شعب بأكمله!؟ وكم هو الزمن الذي سيحتاج إليه الأعداءُ حتى يجري اكتشاف أمري وإعدامي!؟

وهنا لابدَّ لي من أن أشيرَ لأمر قد يعلمه معظمُ السوريين،

ويجهله غيرهم، وهو من الأمور الشاذَّة السيئة التي تميَّز بها نظامُ الأسد الحاكم في سوريا عن أيّ نظام آخر، وهو أنَّ من يصبح موظَّفًا، عاملًا أو ضابطًا في أجهزة الأمن السورية بأي صفة أو رتبة عسكرية، فإنَّه لا يستطيع أبدًا تركَ هذا العمل والخروج منه عندما يريد ذلك، إلَّا في حال إصابته بعاهة دائمة أو مرض عقلي أو نفسي كبير أو طبعًا بموته، وهذا يعني أنَّه طريق لا رجعة فيه! والله المستعان على هذا.

تطلَّب الأمرُ بعضَ الوقت حتى اقتنع صديقي أحمد رغم تشكُّكه المبرَّر طبعًا في مقدار نسب النجاح والفشل في هذه الخطَّة، وبعدها بدأت مرحلةٌ أخرى ضرورية وصعبة، حيث كان يلزمني بعد هذا طرح الموضوع على والدايَّ وإقناعهما بالفكرة، ويجب أن يجري ذلك دون أن أكشفَ لهم عن الأسباب والدوافع الحقيقية التي سأفعل هذا الأمرَ من أجلها "لأنَّهما لم يكونا يعلمان أيّ شيء عن موضوع تنظيمنا السياسي السرِّي، لأنني لم ولن أخبرهما أو أُلمِّح إليهما بأي شيء يشعرهم بهذا، حفاظًا على سلامتهما وسلامة وسرية التنظيم".

ولم تكن هذه المهمةُ سهلةً أبدًا، فقد كان من شبه المستحيل أن يتقبَّلَ والداي فكرة أنَّني أنا ولدهما الشاب، الذي ربَّياه على الالتزام بمكارم الأخلاق ويظنان أنَّه ملتزم بتعاليم الدين الإسلامي وبالابتعاد عن ضرر أيّ إنسان، ورغم كل هذا أريد الآن أن أنضمَّ وأعمل مع أقذر وأخطر عصابة إجرامية في البلاد، قتلت وشرَّدت واعتدت على مئات الألوف من السوريين، واضطهدت شعبًا كاملًا يبلغ تعداده الملايين!

كانت مهمةُ إقناع والدايَّ صعبة جدًّا، أخذت مني شهورًا، وقد ألهمني اللّه خطةً لفعلها، وذلك أنني أقنعتهما في تلك الفترة من خلال افتعالي واختلاقي لمختلف أنواع المشكلات معهما وغيابي لفترات طويلة جدًّا عن المنزل، وامتناعي عن تسجيل نفسي كما يفترض كطالب في أيّ جامعة أو معهد لمتابعة دراستي بعدَ حصولي على الشهادة الثانوية، حتى وصل أهلي إلى قناعة أنَّني أصبحت شابًا أرعنَ طائشًا، وأنَّني على وشك إضاعة مستقبلي والسير في طريق الشبان الفاسدين الذين لا مستقبل جيِّدًا لهم؛ وعندَ وصولهم إلى هذه المرحلة من اليأس من وضعي، قمتُ بطرح فكرة

رغبتي بالتطوُّع والتوظف في جهاز الأمن السوري عليهما، وطبعًا كان ذهولهما كبيرًا ورفضهما قاطعًا، حتى إنَّهم سخروا في بداية الأمر من هذه الفرضية تمامًا؛ ولكن، مع إلحاحي وتكراري لعرض هذا الأمر مجدَّدًا، مرارًا وتكرارًا عليهما كحلٍّ وحيد يؤمِّن لي عملًا ومستقبلًا "كما أوهمتها أنا أنَّ هذا هو السبب الوحيد"، بدأ والدايَ يستسيغان الفكرةَ على مضض، أو ربما ظنَّا أنهما إذا مثَّلا علي لفترة دور قبولهم للأمر، فإنَّها ربما ستكون حسبَ اعتقادهم نزوةً عابرة أو فكرة طائشة طرحها ولدهم الطائش "أنا" وغير المدرك لعواقب الأمور.

وخلال مرحلة إقناعي لهم، كان والدي "أسأل الله أن يرحمَه ويجزيه كلَّ خير" يعرض عليَّ حلولًا بديلة يمكن أن يحاولَ أن يقدِّمها لي بإمكانياته المتواضعة وقتها لتأمين مستقبلي؛ فمرَّةً كان يقول لي إذا كنت تريد أن أساعدَك، فساعمل على استئجار متجر وافتتاحه لتعملَ فيه بأي مهنة تختارها؛ ومرة أخرى يقول لي إن انت أردتَ إكمال دراستك في أيّ مجال، فإنني سأبقى متكفِّلًا بمصاريف هذا الأمر قدرَ ما تشاء، ولكن جوابي له كان إصراري أكثر وأكثر على

أفكاري. وعندما لاحظا كلاهما أنه لا مهربَ من سماعهم لرأيي وقراري أخيرًا، كان سؤالهما، وهو سؤال واقعي ومفاجئ لي، لأنني سبحان الله كنتُ قد نسيت في غمرة الأَحداث الماضية إيجادَ جواب وحل له وهو: إذا نحن وافقنا معك على أن تقومَ أنت بالتوظُّف في أحد أجهزة الأمن السوري، فمن سيوصلك لتحقيق هذه الغاية!؟

كان سؤالهما صحيحًا تمامًا، فقد كانت أجهزةُ الأمن - كما شرحت سابقًا - أجهزة فئوية طائفية لا يجري تنسيبُ أو توظيف أيّ عنصر جديد فيها إلَا بوساطة أو كفالة ودعم من أحد ضباط الجهاز نفسه، أو من أحد المسؤولين المقرَّبين للحكومة والدولة. ومن المؤكَّد أنَ دخولَ شاب مسلم سني وملتزم أيضًا، ومن عائلة ذات خلفية معادية للنظام الأسدي، وتوظيفه في أجهزة الأمن كان أمرًا صعبًا جدًّا.

وشعرتُ عندها أنني، وقبلَ كل شيء يجب أن ألجأ إلى الله، نعم اللجوء إلى ربي - عزَّ وجلَّ - بالدعاء والاستجارة، لأنَّني ورغم قيامي بإقناع كل من حولي إلاَّ أنه في قلبي بقي شيء من الشك في صحة وصواب قراري وخطتي، ولذلك بدأت أصلِّي لله تعالى صلوات الاستخارة وأقول داعيًا:

يا رب إن كنتَ تعلم أنَّ أمري هذا خير ويرضيك وهو في سبيلك، فيسِّره لي واجعله سهلًا يارب، وإن كان شرًّا فأبعدني عنه يارب أو أرني إشارةً على شرِّه.

ومن فضل الله وليتم - عزَّ وجلَّ - قدرَه، رأيت في نومي بعدَ دعائي غيومًا بيضاء، وقد أوَّلتُها واعتبرتها إشارة من ربي - عزَّ وجلَّ - أنَّ الأمر خير، وفعلًا حدث معي بعدها من تيسير الأمور ما أظنه دليلًا على صدق نيَّتي في هذا الأمر، والله أعلى وأعلم.

وحين اعتصرتُ أفكاري وراجعت وبحثت مطوَّلًا في طريقة تجعلني أستطيع الدخولَ إلى أحد أجهزة الاستخبارات، خطرَ في بالي مجموعةً من الأشخاص الذين نعرفهم في مجتمعنا، والذين هم من القلائل الذين لهم - ولأسباب شرحنا بعضها سابقًا - علاقات جيِّدة ببعض ضباط ومسؤولي نظام الأسد؛ وقرَّرتُ أن أطلبَ من والدي أن يجرِّبَ التحدُّثَ معهم واحدًا بعدَ آخر حتى نجد بينهم ربما من يستطيع ايصالي إلى غايتي؛ وكانت أوَّل محاولة وتحت إصراري الشديد عليه طبعًا مع أحد معارفنا، وهو شخصٌ يدعى أبا طارق؛ ورغم أنَّ المذكورَ كان من المنافقين والمتملِّقين

العملاء لنظام الأسد وأجهزته وأعوانه المعروفين والمشهورين بهذا، ولكنَّه رفض أن يساعدَنا في هذا الموضوع نهائيًا، بحجة أن توظُّف أيّ شاب مسلم سني مثلي في أيّ جهاز أمني سيكون بمنزلة الانتحار، وأظهر استنكاره للفكرة بالكامل. وهنا، خطر في بالي أبو إياد جارنا الضابط الذي ذكرته هو وأسرته لكم سابقًا؛ وعندما طرح أهلي عليه موضوع توظيفي في الأمن، وطلبوا منه مساعدتي في هذا الأمر، استنكر في البداية كثيرًا، واندهش مثل غيره؛ ولكن، بعد أن قام والدي بشرح الوضع له، وأنَّني لم أترك لهم أيّ حل أو مجال آخر لضمان مستقبلي وافقَ بصعوبة وعلى مضض، مع التأكيد أنَّه يتبرأ تمامًا من عواقب ونتائج هذا الأمر، وأنَّه يحمِّلني أنا وعلى مسؤوليتي أيّ نتيجة ستحدث!

وشاء الله تعالى أن يكونَ هذا الضابطُ أبو إياد في هذه الفترة يعمل في أكاديمية عسكرية تعليمية تدريبية عالية كمحاضر مدرِّس ومدرِّب لكبار ضباط النظام، والذين يعملون في جميع أجهزة الأمن والجيش والقوَّات المسلحة، وجميعهم كان بحاجةٍ إليه ويريدون إرضاءَه وتقديم أيّ خدمة له حتى يساعدهم أبو إياد بالمقابل في

النجاح واجتياز هذه الدورة العسكرية التي يجرونها في الأكاديمية التي يعمل بها أبو إياد. وبسبب هذه الظروف، لم يكن جوابُ أبي إياد النهائي عندما وافق أخيرًا أنَّه يستطيع مساعدتي بالدخول إلى أحد أجهزة الأمن السوري عن طريق تأمين ضابط من الطائفة النصيرية طائفة الأسد الحاكمة كي يكونَ كفيلًا وواسطةً لي للدخول والتوظُّف فقط، بل إنَّه طلب مني أيضًا أن أختارَ أيّ جهاز أريد، لأنَّ لديه ضباطًا من جميع أنواع الأجهزة يستطيع أن يجعلَهم يقومون بمساعدتي.

ولذلك، بدأت فورًا بإجراء أبحاثٍ سريعة، بالإضافة لما أعلمه سابقًا حولَ أنواع أجهزة الأمن والاستخبارات الموجودة في سوريا، وما هي الفروقات بينهم، حيث إنَّنا كشعب كنَّا نعلم بوجود أنواع مختلفة منها؛ ولكن، بما أنَّ جميعها ضارٌّ طبعًا للناس؛ لذلك، لم يكن أحدٌ يهتم كثيرًا بالفرق بينهم؛ أمَّا وقتها، فقد أصبحتُ بحاجةٍ إلى أن أعلمَ بدقة أكثر عن الفروقات بينهم، حتى يكون اختياري لأحدها دقيقًا وصحيحًا للنوع الذي سيكون مفيدًا لتنظيمنا السرِّي أكثر.

كان في سوريا الكثيرُ من الأجهزة الأمنية، ولكنَّ الأجهزةَ الرئيسية الأخطر التي كان يعتمد عليها النظام في دعم حكمه والسيطرة على الشعب ومراقبته كانت أربعة أجهزة هي:

١- شعبة المخابرات العسكرية "الأمن العسكري أو المخابرات الحربية" : كان يُفتَرض حسب معنى اسمها واختصاصها أن تكونَ مسؤولةً عن مراقبة وتتبُّع شؤون أمن الجيش والقوَّات المسلحة وعناصرهم وضباطهم وموظفيهم؛ ولكنَّها، كانت هي أكبر جهاز مخابرات في سوريا من حيث العددُ والعتاد والدعم، وكانت هي أشدَّ الأجهزة طائفيةً وأذى للناس؛ وكان اعتمادُ النظام عليها كاملًا حتى في مراقبة الأجهزة الأمنية الأخرى وكافة قطاعات الدولة المدنية والعسكرية؛ ومن بين ضباط هذه الشعبة كان يجري اختيارُ رؤوساء وقادة أجهزة الأمن الأخرى غالبًا.

٢- شعبة الأمن السياسي: يفترض بها التخصُّص بالشؤون السياسية وأمن قوى الشرطة والأمن الداخلي، ولكنها مثل باقي الأجهزة كانت تتدخَّل في معظم شؤون المواطنين.

٣- إدارة أمن الدولة "أو إدارة المخابرات العامة" : عددُ

عناصرها أقلّ في سوريا من سابقاتها، وتتدخَّل في كل شيء مثل البقية.

٤- إدارة المخابرات الجوية: في البداية كانت مثلما يشير اسمها متخصِّصةً في مراقبة وأمن القوى الجوية والدفاع الجوي والضباط الطيارين، ثم أصبحت مثلَ غيرها تتدخَّل في كل شيء.

وطبعًا كان اختياري فورًا لشعبة الأمن العسكري، كونها الأقوى والأشدّ نفوذًا وسَطوة، وهي الأقرب لصانعي القرار في نظام الأسد. وهنا أذكر أمرًا طريفًا أنَّني عندما أبلغتُ الضابطَ أبا إياد باختياري للأمن العسكري كي أنضمَّ إليه، زادت دهشتُه وغضبه، وقال لي ليس فقط أنَّك تريد أن تتوظَّف في مخابرات النظام بل أنت اخترتَ أسوأ وأقسى جهاز بينهم أيضًا، والذي يوجد بين موظَّفيه أقلّ عدد من المسلمين السنَّة نسبة لغيره، بل يكاد وجودهم يكون معدومًا في هذا الجهاز؛ وقد أجبته أنا كالعادة بزيادة إصراري على أفكاري واختياري، مما جعله يصيح غاضبًا متبرِّئًا من جديد مني ومن نتيجة أفعالي بعدَ أن ينهي مساعدتي فيها، مؤكِّدًا أنه يقوم بهذا فقط كي لا ينزعجَ أهلي منه.

وبعدَ ذلك، كانت كالعادة - ولله الحمد - رعايةُ الله سبحانه وتيسيره لأمري تحيط بي، فله الحمد والشكر، حيث استدعاني أبو إياد إلى مكتبه في أحد الأكاديميات التعليمية العسكرية في العاصمة السورية دمشق بعدَ حديثي معه بوقتٍ قصير، وقام باستدعاء ضابط آخر برتبة عقيد كان يعمل في شعبة المخابرات العسكرية، وعرَّفني عليه، وطلب منه مساعدتي في القيام بالتطوُّع بصفة ضابط صف في تلك الشعبة، لأنه ورغم أنَ الشهادة الثانوية العامة التي أحملها كانت تسمح لي بالتطوع بصفة ضابط عادي في الجيش، إلَّا أنَّ هدفي كان - كما شرحته سابقًا - هو جهاز الأمن تحديدًا. وحتى أتمكَّن من أن أصبحَ ضابطًا برتب أعلى فيه كانت الطريقة الوحيدة في سوريا هي التطوُّع أولًا في الجيش، وبعدَها وبعد دورات طويلة ومتعدِّدة ووساطات أكبر يمكن أن أصبحَ كذلك، ولا أحد عندها يمكن أن يضمنَ تمكُّني من الانتقال من الجيش إلى الأمن، وقد لا أستطيع ذلك، وتكون جهودي عندها وتضحياتي ذهبت سُدى. ولذلك، قمتُ باختيار الطريقَ الأضمن والأسرع، وهو القبول بتوظفي بصفة ضابط صف أيّ برتبة عسكرية أقلّ، ولكن هذا كان أضمن وأسرع.

كان تنفيذُ الأمر بالنسبة للعقيد الاستخباراتي سهلًا جدًّا؛ فقد أرسلني مباشرة في إحدى سياراته الفخمة ذات الزجاج الأسود إلى ما كان وقتها أوَّل فرع أمني مخابراتي أدخله في حياتي، وهو الفرع الإداري لشعبة المخابرات العسكرية واسمه الرمزي الفرع /٢٩١/. ومن طريف ما حدث معي عندَ دخولي إليه، وبينما كان قلبي ينبض بسرعة من الإثارة بينما السيارة بقيادة السائق الذي هو عنصر استخبارات أيضًا تقوم بنقلي إلى فرع المخابرات المذكور، وعندما وصلنا إلى المنطقة الأمنية ذات الحراسة المشدَّدة جدًّا في وسط العاصمة دمشق، وجرى فتحُ الأبواب الضخمة للفرع الأمني من قبل العناصر المكلَّفين بحراسة مدخل وبوَّابات هذا الفرع للسماح للسيارة التي تقلُّني بالدخول، ولأنَّ نوافذ السيارة التي أنا فيها سوداء تمامًا ولا تظهر لِمن بالخارج شخصية من هو داخلها، بدأ عناصرُ حراسة الفرع يؤدُّون التحيات العسكرية التي تُؤدَّى عادةً لكبار الضباط لنا وللسيارة ظنًّا منهم أنَّ من بداخل السيارة هو العقيد صاحبها، وقد جعلني هذا أضحك وأشعر مجدَّدًا وأتأكد كم أنَّ يدَ الله سبحانه وتعالى ترعاني وتحميني، والله أعلم.

وبعدَ ذلك، قام السائقُ بمرافقتي داخل مبنى الفرع إلى مكتب اسمه مكتب التطوُّع، لأنَّ التوظُّف والعمل في أجهزة الأمن والجيش والشرطة في سوريا يسمَّى تطوعًا لتمييزه وتمييز المتطوِّعين (وهم الموظَّفون برغبتهم) عن الضباط وضبَّاط الصف والأفراد المحترفين في العمل العسكري عن الآخرين الذين هم موجودون في هذه الأعمال في أثناء تأديتهم للخدمة العسكرية الإلزامية المفروضة على كل مواطن سوري، والذين يسمِّيهم السوريُّون العساكر الإجباريين.

قابلتُ في مكتب التطوُّع المذكور ضابطَ صفٍّ يُدعى أبا حسن، وهو كان رئيسَ هذا المكتب وينتمي للطائفة النصيرية طبعًا؛ وقد قام بأخذ بيانات كاملة منِّي، وموسَّعة عن شخصيتي، وعن مكان إقامتي وعن عائلتي وجميع ما يمكنه الحصول عليه من معلوماتٍ وتفاصيل عن حياتي، وجعلني أكتب له هذه المعلومات ضمن استمارات. ولم يستطع هذا الرجل، وكما سيحدث مع جميع من سألتقي بهم خلال الثمانية عشر عامًا اللاحقة التي قضيتُها بين هؤلاء في جهاز الأمن والاستخبارات السوري، أن يخفي دهشتَه

من انتمائي للطائفة الإسلامية السنِّية، ورغبتي - رغم ذلك - بالتطوُّع والعمل في شعبة المخابرات! وبسبب أنَّني من أبناء المدن ولست من الأرياف أيضًا، وهذا السببُ الثاني كان دائمًا أكثر إثارةً للدهشة له ولغيره فيما بعد، لأنَّ القلَّة القليلة أو النادرة التي كانت قد بقيت تقوم بالتطوُّع في بعض أجهزة الأمن الأسدية من المسلمين السنَّة، حيث كانوا دائمًا وحصرًا من أبناء بعض مناطق الأرياف كما شرحتُ سابقًا، لأنَّ نظامَ الأسد استخدم بعدَ أَحْداث حماه /١٩٨٢/ خطةً ومؤامرة حقيرة جديدة وقتها، وهي أنه اتَّجه في مناهج التعليم السورية ووسائل الإعلام بمختلف أنواعها إلى تحريض أبناء المناطق الريفية، ومن بينهم أرياف المسلمين السنَّة التي كانت في ذلك الزمان منعزلة وبسيطة، ضدَّ أبناء وسكان المدن في سوريا، حيث قام بالتركيز على زرع أفكار في أذهان بعض هؤلاء الريفيين البسطاء أن أهلَّ المدن جميعهم ينتمون لطبقات الإقطاعيين والبُرجوازيين، وهم كانوا وما زالوا يكرهون ويشمئزُّون ويسخرون من جميع أبناء الريف، وأنَّهم كانوا سابقًا يستعبدون ويستغلُّون أبناءَ الريف، ويأخذون أرزاقَهم بالظلم والعدوان،

وأنَّ نظامَ الأسد وطائفته وحزب البعث الاشتراكي (وهو حزبٌ يستخدمه نظام الأسد كواجهةٍ سياسية، وينحدر معظم أعضائه من أرياف سوريا) أتوا لإنقاذ وإنصاف الفلاحين وأهل الأرياف من هذا الظلم جميعه.

وقد استطاع هذا النظامُ، بنشر هذه القناعات، أن يزرعَ بذورَ الحقد والكره، ومن ثَمَّ الفرقة بين أفراد المجتمع السنِّي الواحد؛ وقام بتهميش واستبعاد أبناء المدن الرئيسية في سوريا بجعل الأفضلية هي دائمًا لأبناء الريف في قبول المتقدِّمين إلى الوظائف المدنية والعسكرية الحكومية طوالَ عصر الأسد؛ ممَّا جعلَ عددَ الموظفين من أبناء المدن المذكورة يصبح أقلَّ بكثير من السابق في القطاع المدني من وظائف الدولة، وينقرض تقريبًا من القطاع العسكري، وينعدم في الوظائف الأمنية، ولمدة أكثر من خمسة وأربعين عامًا من حكم الأسد الأب وبعده ولده السفَّاح بشار.

كان قطاعُ الجيش يكاد يخلو إلَّا من قلَّةٍ قليلة من أهل المدن المسلمين السنَّة؛ أما أجهزةُ الأمن والمخابرات فكان وجودهم فيها معدوم نهائيًا، لاسيَّما في شعبة المخابرات العسكرية، لكونها جهازًا

طائفيًا تمامًا، وقد كنتُ أنا وبفضل اللّه ولمدَّة ستة عشر عامًا - ويعلم هذا الكثير من الناس - الموظَّف الوحيد المسلم السنِّي الذي هو من أبناء المدن الذي يعمل في هذا الجهاز، ولهذا اندهش أبو حسن، رئيس مكتب التطوُّع؛ وربما انزعج، ولكنه لم يستطع أن يبدي أيّ معارضة أو عرقلة لسير أموري وأوراقي بسبب خوفه من العقيد الذي أرسلني إليه مع سائقه، وأمره بدعمي.

وبعدَ انتهاء المقابلة، التي أُجريَت معي في مكتب التطوُّع، جرى إعلامي بموعد قادم بعدَ أسابيع، حيث يجب أن أحضر فيه أنا إلى الفرع كي أخضعَ لامتحان وفحص مقابلة شفهي مع لجنة من كبار ضباط ومؤسِّسي شعبة المخابرات العسكرية، وهذه اللجنةُ ستحدِّد بعد فحصي قبولي للعمل عندهم من عدمه.

عندما خرجتُ أخيرًا من الفرع في ذلك اليوم، شكرتُ اللّه وحمدته كثيرًا، لأنَّ ما أتممته في هذا اليوم كان هو الخطوة الأولى التي جرى إنجازها في الطريق الطويل والشائك إلى خطَّتي وهدفي اللذين أعددتُ لهما لوقت طويل من حياتي سابقًا.

اختراق أحد أقذر أجهزة الأمن والاستخبارات في العالم

بعدَ ذلك بفترةٍ بسيطة، وبعد أن جرى استدعائي، خضعتُ لمجموعة من الفحوصات الطبِّية والعسكرية (تُجرَى عادةً لجميع المتقدِّمين للوظائف العسكرية والأمنية) وتجاوزتُها جميعها بنجاح بفضل الله. ولكن، لفت نظري في أثناء ذلك مقدارَ تفشِّي الفساد والمحسوبيات وتعاطي الرشاوى المنتشر بين ضباط ومسؤولي النظام الأسدي، وبين أفراد طائفته النصيرية نفسها، حيث كان معنا في أثناء الفحوصات الطبية الكثيرُ من الشباب الذين جرى رفضُهم من قِبَل الأطبَّاء بسبب عدم لياقتهم الصحية، أو وجود خلل ما في أجسادهم؛ ولكنَّ هؤلاء سرعان ما كانوا يعودون وبصحبتهم أحدُ أقاربهم من الضباط أو المسؤولين ليقوموا فورًا بالتوسُّط لهم عندَ

الأطباء، وسرعان ما كان يجري تغييرُ النتائج، ويجري إنجاحهم في هذه الفحوصات الطبية وقبولهم للعمل في قوى الأمن!.

وفي أواخر عام ١٩٩٣، حان موعدُ المقابلة المصيرية التي ستجريها لجنةٌ من كبار ضباط شعبة المخابرات العسكرية، من أجل فحص واختبار المتقدِّمين بطلبات الانضمام للعمل في هذا الجهاز، حيث يحدِّدون فيها مدى صلاحية وقوَّة شخصية هؤلاء المتقدِّمين، ويُسمَّى هذا الاختبار عادة باسم "الفحص النفسي"، وقد صادف في يوم المقابلة أنَّني كنتُ مصابًا بنزلة برد وأنفلونزا قوية جدًّا، بالإضافة طبعًا إلى توتُّري الشديد الطبيعي لأني سأذهب إلى وكرٍ لعتاة مجرمي وسفَّاحي النظام، وسأقابل هناك أعدائي وأعداء أهلي وقومي، وسأتعرَّض لتدقيقهم وأسئلتهم، وهذا بالتأكيد ليس أمرًا سهلًا أبدًا.

لقد بقيتُ طوالَ الوقت، خلال مسافة سفري من مدينتي حمص إلى العاصمة السورية دمشق وبعدها عبورًا في أحياء وشوارع العاصمة باتجاه الفرع الإداري لشعبة المخابرات، وأنا أشعر بدوارٍ شديد وغثيان وتقيُّؤ جعلني أستمرُّ بإفراغ جميع ما في معدتي طوالَ

الطريق. وحين وصلتُ، كان الفرع مزدحمًا بالشباب المتقدِّمين مثلي لذاك العمل، وكان العددُ حوالى ٦٠٠ متقدِّم على ما أذكر، وقفوا جميعًا في الساحة التي تتوسَّط الفرع، وبعضهم كان مجتمعًا ضمن الازدحام الذي على باب الغرفة التي يجري فيها الاختبار، وطبعًا الجميع وبالكامل حسبما عرفت كانوا من الطائفة النصيرية التي نعرفها نحن السوريين ونميِّزها بلهجة أفرادها الخاصة في الكلام، والتي لا تشبه أيّ لهجة أخرى في سوريا. وقد بقيتُ أنتظر لساعات عديدة أن يجري النداءُ على اسمي للمثول أمام اللجنة؛ لكنَّني لاحظتُ أنَّ الوضعَ سيِّئ، وأنَّ طريقةَ تحديد من يدخل إلى هذا الاختبار تشبه ما رأيته سابقًا في الفحص الطبي من وساطات ومحسوبيات. وبعدَ أن تعبتُ كثيرًا من الانتظار، وشعرت بزيادة في شدة مرضي، بدأتُ أشعر بالقلق بعدَ أن لاحظت أيضًا أنَّ من الممكن ألاَّ تقابلَ اللجنةُ الفاحصة جميعَ الموجودين، وظهر لي أنهم ربما سيكتفون بالأشخاص الذين جرت مقابلتُهم حتى الآن، ويعود الباقون بالخيبة، وأنَّه - إن حدث هذا - فإنَّ الجهودَ والتخطيط اللذين تعبت أنا فيهما وأتعبت من حولي حتى الآن سوف تذهب جميعها

هباء. وعندها، ألهمني الله سبحانه فكرةً قرَرت تنفيذها فورًا، حيث قمتُ بالدخول إلى مكتب أحد ضباط الفرع "دون إذن وكان هذا التصرُّف مخاطرة"، والذي كنت قد دخلت مكتبَه مرة واحدة سابقًا وجرى إخباره عن رغبتي حين أرسلني العقيدُ الاستخباراتي للتقدُّم لهذه الوظيفة في زيارتي السابقة - التي ذكرتها - لهذا الفرع، وأخبرته بسرعة وأنا أتجاهل نظراتِه المندهشة والغاضبة من جرأتي ووقاحتي في طريقة دخولي إليه أنَّ العقيدَ الذي أرسلني إليه سابقًا طلب مني أن أخبرَه بضرورة تدخُّله فورًا من أجل مساعدتي مع اللجنة الفاحصة كي يوافقوا على إدخالي إلى الفحص بسرعةٍ كوني مريضًا. وفعلًا، ودون أن يتأكَّد من صحَّة كلامي وربما من أجل أن يتخلَّصَ من وجودي في مكتبه ومن إشغالي له عن عمله، قام هذا الضابطُ بسرعة بالاتصال بالهاتف وتحدَّث مدة ثوانٍ، ثم طلب مني أن أعودَ بسرعة إلى الوقوف عندَ باب الغرفة التي تجري اللجنةُ فيها الفحص، وقال سيجري استدعاؤك للدخول بعدَ قليل.

وبالفعل، سمعتُ أحدَهم بعدَ دقائق ينادي باسمي للدخول، ودخلتُ أخيرًا وأصبحت أقف أمامَ لجنة من قيادة جهاز المخابرات

السورية الأسدية، والتي هي مؤلَّفة من ضباط كبار يكفي ذكر اسم أيّ واحد منهم لإرعاب أيّ مواطن سوري عادي في ذلك الزمان، لأن أيًّا منهم يستطيع ومن دون مبالغة وبكل بساطة أن ينهي حياةَ أو مستقبل أيِّ شخص سوري بجرَّة قلمه أو بأمر واحد يصدره، والسوريين الذين عاصروا ذلك الوقت يعلمون تمامًا دقَّة ما أقول.

كان رئيسُ هذه اللجنة ضابطًا نُصَيريًا برتبة عقيد واسمه / علي زيوانه/، وهو ضابطٌ مخضرم قديم في هذا العمل، ويعدُّ أحدَ مؤسِّسي هذا الجهاز المخابراتي الدموي. عندما دقَّقتُ في وجهه شعرتُ فورًا أنه رجلٌ يتمتع بخبث ودهاء؛ ومنذ دخولي، أخذ هو وباقي الضباط أعضاء اللجنة يتفحَّصونني بأنظارهم من رأسي حتى قدمي، وفي نفس الوقت كانوا يقرؤون بياناتي ومعلوماتٍ كاملةً عني في أوراق الملفَّات التي وضعت أمامهم، ولاحظتُ على وجوههم فورًا ما توقَّعته ولاحظتُه على وجوه كلِّ من سبق له معرفتي ومعرفة رغبتي بالعمل معهم من موظَّفي المخابرات من الدهشة والاستغراب التي شرحتُهما سابقًا، وذلك عندما يعلمون أنَّني مسلم من الأغلبية السنِّية ومن أبناء المدن وأنوي الالتحاق بالمخابرات؛ وهذا كما

ذكرتُ يجعلني دائمًا بالنسبة لهم جميعًا ظاهرةً غريبة وملفتة للنظر ومختلفة عن جميع الآخرين؛ وهذه الدهشة بقيتُ أشاهدها طوالَ حياتي وعملي في شعبة المخابرات، وبعدَها في الجيش، على وجه أيّ شخص جديد يعلم بأمري.

ثمَّ، وبعد ذلك، بدأ رئيسُ اللجنة بتوجيه أسئلةٍ بسيطة عادية إليَّ عن حياتي وعائلتي ودراستي؛ ولكنَّ السفرَ الذي كنت قد قطعته مع مرضي الشديد الذي حدَّثتكم عنه في ذلك اليوم، أضيف اليهما أيضًا الجوعُ الشديد الذي كنت أشعر به نتيجة عدم تناولي أيّ طعام طوالَ اليوم ونتيجة أنني أفرغتُ جميع ما في معدتي في أثناء الطريق بسبب المرض وفوق جميع هذا أيضًا توتُّري الشديد وقيامي بالانتظار في الطقس الشتوي البارد لساعاتٍ طويلة في ساحة الفرع حتى جرى إدخالي إلى اللجنة، كلُّ ذلك قد جعلني أُصاب بدوارٍ شديد جدًّا وأنا أقف أمامهم، وأحسستُ في أثناء قيامي بالإجابة عن أسئلتهم أنني بدأت بفقدان الشعور في أطرافي وأنَّني سأسقط أرضًا أمامهم في أيّ لحظة وسأغيب عن الوعي، وكنت بالكاد أجاهدُ نفسي بشدَّة، وأفكاري تركَّزت حولَ تذكير نفسي بأنه من

غير المقبول والمعقول أنني الآن وبعدَ جميع ما فعلته وضحَّيت به، وما عاناه والداي حتى أستطيعَ الوصولَ إلى هذه اللحظة، أن أفقدَ وأخسر كلَّ شيء بسبب مرض بسيط!

سألتُ نفسي هل نزلة برد ستقضي على كلِّ ما خطَّطت وعملت له؟!

وفي هذه اللحظة، أعطاني الله - عزَّ وجلَّ - الجرأة، وبعباراتٍ سريعة متلاحقة طلبتُ من رئيس اللجنة الإذن بالتكلُّم وشرحتُ له أنني مريض جدًّا وأشعر بالدوار، وأنَّني كان يفترض ألَّا أخرجَ من المنزل اليوم، وأن أتلقَّى الرعايةَ الطبية اللازمة؛ ولكنني حضرتُ رغم كل هذا كي لا أتخلَّفَ عن الفحص، وقد ظهر على وجوه أعضاء اللجنة أنهم اقتنعوا بما شرحتُ لهم، وأشاروا إليَّ بأنهم سمحوا لي بالجلوس مراعاةً لوضعي الصحي، لأنَّ المقابلةَ كانت تجرى لجميع المتقدِّمين وهم وقوف أمام اللجنة، إذ يُمنَع الناس العاديُّون في سوريا من الجلوس في حضرة ضباط المخابرات إلَّا بإذن خاص منهم؛ وبعدها طلب العقيدُ علي رئيس اللجنة من أحد العناصر إحضارَ كوب ماء لي، وهنا وبسبب كوب الماء هذا تغيَّر شكلُ ومجرى المقابلة بشكلٍ مفاجئ، فكيف حدث هذا!؟

من المعروف بالنسبة لأغلب السوريين أنَّ الطائفةَ النصيرية – طائفة الأسد – يحبُّون، وبعكس الأغلبية المسلمة السنية التي يحرم دينُها ومعتقداتها وتراثها تعاطي أيّ نوع من أنواع الكحول أو الخمر، تعاطي الكُحول والمسكِرات، بل ويقدِّسونها في كتبهم ومعتقداتهم الشيطانية، والنوعُ الأكثر تداولًا بينهم هو شراب شديد الكحولية يسمُّونه "العَرَق"، ويقومون بصناعته يدويًا في جميع منازل هذه الطائفة، ويملكون من أجل هذه الصناعة أدوات خاصة، ويجري الأمرُ في مواسم وأوقات معينة من العام في أثناء موسم نضج العنب، حيث يصنِّعون كمياتٍ كبيرة تكفيهم طوالَ العام، ويفتخرون بين بعضهم بعضًا بجودة وطعم وشدة تأثير ما أنتجه كلٌّ منزل منهم من هذا المسكِر. وهذا المشروب يكون ذا مظهر شفَّاف بلا لون، فإذا مزجوه بالماء أو الثلج في أثناء شربهم له أصبح لونه أبيض يشبه لونَ الحليب تقريبًا.

ولما كنتُ في المقابلة، كما ذكرتُ، وأحضرَ لي أحدُهم كأس ماء وأمسكتها أنا فلاحظتُ أنَ لون السائل الذي فيه أبيض وليس لونَ الماء الشفَّاف المعروف؛ عرفتُ فيما بعد سبب هذا أنَّ ماء العاصمة

دمشق وبسبب ضغطه الشديد وخلطه بمادة الكلور يكون دائمًا بهذا اللون، ولكنَّني لم أكن أعرف هذا سابقًا، بسبب عدم إقامتي في دمشق؛ وعندما شاهدتُ هذا اللون خفت وتوقَّعت أنه يمكن أن يكونَ فخًّا أو نوعًا من الاختبار تقوم به هذه اللجنةُ الاستخباراتية لجعلي أشرب الخمر وأسكر حتى أفقدَ اتزاني - لا سمح الله - لأنهم عرفوا أنَّني من الأغلبية السنِّية التي لا تتعاطى هذه المشروبات. ولذلك، حين أمسكتُ الكأس تردَّدت في شربه للحظات حتى شممته أوَّلا لأتأكَّدَ من كونه ماء، وبحكم العادة وبعدَ كمية التعب التي وصلت لها نسيتُ حذري وتحركت شفاهي بذكر اسم الله بلا صوت على الكأس وشربت، كل هذا جرى في لحظاتٍ سريعة، ولكنها كانت للأسف كافيةً كي تلتقطه وتنتبه له فورًا الأعينُ الخبيرة والخبيثة والمدرَّبة لضباط لجنة المخابرات، وقد أحسستُ عندها أن الأمرَ أصبح خطيرًا جدًّا، فقد تبيَّن بشكلٍ واضح لهم الآن أنَّني وبكل تأكيد لست أبدًا من النوع الذي قد يرغب عادةً بالعمل في جهاز الأمن السوري الذي كانت من أهم مهمَّاته مكافحة انتشار الدين الإسلامي والتديُّن، ومراقبة واضطهاد المتدينين، وإبعاد الناس

عن جميع ما يربطهم بدينهم، فكيف يأتي شخصٌ مثلي يطلب الانضمام إليهم!؟

وأصبح الشكُّ والارتياب والدهشة واضحة على وجوه رئيس وأعضاء اللجنة، وكنتُ وبعد أن جلستُ أخيرًا وشربت الماء قد استعدتُ بعضَ رباطة جأشي، وصحوتُ أكثر وأحسستُ أنني سأحتاج إلى جميع ما درسته وقرأته ودرَّبت نفسي عليه في السنوات السابقة، من تجارب وخبرات الجواسيس ورجال الاستخبارات في العالم، حتى أستطيعَ ربما تجاوزَ ما صنعه موضوعُ كأس الماء في نفوس اللجنة من شك، وإلاَّ سيضيع كلُّ شيء، وربما ضعت أنا أيضًا.

وفورًا وبشكل ظنَّه العقيدُ علي، رئيس اللجنة، مباغتًا ولكنني كنت أتوقَّعه ومستعد له تمامًا بفضل الله، وجَّه لي سؤالًا:

- أنت لا تشرب الكحول!؟ قالها وهو يتمعَّن جيدًا في وجهي!
- أجبته بهدوء شديد متعمَّد: طبعا لا! فازداد استغرابًا لجرأتي في إعلان رفضي ومعارضتي اللذين يتحدِّيان جميع معتقداتهم.
- فسأل: لماذا لا تشربه؟
- وهنا أدركت أن أجوبتي يجب أن تكونَ زئبقية تمامًا ومراوغة،

وأن أتجنَّبَ أيّ جواب يشير إلى التديُّن، فأجبته بسرعة: بالنسبة إليَّ فإن قناعتي التامة أنني أرفض وأكره أيّ شيء يجعل عقلي يتعطل أو يتوقَّف عن العمل ولو للحظة، ونظرتُ في أعينه فأحسستُ أنني أحسنت الجواب.

• سألني: هل تصلِّي؟

• قلت له: طبعًا، فنظر جميعُ الضباط إلى بعضهم وإليَّ باستغراب، وأصبحت ملامحهم ونظراتهم وكأنهم يرون أمامهم كائنًا فضائيًا، وكان لسانُ حالهم يقول ماذا يحدث هنا! وماذا يفعل شخص مثل هذا هنا!؟

• سألني: هل أنت تذهب إلى المساجد عادة؟

• أجبتُه نعم أنا أذهب مع والدي إلى المساجد كلَّ يوم جمعة إلى صلاة الجماعة المعتادة فيه.

• سألني: إذا أردت أنت أن تتزوَّجَ في المستقبل هل ستختار عروستك ممن يرتدون الحجاب؟

• أجبته: طبعًا.

• سأل هو: هل لك أقارب موقوفون بتهمة الانتساب لحزب

الإخوان المسلمين؟؛ وهذا إن ثبت وجوده عندَ أيّ شخص في عهد الأسد يعني بكلِّ تأكيد رفضه وعدم قبوله في أيّ وظيفة حكومية عادية، فكيف إن كانت وظيفةً أمنية حسَّاسة.

- أجبته: لا.
- قال، بعدَ أن نظرَ في المعلومات المتعلِّقة بي والتي وُضِعت أمامه في ملفي: جوابك غير صحيح! عندي هنا يُذكر أنَّ لك قريبًا من عائلتك موقوف سياسي بسبب علاقته بالإخوان المسلمين!
- قلت له: نحن في مدينة حمص عائلةٌ كبيرة جدًّا، وعددُنا كبير؛ وبسبب هذا، لا نعرف جميعًا بعضَنا البعض؛ فحياةُ المدن ليست مثلَ الأرياف، فالمسافاتُ الكبيرة بين الأحياء المختلفة وعدد الناس الكبير جدًّا يجعلان التعارفَ حتى بين أفراد الأسرة أو العائلة الواحدة صعبًا، وبالكاد نعرف بعض المقرَّبين من العائلة.

وهنا، ولأوَّل مرَّة خلال المقابلة، نطق أحدُ الضباط أعضاء اللجنة، وكان يُدعى حنًّا، وهو ضابط مسيحي، وأصغر الضباط رتبةً في اللجنة، فقد كانت رتبته ملازمًا. قال لي بحنق وغضب: هل أنت مجنون!؟ قلتُ له وبابتسامة تعمَّدت أن تُظهِرَ ثقتي الشديدة

بنفسي كي أمتصَّ وأخفف قدرَ الإمكان من استغرابهم مني، ومن أجوبتي: أنتم تسألونني عن أمور أجوبتها بديهية، ويجب أن تكونَ أجوبتها معلومةً لديكم سابقًا، وأنا أجبتكم بصراحة وصدق لأنَّني ليس عندي أيّ خطأ أو ما أخشاه أو أحتاج إلى إخفائه، ولذلك فلست بحاجةٍ لأن أكذبَ عليكم فقط كي تكونَ أجوبتي مُرضِيةً لكم، ولكن غير صحيحة.

- فقال هو: وكيف هذا!؟

قلتُ له: جميعُ ما سألتموني أنتم عنه هو تقاليد وعادات وتراث موجودة عندَ قومي ومجتمعي والجميع يفعلها لمسايرة من حوله، ولا علاقةَ لها بأيِّ رأي أو اتجاه فكري أو غيره؛ أنا مجرَّد شخص عادي مثلي مثل غيري، أساير وأتَّبع عادات من حولي من الناس، وبجوابي هذا تقصدَّت أن أتصنَّعَ الغباءَ، وأن أضعَ في أذهانهم أنَّني شاب بسيط يقلِّد دون تفكير، ويقوم باتِّباع أعمى لعادات الآخرين، واستبعدتُ عن نفسي صفات الفهم والميول الدينية التي من المستحيل أن يرضى بها هؤلاء، لأنهم يرونَ أيّ فكرٍ مغاير لفكرهم هو الخطر الأكبر على وجودهم واستمرارهم في حكم سوريا.

وبعدَها وبسرعة، وبشكل ظنَّه العقيد رئيسُ اللجنة، أنه مباغت بالنسبة إليَّ، ولم يعلم أنني أتوقَّعه وأنني كنت أتدرَّب وأحضِّر نفسي لمثل الأمور منذ زمنٍ بعيد، وجَّه لي سؤالا:

• ما رأيكَ، وماذا تقول في الأصولية الدينية؟ وقد كان هذا الاسمُ متداولاً وقتها نتيجة ظهور حركات دينية أثارت في ذلك الزمان جدلاً في مصر والجزائر، كونها كانت تعارض الأنظمةَ الديكتاتورية القمعية هناك، وكانوا في الإعلام يسمُّونهم بالأصوليين؛ فأجبته بسرعةٍ وثقة ودون تردُّد: أنا أقول ورأيي هو بالحرف رأيُ وقول السيِّد القائد الرئيس، متعمِّدًا تبجيلَه وتفخيمَه كما يحب ويفعل أتباعُ النظام؛ حافظ الأسد الذي أجاب به مذيعة إحدى وكالات الأنباء الأمريكية حينما سألتَه هذا السؤال ذاته، وهذا الجواب هو: .... ثم سردتُ له الجواب الذي قاله رئيسهم بالحرف ودون نقص، ورغم طول ذلك الجواب؛ ورغم أنَّ اللقاءَ المذكور مع حافظ الأسد كان حديثًا جدًّا، ولم يمضِ عليه سوى بضعة أيام، ولم يُعرَض على التلفاز سوى مرَّة واحدة ؛ لم يكن طبعًا يوجد إنترنت في سوريا في ذلك الزمان؛ وما إن انتهيت حتى

وقفَ العقيد علي رئيس اللجنة، ولم يستطع إخفاءَ سروره وإعجابه وكأنني قرأتُ له منذ قليل قطعةً من كتاب مقدَّس، وقال لي بحماس: أنت ممتاز يمكنك الذهاب فقد أنجحتك في الفحص!

وخرجتُ من الغرفة أخيرًا، والتي قضيتُ فيها وقتًا يعادل ضعفي الوقت الذي قضاه فيها جميعُ المتقدِّمين الآخرين لهذا الفحص؛ وكنت وأنا أخطو باتجاه الخارج أشكر الله وأحمده وأردِّد في نفسي: الله أكبر، الله أكبر، وشعرتُ كم أنَّ يدَ العناية الإلهية لا تزال ترعاني؛ فما قد حدث في هذا المكان معي كان هو نصري ونجاحي الأوَّل في اختراق هذا النظام وهذا الجهاز الأمني، وانتصاري الفكري على هؤلاء المجرمين. أنا الشاب الصغير ذو الإمكانيات المتواضعة تمكَّنت لأوَّل مرة في حياتي من خداع لجنة جرى اختيارُها من نخبة العقول الإجرامية، وتلاعبت بعقول من نجحوا بإذلال وإخضاع ملايين المواطنين السوريين وسرقوا وطنًا كاملًا، فلك الحمد والشكر يا رب حتى ترضى.

الدورة التدريبية الرهيبة للمخابرات العسكرية

كانت سمعةُ دوراتِ تدريب عناصر وضباط الأمن والاستخبارات مشهورةً ومرعبة دائمًا، وتدور حولَ قسوتها وصعوبة تجاوزها في جميع دول العالم. أمَّا في سوريا، وفي عهد النظام الأسدي، فإنَّ سمعتَها كانت أقسى وأبشع، وكان الجميعُ يتحدَّث عن نسبة الوَفَيَات التي تحدث ويُسمَح بها رسميًا من قِبل الدولة الأسدية بين المتدرِّبين، وعن وحشية التعامل في هذه الدورات مع المتدربين لدرجة أنَّ من يتخرج منها وينهيها كان يقال بأنه قد يكون فقد جزءًا من إنسانيته، وهذا بالضبط ما كان يريده ويفضِّله نظامُ الأسد، فهم كانوا يفضِّلون أن يكونَ رجالُ الأمن آلات قتل وتعذيب للناس لا

تملك رحمةً ولا أخلاقًا ولا عواطف، ولا تقيم وزنًا لصلات القرابة أو الصداقة أو أيّ علاقات إنسانية أخرى.

وبعدَ انتهائي من جميع الفحوصات والاختبارات المطلوبة، وفي الشهر الأوَّل من عام /١٩٩٤/ جرى تحديدُ موعد لنا للالتحاق بهذه الدورة؛ ورغم توتُّري الطبيعي في هذا الوضع، إلَّا أن سرورًا وثقة بالنفس كانا يَسريان في نفسي بسبب ما حقَّقته حتى الآن ممَّا اعتبرته أنا نجاحًا؛ كما أنَّني كنت سابقًا، ومنذ سنوات ومنذ الوقت الذي كنتُ فيه أحضِّر لتأسيس التنظيم السرِّي ضد النظام، كنتُ قد ألزمت نفسي بتدريبات رياضية قاسية في رياضة بناء الأجسام في أحد نوادي مدينتنا حمص، وهو نادي الكرامة الرياضي؛ وكنتُ أتابع هذه الرياضةَ دائمًا في المنزل وفي معظم الأوقات والأماكن، حيث كنت أشعرُ أنَّ أمامي في المستقبل صعابًا ومسؤولياتٍ لن يكون سهلًا التغلُّب عليها وتجاوزها؛ ومن ضمن إعداد نفسي لهذه الصعاب، كان لابدَّ لي من هذا الالتزام بالتدريب الجسدي والعضلي الذي عملت جهدي أن أقسو على نفسي فيه قدرَ الإمكان، وتبيَّن فيما بعد أن هذه الفكرة كانت توفيقًا من اللّه، له الحمد والشكر أيضًا.

في هذه الفترة، وعندما كنتُ قد أتممتُ استعداداتي للالتحاق بالدورة الأمنية، حدث في سوريا حادثٌ مهمّ وتاريخي جعل أغلبَ السوريين المضطهدين يزداد إيمانُهم ويقينهم بوجود العدالة الإلهية، حيث قُتِل الولدُ الأكبر للمجرم حافظ الأسد، وهو ولده المدعوّ باسل الأسد، وذلك على إثر حادث تحطَّمت سيارتُه فيه على طريق مطار دمشق، حسبما أعلنت الجهاتُ الرسمية في النظام الأسدي وقتها، وكان هذا الشاب هو الخليفةَ المرتقَب لوالده حافظ، والذي كان يجري إعدادُه وتدريبه بشكل علني أمامَ السوريين والعالم حتى يرث إمبراطورية الدم والحقد والطائفية التي أسَّسها والده في سوريا، ويتابع مسيرة حكم الشعب السوري عنوةً وظلمًا دون وجه حقٍّ، ودون أن يهتمَّ أحدٌ طبعًا لرأي وقرار ورغبات هذا الشعب في هذا الشأن. وكان إعدادُ باسل لذلك الدور يجري بشكل مكثَّف وسريع في المدة الأخيرة قبلَ موته، لأنَّ والدَه المجرم حافظ كان الله سبحانه قد جعله مصابًا بسرطان في الدم منذ سنوات، وقد استشرى في جسده كثيرًا، ولم تفلح جميعُ الجهود الطبية المكثفة التي قام بها الاتحاد السوفييتي الداعم الأوَّل والأساسي

لذلك النظام الإجرامي في علاجه؛ من أجل هذا، كان موتُ الوريث الموعود باسل صدمةً كبيرة ومفاجئة لحافظ الأسد وطائفته وداعميه. ورغم أنَّه في عاداتنا وموروثاتنا نحن الشعب المسلم السني السوري من المعيب وغير المقبول أن يشمتَ ويفرح أيّ شخص بموت شخص آخر، لكنَّ الشعبَ السوري عامة وشعب مدينة حماة المظلومة بشكلٍ خاص، وبعدَ أن كانوا يعيشون في كلِّ يوم عبر السنين السابقة ألم ما فعله النظام الأسدي من قتل وتقطيع وإذلال مئات الألوف من أولادهم واغتصاب الكثير من بناتهم أمامَهم من قِبَل هؤلاء المجرمين والجلادين، فإنهم وجدوا أنفسَهم لا يستطيعون أبدًا إيقافَ شعورهم بالسعادة والشماتة بسبب تحقُّق العدالة الإلهية عندما تذوَّق حافظ الأسد في أحب وأقرب وأهم أولاده اليه ما أذاقه هو للشعب. وقد رأى الناسُ أنَّ ما حدث لباسل، إضافة لإصابته هو شخصيًا بالسرطان الشديد المميت وما يرافق هذه الإصابة عادة من آلام وعذاب ويأس، هو جميعه جزء من قصاص أوقعه الله - سبحانه وتعالى - عليه جزاءَ ما اقترفت يداه.

وبسبب هذا الحَدَثِ الكبير وانشغال جميع ضباط ومسؤولي

النظام بتبعات وآثار هذا الحادث، جرى وقتها تأجيلُ موعد بدء دورتنا التدريبية التي كنا سنجريها في مدرسة المخابرات الحربية من الشهر الأوَّل حتَّى بداية الشهر الثاني شباط عام /١٩٩٤/.

وقد يسَّر اللّه لي من فضله مجدَّدًا في هذه المرحلة أمرًا جديدًا، يُضاف إلى العناية الإلهية التي رافقتني طوالَ رحلة تنفيذي لخطتي، حيث تَبيَّنَ أنَّ إحدى قريبات والدتي، والتي كانت تقيم مع عائلتها منذ زمن بعيد في العاصمة دمشق، لديها معرفةٌ وعلاقات جيِّدة مع زوجة وعائلة أحد الضباط الكبار من الطائفة النصيرية، وهو ضابطٌ مشهور وذو منصب كبير في شعبة المخابرات العسكرية، ويعدُّ أحدَ مؤسِّسيها في سوريا، وهو العميدُ المدعوّ هاني العبد، والذي كان ممَّن شاركوا في عدد كبير من المجازر بحق المواطنين في العاصمة دمشق وريفها في أثناء فترة أَحْداث الإخوان المسلمين، وساعد النظامَ الأسدي في أثناء قيامه بتصفية أعضاء هذا الحزب ومعهم جميع معارضي هذا النظام عن طريق اتِّهام الجميع بالانتماء لحزب الإخوان، حتى وإن لم يكونوا يعلمون شيئًا عن ذاك الحزب؛ وطبعًا كانت مجرَّد هذه التهمة كافيةً لإعدام المتهمين

ميدانيًا وفورًا، دون أيّ محاكمة بحسب القوانين الرهيبة التي سنَّها وطبَّقها نظامُ المجرم الأسد، وبقيَ يطبِّقها طوالَ عصره وعصر ولده المارق بشَّار فيما بعد.

وبعدَ جهودِ العميد هاني العبد - الذي ذكرناه - الإجرامية في هذه المجالات، ونتيجة لها، جرى تكريمُه بتسليمه وظيفة قائد مدرسة المخابرات الحربية، وهي الأكاديميةُ الأمنية العسكرية التي يفترض أن أُجريَ دورتي التدريبية فيها إن وفَّقني اللّه. وقد علمتُ بهذه المعلومات بالصدفة حين سافرت في المرة الأولى بغيةَ الالتحاق بالدورة، وأرجعونا وقتها بسبب تأجيل موعدها للأسباب التي شرحتها. وكنت قد انزعجتُ من هذا التأخير بعدَ استعداداتي، وقمت حينذئذٍ بالصدفة بزيارة قريبتنا في دمشق، وعندها تفاجأنا كلانا أنا وهي - بعد أن شرحتُ لها أين كنت أتوجَّه - بهذه الصدفة العجيبة التي يسَّرها اللّه - عزَّ وجلَّ - وهي أن تكونَ دورتي وتدريبي سيجريان في مكانٍ يديره جارهم وصديقُ عائلتهم العميد هاني. وعندها قاموا بالاتصال به وتحدَّثوا معه هاتفيًا فورًا، وطلبوا منه مساعدتي ودعمي قدرَ الإمكان في أثناء الدورة، أدركتُ حكمةَ اللّٰه

في تأخيره أمري الذي انزعجتُ منه وظننته شرًّا ﴿وعسى أن تكرهوا شيئًا وهو خيرٌ لكم﴾، صدق الله العظيم، وله الحمد والشكر.

وفي الموعد الجديد المحدَّد لنا، قمتُ بتوديع أهلي قبلَ أن أسافر للذهاب والالتحاق بدورة المخابرات الحربية، وأنا لا أعلم هل سأتمكَّن من العودة ومتى سيكون ذلك! وهل من الممكن أن ينكشفَ أمري بعدَ أن وصلتُ إلى هذه المرحلة! خاصَّة وأنَّني سأصبح مضطرًا ولأول مرة في حياتي أن أعيشَ حياتي اليومية الكاملة وعلى مدار الساعة مع أعداء لي ولقومي يكرهونني وأكرههم، ويختلفون عني وأختلف عنهم في كل شيء!

بعدَ وصولي من السفر إلى العاصمة دمشق، توجَّهتُ إلى الفرع الإداري لشعبة المخابرات، حيث وجدت جمعًا كبيرًا من الشباب يجري تجميعُهم في ساحة الفرع؛ ومن اللحظة الأولى، لاحظتُ شدَّة وقسوة في التعامل معنا جميعًا، حيث كان الصياحُ والتعامل الفظ يُستخدَم مع تجميع الشباب الذين سيرسلون إلى الدورة التدريبية. وقد جرى جمعُنا وإجلاسنا على الأرض القذرة، ثم جرى رمي أكياس تحتوي بدلين من الملابس العسكرية لكل واحد منا وبعدها

جرى حشرنا في صناديق سيارات شاحنة عسكرية روسية الصنع، وتم الخروج بنا من شوارع العاصمة المزدحمة ثم أخذنا إلى منطقة جبلية وعرة في ريف دمشق في منطقة نائية غير مأهولة بالسكان المدنيين إسمها ميسلون تقع قريبا جدًّا من الحدود السورية اللبنانية وهي معروفة بأنها من أشد المناطق بردا في سوريا، وهناك وفي وادي صغير يختفي تقريبًا بين قمم الجبال المتجمدة وصلنا وتم إدخالنا إلى مدرسة المخابرات الحربية وهي الوحيدة من نوعها في سوريا، وعندما تجاوزنا الأسوار والبوابات وبينما كانت السيارات الشاحنة تنقلنا إلى القطاع المخصص لنا وبينما كنا نمر في ساحات متعددة حيث يوجد لكل قطاع تدريب ساحته الخاصة به، كنت ادقق النظر ورأيت ما كان وقتها أول مشاهد من الحياة العسكرية أراها في حياتي، حيث كان هناك شباب يجرون بشكل أرتال منتظمة في كل طريق وساحة، وفي بعض الزوايا كان البعض جرى تعريتهم من ملابسهم رغم البرد القارس الذي كان موجود، والبعض يجري إزالة شعر رأسهم نهائيا وهم جلوس على الارض الموحلة، وفي زوايا أخرى كان يجري معاقبة آخرين بجعلهم

يتدحرجون على الأرض الموحلة والمتجمدة أو بإنزالهم في المياه الآسنة والباردة، وعندما وصلنا إلى القطاع المخصص لنا بدأ الصياح والشتائم يملآن المكان حولنا وتبين أن هذا جميعه موجه إلينا من أشخاص عرفنا فيما بعد أنهم سيكونون هم مدربينا خلال العام الكامل الذي سيمر علينا في هذا المكان بعدها، وكانت ألفاظ الكفر /؛ سب وشتم الذات الإلهية والأديان والعياذ بالله واستغفر الله من ذلك ؛ والتي يشتهر بها جدا أفراد الطائفة النصيرية وهي جزء لا يتجزأ من عاداتهم الدائمة وتراثهم في الكلام والتحدث إن كان بسبب أو من غير سبب وجميع السوريين يعلمون هذا / تسمع من كل الأفواه حولي ومن جميع الأشخاص سواء كانوا مدربين أو متدربين مثلي، وكان هذا الأمر هو أول وأشد عذاباتي وما عانيت منه نفسيا وقتها وبشكل مستمر ليلا نهارا لمدة ثمانية عشر عاما بعدها، فليس من السهل ولا المعتاد ولا المقبول من قبل شخص مثلي نشأ في مجتمع محافظ يجل ويحترم جميع الأديان ويقدس الله سبحانه ويتعبده بمختلف الطرق ويخاف من غضبه – عزَّ وجلَّ – أثناء كل تصرف أو كلمة، أن يسمع بل ويتعايش مع ألفاظ الكفر

وسب وشتم جميع المقدسات ودون أن يستطيع أن يبدي أيّ إعتراض أو ردة فعل من أيّ نوع !

بعدَ ذلك، جرى تجميعُ العناصر الذين حضروا حديثًا مثلي، وجرى تقسيمُنا إلى دوراتٍ وقطاعات منفصلة تمامًا، بحسب الشهادة العلمية التي يحملها كلٌّ منا؛ فحملةُ الشهادة الثانوية الذين أنا واحد منهم، وهم الأقلّ عددًا بين المتقدِّمين، جرى فصلُهم عن الآخرين ووضعهم في مَبانٍ ومهاجع للنوم منفصلة، وكانوا يُطلِقون علينا اسم "دورات المثقِّفين"؛ والباقون من حملة الشهادتين الابتدائية والإعدادية جرى فصلُ كل منهم أيضًا في قطاعات وأقسام أخرى مختلفة من مدرسة المخابرات.

منذُ الأيَّام الأولى لي في هذه الدورة التدريبية، عرفتُ وتأكَّدتُ أنَّ السمعةَ السيِّئة لها لم تكن مبالغات، أو انتشرت بين الناس عبثًا بلا سبب؛ فمن الواضح أنها كانت مدروسةً ومصمَّمة لدفع الجسد البشري إلى أقصى حدود قدرته على التحمُّل، وتعويده على أقسى وأبشع وأقذر الظروف. وفي الأيام والأسابيع الأولى، عندما بدأ التعارفُ بيننا نحن أفراد الدورة المتدرِّبين الجدد، لاحظتُ

أن مجتمعَ طائفة الأسد النصيرية هو نفسه؛ ورغم اتحادهم ضدَّ الشعب لإيذائه، يعانون بين بعضهم البعض من التمييز الطبقي والمناطقي، حيث تَبيَّنَ لي بعدَ التعرُّف إليهم في بدايات الدورة أنَّ النصيريين، الذين هم من سكَّان الساحل السوري وبسبب أنَّ الأسدَ نفسه وجميع عائلته وأقربائه ينتمون لهذه المناطق، هم أكثر غنى ونفوذًا وقربًا من صانعي القرار في النظام الحاكم، وكانوا يسخرون دائمًا ويتكبَّرون على نصيريين مناطق الداخل السوري، والذين هم أغلبهم يقيمون في قرى مدينتي حمص وحماة ويسمُّونهم / الجفتليك/، وهي كلمةٌ عثمانية قديمة تعني الأرضَ الجافة أو القاسية.

كما كانت المناصِبُ والمراكز والوظائف الحسَّاسة تُعْطَى غالبًا لنصيرية الساحل، والآخرون يكونون أقلَّ منهم مكانةً وتابعين لهم؛ وقد لعبتُ أنا فيما بعد وطوالَ سنوات عملي معهم على هذا الوتر كثيرًا، لتغذية هذه العداوة والحقد بينهم دائمًا، منفِّذا لمبدأ "فَرِّق تَسُد"، والذي تعلَّمتُه من تجربتهم هم وغيرهم من الأنظمة القمعية والاستعمارية للسيطرة على الشعوب بعدَ زرع الفِتَن بينهم.

وعندما علموا هم عن انتمائي لسكَّان مدينة حمص كانت لديهم الدهشة المعتادة، وقد افترضوا من أنفسهم من فرط غبائهم، ودون أن أوحي أنا لهم بشئ، أنَّه من المستحيل أن أكونَ أنا من الأغلبية السنية وتطوَّعت للعمل معهم في المخابرات، وأنَّه حتمًا يوجد لي أصول نصيرية. وعندما وجدتهم قد ارتاحوا لهذه الفرضية، لم أقم بنفيها، وتركتهم يفكِّرون ويتحدَّثون هكذا، وافترضتُ في تفكيري أنه في بداياتي معهم وريثما أفهمهم جيِّدًا وأنجح في اختراقهم ربما يكون هذا أفضل. ورغم ذلك، وبغضِّ النظر عن انتمائي الديني والاجتماعي وما افترضوه هم حولي، ولكن كوني أنا الوحيد بينهم جميعًا - من متدربين ومدرِّبين وضباط - من المدينة وليس من أبناء الريف مثل الباقين، فذلك جعلهم في الأسابيع الأولى يحاولون التهكُّمَ منِّي، بل والمراهنة بينهم عليَّ، وتَحدَّوني جميعًا في ذلك، قائلين بأنَّ قوتي البدنية ودرجة تحمُّلي للصعاب والمناخ القاسي جدًّا، بسبب أنَّ حياتنا نحن سكان المدن - حسب اعتقاداتهم وما قالوه - مرفَّهة وسهلة، وتجعل أجسادَنا ضعيفةً ومترهِّلة وليست قوية وصلبة مثل أجسادهم هم أبناء الريف الذين تعوَّدوا على الأعمال

والحياة الشاقة. وقد كان هذا التحدِّي الذي وجهوه لي دافعًا كبيرًا لي، وزادني حماسًا كثيرًا، ولم يكونوا يعلمون طبعًا أنني ما دخلت هذا المكانَ بينهم إلَّا بعدَ أن حضرتُ ودرَّبت نفسي على هذا جسديًا ونفسيًا لسنوات، وأنَّني أملك من الدوافع والأسباب الإنسانية والوطنية الكافية جدًّا، وأحمل قضيةَ رفع الاضطهاد والظلم عن شعب ومجتمع، ما يجعلني مستعدًّا أكثر منهم بكثير لتحمُّل كل شيء وأي شيء بقدر ما أعانني الله سبحانه وتعالى على ذلك.

كان برنامجُ التدريب في مدرسة المخابرات في الحقيقة له شقَّان رئيسيان، يندرج تحتهما كافة التفاصيل الأخرى، وهما:

١- التدريب العسكري والرياضي الجسدي القاسي جدًّا، والرهيب أحيانًا.

٢- الدروس النظرية والمحاضرات، وهذه تنقسم موادها التي تعطى للمتدربين إلى قسمين أيضًا: الأوَّل المواد الأمنية الاستخباراتية، مثل التحقيق والتفتيش والاعتقال وحماية الشخصيات المهمَّة والمواد المخدِّرة ومكافحتها، والتجسُّس ومكافحته، وحرب الشائعات، والتنكُّر وفتح الأقفال ... إلخ.

أمَّا الثاني فهو الدروسُ العسكرية الحربية، مثل الأسلحة بأنواعها، والتكتيك، والطبوغرافيا، والصحَّة العسكرية، والاستطلاع، والمواد المتفجِّرة، والقانون العسكري ... إلخ.

وكان تدريبُنا العسكري هذا يختلف عن جميع قوى الجيش والقوات المسلَّحة الأخرى في سوريا، لأنَّه بما أنَّنا كنا سنكلَّف عادة فيما بعد - من ضمن مهامنا - بمراقبة القِطع والوحدات العسكرية جميعها بمختلف أنواعها في سوريا، فكان يجب علينا ليس أن نطلعَ وندرس اختصاصًا عسكريًا واحدًا محدَّدًا، مثل باقي الضباط فقط، ولكن كان علينا أن نطلعَ ونأخذ لمحةً وافية وكافية عن كافة الاختصاصات العسكرية بأنواعها المختلفة.

والحقيقة أنَّني لم يكن لديَّ مشكلةٌ بفضل الله في جميع أنواع التدريب المذكورة، بل وبفضل الله - ورغم أنَّ المتدرِبين الآخرين كانوا ينهارون مرارًا وتكرارًا في أثناء التدريبات وكان أغلبُهم يصل إلى مرحلة البكاء أحيانًا، إلَّا أنَّني كنت أقوم بتذكير نفسي دائمًا بأنني لستُ مثلهم أبدًا، ولم آتِ هنا طمعًا بنهب وسلب واضطهاد الناس مثل غيري، ولكنَّ مشكلتي الكبرى والصعوبة كانت هي

القذارة الشديدة التي تحيط بي في جميع تفاصيل الحياة هنا، والتي كانت تقرفني من كلِّ شيء وكل شخص؛ وكانت هذه هي العقبةَ الأكبر بالنسبة لي، وتجاوزها كان هو الأصعب، حيث إنَّ جزءًا من هذه القذارة كان مقصودًا من قِبَل إدارة مدرسة المخابرات، على أساس أنه جزءٌ من التدريب على القدرة على تجاوز جميع أنواع الظروف والصعاب؛ والجزء الآخر كان نابعًا من المعتقدات الدينية والعادات المختلفة عندَ الطائفة النصيرية عن معتقداتنا وعاداتنا، فهم لا يرونَ أنَّ الفضلات التي تخرج من الإنسان نجاسةٌ مغلَّظة تحتاج إلى التطهير، كما نراها نحن. وبسبب كلِّ ذلك، فقد كانت الحمَّاماتُ ودورات المياه الوحيدة المتوفِّرة لنا غارقةً، وأرضيَّتها تسبح في طبقةٍ من القاذورات البشرية تزيد سماكتها أحيانًا عن الخمس سنتيمترات؛ وكان الماءُ الذي يفترَض أن نستعملَه قليلًا ومتجمِّدًا غالبًا، لذلك كنتُ أضطر أن استحمَّ وأغتسل به في غالب الأحيان في درجات حرارة تحت الصفر بأكثر من عشر درجات طوالَ فصل الشتاء تقريبًا، وكنا جميعًا بعدَ التدريب أو استخدام المياه المذكورة نشعر بخدر يكاد يكون كالشلل المؤقَّت في قبضات

أيدينا، ولا نستطيع تحريكَها، لدرجة أنَّنا كنا نطلب من بعضنا البعض أن يقومَ كلٌّ منا باغلاق أزرار البدلة العسكرية للآخر في أثناء تبديل الملابس بسرعة للانطلاق للتدريب التالي.

وحتَّى المطعم، الذي كنا نأكل جميعَ وجباتنا فيه، كانت طاولاتُه تنظَّف بالمماسح ذاتها التي تستخدم لدورات المياه والحمَّامات، والأواني التي كان الطعامُ يُوضَع فيها كانت مقرفةً، وتفوح منها رائحة كريهة. وكنتُ أرى حيوانات الجبال تأتي في الليل لتلعقَ الأواني ذاتها التي تُستخدَم لإطعامنا دون تعقيم أو تنظيف بعدها. ونتيجةً لهذه القذارة الشديدة العامة، والتي كان جسدي غيرَ متعوِّد عليها نهائيًا، فقد أُصِبت بمرض التهاب ونزف أمعاء مزمن شديد بقي يُلازِمني ويعود إلي لزمنٍ طويل فيما بعد حتَّى بعدَ انتهاء الدورة.

كان برنامجُ التدريب اليومي يبدأ قبلَ شروق الشمس عادة، حيث يقوم أحدُ المدرِّبين بالدخول إلى المهاجع التي ننام فيها، والتي تكون حافلةً عادة بروائح القذارات المختلفة للأجساد المتعرِّقة والجوارب العفنة للمتدرِّبين الذين كان أغلبهم لا يهتم بموضوع الاستحمام أو الاغتسال باستخدام الماء المتجمِّد في هذا البرد الرهيب الذي

نعيش فيه؛ وهربًا من هذه الروائح، ولتحاشي قيام أيّ من المتدربين معي بلمس فراشي بقذاراتهم أو محاولة الجلوس عليه، فقد كنت اخترتُ فراشًا علويًا من الأسرَّة العسكرية المعدنية ذات الطابقين التي كنت أستخدمها لمنامتي ومقرًّا لي، رغم أنَّ الآخرين كانوا يفضِّلون السريرَ السفلي لسهولة استخدامه؛ كما كنت دائمًا أقوم، رغم الصقيع الشديد، بفتح إحدى النوافذ العالية التي فوقَ سريري خلال الليل للتخفيف قدرَ الإمكان من الروائح النتنة التي كنت مضطرًّا للتعرُّض لها يوميًّا، رغم أنَّ هذا الفعلَ كان يسبِّب أحيانًا وصولَ الأمطار والثلوج إلى غطائي وفراشي وجعلهما رطبين، وكان سببًا أيضًا لخلافات وشجارات شبه يومية بيني وبين الأشخاص الآخرين النائمين في الأسرَّة القريبة مني، حتى إنَّني اضطررتُ في النهاية وكحلٍّ جذري أن أقومَ سرًّا بكسر زجاج النافذة حتى لا يطلب مني أحدٌ إغلاقَها. وكان صوتُ المدربين حين يقومون بإيقاظنا في هذا الوقت المبكِّر يعلو بالسباب والشتم وألفاظ الكفر، مستخدِمين في أثناء الإيقاظ أيديَهم وأرجلهم والماء المثلَّج، وأحيانًا الخراطيم أو الأكبال المتينة، لضرب ودفع النائمين؛ وقد يقومون أحيانًا بقلب

الأسرَّة بمن فيها أو عليهم، وبعدَها نستمر نحن بالجري والعدو بقيةَ اليوم بالكامل حتى وقت متأخِّرٍ من الليل في غالب الأيام؛ فدرسُ الرياضة الأوَّل قبلَ وجبة الفطور، والذي يكون بشكل جري حوالى ثلاثة كيلومترات بعدَ نزع الملابس عنا، وإبقاء السروال الرياضي القصير فقط ليسترنا، ويحدث هذا طبعًا كما ذكرت في مناخ جبلي تكون فيه الحرارةُ طوالَ الشتاء تحت الصفر. وكنَّا نرى الجليد والثلوج تصدر بخارًا عندما تلامسنا بسبب حرارة أجسادنا التي خرجت توًّا من دفء الفراش.

نذهب إلى وجبة الفطور جريًا؛ وحتى في أثناء وجبة الطعام، كان من العقوبات الشائعة والمحببة للضباط أن يجعلوننا نحن وباقي عناصر الدورات نأكل طعامَنا من وضعية المراوحة والهرولة في المكان مقابل طاولات الطعام القذرة، والتي لايوجد أيّ كرسي للجلوس إليها، بل إنَّنا بقينا سنةً كاملة نتناول طعامَنا في وضعية القرفصاء حولها؛ وكانت ظروفُ الطعام هذه مع قذارته تسبِّب غالبًا خروجَه سريعًا قيئًا من الكثير ممَّن كنا نجدهم بعدَ الوجبة أو في أثناء الرياضة التي تتبع الوجبةَ فورًا، دون مراعاة إراحة المتدرِّب

فترة قصيرة لهضم الطعام، حيث يَقِفون أو يستندون إلى الجدران مخرجين جميعَ ما تناولوه من هذا الطعام. ونتيجةً لوضع الطعام المزري ذاك، أذكر أنَّني بقيتُ مدة أشهر أعيش فقط على تناول الخبز ومعه كمِّية من أكلة الحلاوة التي كنت قد خبَّأتها وأدخلتها معي تهريبيًا إلى داخل مدرسة المخابرات.

بعدَ ذلك، كنَّا نعود جريًا لتبديل ملابس الرياضة بالبدلات العسكرية، والخروج إلى الاصطفاف للذهاب إلى ما يعرف باسم الإجتماع الصباحي وترديد الشعارات التي تمجِّد الأسدَ وحزبه ونظامه. ويستمر هذا الاجتماعُ عادة نحو ساعة، يتجمَّع خلالها جميعُ عناصر الدورات والضباط والموظفين والعناصر والمجنَّدين، ويتخلَّلها غالبًا العقوبات والألفاظ القذرة المعتادة.

وبعدَ انتهاء هذا الاجتماع، يبدأ الدرسُ الرياضي الثاني الذي يكون أقسى وأطول من الأوَّل، ولا يخلو أيضًا كغيره من الإساءات اللفظية والجسدية؛ ثمَّ يبدأ برنامجُ الدروس والمحاضرات الأمنية والعسكرية التي يكون بعضُها في القاعات وبعضها في الساحات والجبال والهواء الطلق حسب طبيعة ومتطلَّبات تلك الدروس. وتأتي

بعدَ ذلك وجبةُ الغداء، ثم يعود ذات البرنامج تقريبًا يتكرَّر من رياضة ودروس حتى حلول الليل وانتهاء وجبة العشاء. وكان يُفترَض بعدَ ذلك أن يكونَ وقت راحة وقضاء حاجات المتدربين الشخصية؛ ولكنَّ الليلَ كان الوقت الذي يحلو فيه للضباط والمدربين أن يمضوا أوقاتهم بالتسلية بنا بعقوبتنا، بوضعنا شبه عراة في المياه القذرة المتجمدة، أو جعلنا نجري لساعات أو نتدحرج فوقَ القاذورات والفضلات بلا أحذية أو فوق الحصى المسنَّنة والتي تترك جروحًا مؤلمة في الأقدام والأجساد، ويكون الضباطُ والمدرِّبون الذين ينفِّذون هذا بنا هم غالبًا في حالة سكرٍ شديد.

وخلال الشهرين الأوَّلين من الدورة، أُصِبت بآلام شديدة جدًّا في يداي وتهتُّك في الجلد واللحم مع لونٍ داكن جدًّا.وخلال هذه الفترة ولأني غبت عن منزل أهلي طوالَ الوقت السابق دون أن يعلموا أيَّ شيء عن أخباري ووضعي، كانت والدتي قد طلبت من جارتنا السابقة أم إياد زوجة الضابط أن يساعدَهم زوجُها في الحصول على إذن زيارة لي في مدرسة المخابرات. وبما أنَّ أبا إياد زوجها أصبح ضابطًا قديمًا برتبة كبيرة، فلم يكن الأمر

صعبًا عليهم، وفعلًا وفي أحد الأيام جرى استدعائي في أثناء وقت التدريب وفوجئت بوالدتي ومعها عائلة أبي إياد ينتظرونني جميعًا في القسم المخصَّص للزيارات. وكان حزنُ والدتي وخوفها كبيرًا عندما شاهدت وضعَ ومنظر يَدَيَّ الذي ذكرته، وظنت أنَّني ربما قد غيرت رأيي، وأنَّ قدومي إلى هنا ما كان إلَّا نزوةً أو تسرُّعًا قام به ابنها الشاب، وأخبروني بأنني أمتلك حتى الآن فرصةً للتراجع عن كلِّ شيء، حيث إن القيادةَ تترك فرصةً لكل متطوِّع مثلي أن يتراجعَ خلال الأشهر الأولى فقط من الدورة، ويُسمَّى هذا الأمر / الاستنكاف عن الدورة/، وأصرَّت عليَّ أمي أن أعودَ معها، وكان هذا أيضًا رأيَ عائلة أبي إياد؛ ولكنَّني ضحكتُ من الفكرة حتى أجعل أمي تطمئن، وبسَّطت لها الأمور وأكَّدتُ لها أنِّني بخير، وتركتهم يعودون وحدَهم، وبقيتُ في مكاني.

وبعدَ فترة، وعندما فحصني الضابط طبيب المدرسة الأمنية والذي كان لا يقبل بفحص أيّ متدرب إلَّا إن كانت حالتُه شديدة جدًّا، تبيَّن أنَّ يديَّ مصابتان بمرض يُدعى /عضَّة الصقيع أو لسعة الصقيع/، وهو يصيب من يتعرَّض لدرجات حرارة متدنِّية جدًّا

لفترات طويلة، مثل متسلِّقي الجبال، وأعراضُ هذا المرض تشبه كثيرًا أعراضَ الحروق الشديدة، وقد شفاني الله منه بعدَ فترة بفضله – عزَّ وجلَّ – وقدرته.

وفي أعقاب فترة من انطلاق الدورة، وبسبب تفوُّقي على الآخرين في الرياضة والتدريبات العسكرية نتيجة للتحضيرات التي كنتُ قد قمت بها خلال السنين السابقة، جرى تعييني أسبوعيًّا عامًا لجميع الدورات في المدرسة، وهي ميزةٌ مثل الرتبة العسكرية تُعطَى للمتدربين المتفوِّقين أو المقربين لأحد القيادات، ويصبح مشرفًا على غيره من المتدرِّبين ومساعدًا للمدربين على تنظيم الأمور وضبطها. كما أصبحتُ مكلَّفا طوالَ الفترة الآتية من الدورة بتدريب أفراد الدورات الأخرى الذين هم أدنى منا في الرتبة والشهادة العلمية التي يحملونها في دروس الرياضة واللياقة البدنية؛ وطبعًا هذا الأمرُ، بالإضافة إلى الأسباب الأخرى، جعل بقيةَ زملائي المتدربين في دورتنا، وحتى بعض المدربين، يزداد حقدُهم وحسدهم لي، وقاموا بمحاولات عديدة استمرَّ تكرارها حتى نهاية الدورة لإيذائي بشتى الطرق وللتكتُّل ضدي؛ ولكنني كنت قد جهَّزت نفسي منذ أول لحظة

دخلت فيها هذا المكان لهذا الاحتمال، وقمتُ بتهييج الخلافات والنزاعات والتحسُّسات المناطقية التي هي أساسًا موجودة دائمًا بينهم، ووفقني الله إلى تحويل دورتنا ومهجعنا إلى مجموعات متفرِّقة تمامًا؛ فمثلًا مجموعة لمنطقة صافيتا ودريكيش، ومجموعة لمنطقة جبلة، ومجموعة لبانياس وطرطوس؛ وكانت مجموعتي هي الأكبر والأقوى بين الجميع، وهي مجموعةُ المنطقة الوسطى حمص وحماة وريفهما، والجميع طبعًا كانوا من الطائفة النصيرية ولم يكن في جميع دورات المتطوِّعين بكاملها في مدرسة المخابرات الحربية وقتها، والذين علمت أنَّ عددهم حوالى /١٢٠٠/ شخص، سوايَ أنا وشاب آخر فقط من الأغلبية السنية؛ وكان الشاب الآخر من منطقة أريحا في ريف محافظة إدلب، وهو شاب بسيط طيِّب القلب دفعه فقرُ أهله الشديد للتطوُّع معنا، وقد بقيت طوالَ فترة الدورة أحاول حمايتَه من أذى الآخرين.

وعندما كانت تُجرى لنا الامتحاناتُ الدورية في نهاية كلِّ ثلاثة أشهر من الدورة في جميع المواد الأمنية والعسكرية، كنت - والحمد لله - أحصل دائمًا على العلامات الأعلى والدرجة الأولى على الجميع.

وقبلَ نهاية الدورة بفترة ثلاثة أشهر حدث أمرٌ مهمّ يجب أن أذكره؛ حيث وبعد انتهائنا من امتحانات المرحلة ما قبل الأخيرة من الدورة، والتي يجب أن نحصلَ بعدها على ما يسمى إجازة المرحلة عادة، وتكون مدَّتُها أسبوعًا في العادة نقضيها كاستراحة في بيوت عائلاتنا، وبسبب العلامات السيِّئة التي حصل عليها نسبةٌ كبيرة من متدربي دورتنا، فقد أصدر قائدُ دورتنا والذي كان من أخبث الشخصيات التي شاهدتها في هذا المكان أمرًا بحرماننا جميعًا من إجازة المرحلة، رغم أنَّنا كنا منذ زمن بعيد لم يسمح لنا بأيِّ إجازة، وننتظر ذلك بفارغ الصبر، ولم يستثنِ من عقوبته من حصل على درجات جيِّدة في الامتحان مثلي، وليس هذا فقط بل أمر أن نقضي الفترةَ التي كان يفترض أن نكونَ إجازةً فيها بعقوبات ينفذها المدربون علينا. وخطرت على بالي فكرة قمت بتنفيذها فورًا، وهي: لماذا لا أقوم بأول تجربة واختبار لقدراتي التخريبية على الأعداء ولسيطرتي على عقولهم هنا، والآن بعد أن كنت قد صنعتُ لنفسي هيبة وكلمة نافذة بينهم جميعًا!؟

وفعلًا، وبعدَ قرار المقدَّم قائد دورتنا وفي أثناء وجبة الغداء،

بدأتُ أنا بتحريض الجميع الذين كانوا أصلًا يأكلهم الغضب من قراره المجحف، قلت لهم كيف ترضون بهذا وكيف تسكتون عنه!؟

كيف تقبلون الظلمَ بعدَ كلِّ التعب والجهد الذي بذلتموه!؟

قالوا وماذا نستطيع أن نفعل!؟ قلت لهم نتمرَّد ونرفض الخطأ، قالوا كيف؟

أجبتهم لو أنَّ أيّ واحد منا خالف الأوامرَ فسيكون سهلًا معاقبته والاستفراد به، أمَّا لو اتَّفقنا جميعًا بالكامل وتعاهدنا على الوفاء فنستطيع أن نفعلَ ما نشاء،

قالوا طيِّب، ماذا نفعل بالضبط!؟

قلتُ لهم نهرب جميعًا في أوَّل استراحة من فوق أسوار المدرسة التي نحن أساسًا مكلَّفون بحراسة جزء منها، ونستطيع الخروجَ من هذا الجزء، وبعدها سنتجه عبر الغابات والجبال المحيطة بنا، حيث لا تستطيع أيّ سيارة الدخول واللحاق بنا، حتى نصل إلى أيّ قرية نركب فيها باصًا يعيدنا إلى العاصمة، ومنها يسافر كلُّ واحد منا إلى محافظته؛ وحتى لا يخون أيّ واحد منا زملاءه أو يعود قبلهم ويستفرد به المدرِّبون بالعقوبات، يجب أن نتواعدَ ونتعاهد جميعًا

ونقسم بكلِّ ما نؤمن به وبشرفنا أن نعودَ في يوم وساعة محددة؛ وبهذا، يكون الذنب مقسَّمًا على جميع أفراد الدورة، وعندها لن يستطيعوا ولم يحدث سابقًا أن جرى معاقبة دورة كاملة /هذا ما أقنعتهم به طبعًا/، ونتَّفق أنَّه من يخون عهدنا هذا فإنَّنا سنكون جميعًا أعداء له بعدها، وسيتحمَّل أن يكونَ مصدرَ سخرية للجميع، لأنَّه خائن وليس رجلًا بما يكفي.

وفعلًا، استجاب الجميعُ لتحريضي، وحدَّدنا مكانًا وزمانًا نلتقي فيهما بعدَ أسبوع هي مدَّة الإجازة التي قرَّرناها لأنفسنا، وتعاهدنا، مع علمنا أنَّه أساسًا من سيهرب معنا لن يستطيع إلَّا أن يفي بوعده، لأنَّه إن خالف وعاد قبلَ الآخرين فإنَّ غضبَ قائد الدورة والمدربين وربما قيادة المدرسة سينصبُّ عليه وحده، وبعدها غضبنا نحن زملاءَه. وفعلًا كان التنفيذ سريعًا ودقيقًا، وقامت الدورة بأكملها إلا عنصرٌ واحد اسمه يحيى تراجعَ وجبن في اللحظات الأخيرة قبلَ عملية قفزنا من فوق الأسوار، وعاد أدراجه، وقد كاد هذا اللعين يقضي عليَّ، ولكن الله سلَّم، فما هي تفاصيل ذلك؟!

في الحقيقة، بالنسبة إلينا سار الأمرُ بشكلٍ جيد جدًّا، حيث

بقينا نجري بسرعةٍ في الغابات مدة من الزمن حتى لا يتمكَّن أحد من اللحاق بنا، وبعدها وصلنا أخيرًا إلى طريق عام واستقلَّلنا أوَّلَ باص عام ظهر لنا، وحشرنا أنفسنا جميعًا فيه. وعندما وصلنا إلى دمشق، تابع كلٌّ واحدٍ منا سفرَه إلى مدينته أو منطقته. وبالنسبة إلي، فقد كنتُ أشعر بنشوة انتصار تغمرني، لقد أنجزت مهمتي الأولى في عقر دار الأعداء. لقد تلاعبتُ بهم وبعقولهم وقُدْت تمرُّدَهم على بعضهم بعضًا، وعلى قوانينهم وخدعتهم كما استطاعوا هم أن يفعلوا بشعبي وقومي الكثير من المرات، وزرعتُ أوَّلَ فتنة بينهم، ولم يجرِ ذلك في أيّ مكان، بل بين من يَرْونَ فيهم رجالَهَم الأذكياء المدرَّبين الذين عليهم المعتمد، وأنا كسبتُ ثقة إضافية بنفسي، إضافةً إلى إجازة ممتعة مع أهلي.

ولكن، فيما بعد علمنا أنَّ ما فعلناه /أو ما حرضت عليه وفعلتُه/، حسب ما وصفه ورواه لنا المدرِّبون فيما بعد، هو الحدث التاريخي الأوَّل من نوعه في جهاز المخابرات السوري منذ تأسيسه، وأنَّ خبرَنا هذا سيبقى سنواتٍ طويلة بعدها يُذكَر ويُروى لجميع المتدربين والمدربين الجدد حولَ دورة كاملة بكامل أفرادها قامت بالفرار

من المدرسة لمدة أسبوعٍ كامل؛ حيث روى لنا المدرِبون أنهم عندما أحسوا باختفائنا يومها ذُهلوا تمامًا، ولم يعودوا يعرفون ماذا يفعلون، ولكنهم حقَّقوا فورًا مع يحيى الذي كان قد خاف وتركنا وعاد فأخبرهم بما اتفقنا عليه بالحرف. وعندها قام المدربون بإعلام الضابط المناوب، والذي بدوره استنفرَ جميعَ سيارات مدرسة المخابرات لتبحث عنا في جميع الطرقات العامة التي تحيط بالمكان، ولم يخطر ببالهم أنَّني كنت قد خططتُ واخترت طريقَ الغابات للهرب. كما روى المدربون لنا أيضًا، فيما بعد، أنه في اليوم التالي لهروبنا وفي أثناء الاجتماع الصباحي والذي يقدِّم فيه عادة كلُّ قائدِ دورةٍ نتيجةَ تفقُّدِه لمتدربي دورته وعدد الغياب بينهم وأسبابه إن وجد إلى العميد قائد المدرسة؛ وبدل الصيحة المعتادة لقائد دورتنا عندما كان دائمًا يبلِّغ الضابط الأعلى منه رتبة أن الدورةَ لا غياب فيها وأنَّها جاهزة، اضطر هذه المرة للصياح بأنَّ دورة حملة الشهادات الثانوية بالكامل هي غياب غير مشروع. وعندما قال هذا، وهو كما ذكرتُ سابقًا ضابط لئيم ومغرور والجميع يكرهه، في البداية ذُهِل الجميع وطلب منه العميدُ قائد المدرسة تكرارَ ما قاله

حولَ التفقُّد مرة ثانية؛ ولَمَّا كرَّر أن دورتَه بالكامل غياب، قام جميعُ الضباط عندها بالضحك عليه والسخرية منه حتى قائد المدرسة، وأصبح ما فعلناه حسب ما ذَكَر هو نَفسه لنا فيما بعد وصمةَ عار في تاريخه وسجلٍّ عمله.

لقد تبيَّن فيما بعد أنَّ الخائنَ الوحيد لخطتنا يحيى أخبرهم أنني أنا كنت المحرِّض وقائد هذا التمرُّد؛ وهنا وكالعادة تدخَّلت يدُ العناية واللطف الإلهي لحمايتي، حيث كان قائدُ دورتنا وبعد أن أذلَّه وأهانه جدًّا أمامَ الجميع ما فعلناه قام برفع مقترح لقائد المدرسة بتنفيذ عقوبة لي في سجن تدمر العسكري الذي هو مصنَّف عالميًا أنَّه من أقذر وأصعب سجون العالم؛ ولكنَّ قائدَ مدرسة المخابرات، وهو العميد هاني، وكما شرحتُ سابقًا، تربطه علاقةٌ جيدة بعائلة إحدى قريباتي، رفض هذا الاقتراح تمامًا، وأخبر قائدَ دورتنا أنَّه مسموح له عندما نعود أن يفعلَ بنا ما يشاء، ولكن فقط ضمن المدرسة، وليس في أيّ جهة خارجها. واتَّصل العميد هاني ضاحكًا بمنزل قريبتي وأخبرهم بأنَّه أنقذني من شرور وحقد قائد دورتي الذي قدَّم له شكوى ضدي فحواها أنَّني أنا القائد والمحرِّض الأوَّل

على هذا التمرُّد، وهذه التهمةُ كان من الممكن أن تدمِّرَ مستقبلي.

ولدى عودتنا في الموعد الذي اتَّفقنا عليه بعدَ أسبوع، كان المقدَّم قائدُ دورتنا بانتظارنا حيث أعدَّ لنا برنامجًا من العقوبات والتعذيب مدَّته شهر كامل، لم يدع خلاله عقوبةً تخطر على بال بشر إلَّا وطبَّقها علينا، حيث منعنا من ارتداء الملابس مدةَ شهر كامل، وكان يدحرجنا يوميًا فوقَ أكوام القمامة وفوق الفضلات البشرية وفوق شُجَيرات الشوك، وطبعًا كان دائمًا يزيد هذه الأمور بشكل خاص عليَّ أنا. ولحسن الحظ أنَّ فصلَ الصيف كان قد بدأ والجو أصبحَ أدفأ؛ ولكن، ونتيجة لتنفيذ العقوبات علينا تحت الشمس الحارقة ولساعات طويلة، أُصِبت أنا ومجموعة من الشبان المعاقبين معي بتورُّم وانتفاخ في جلد الرأس تحت الشعر، وتقيُّح في هذه المنطقة. وعندما قام طبيبُ المدرسة بفحصنا، أخبرنا أنها حالةٌ خفيفة من مرض خطير جدًّا يسمَّى التهاب السحايا، وأنَّه لولا رحمة الله وأنَّنا كنا قد أخذنا لقاحات ضد هذا المرض سابقًا، لكان الوضع خطيرًا، ويمكن أن يكون مميتًا؛ وأصدر الطبيبُ قرارًا بالسماح لنا بارتداء القبعات العسكرية في أثناء العقوبات المقرَّرة

علينا، وطلب منَّا تبليلها دائمًا. وبفضل الله، وبعدَ أيَّام، أخذ الجلدُ الذي كان منتفخًا في رؤوسنا يتقشَّر ويقع، وكان هذا إشارةً للشفاء والحمد لله رب العالمين.

ونتيجةً لجميع التدريبات والأمراض والظروف القاسية التي وصفتُها خلال هذه الدورة، فقد شعرت أنَّني اكتسبت قوةً ومناعة ومقاومة حتى باتت العقوباتُ مهما بلغت شناعتها وقوَّتها لا تؤثِّر بي أبدًا، وكنت أنفِّذها دائمًا ضاحكًا مستبشرًا، وقد لاحظ قائدُ دورتنا اللئيم هذا الأمر. وأذكر أنَّه في أثناء تنفيذ أحد العقوبات علينا، بجعلنا ننفِّذ تمرينًا رياضيًا صعبًا ونحن نسند أيدينا إلى حصى مسنَّنة حيث كان جميعُ المتدربين معي يصرخون من الألم ويرجون قائدَ الدورة أن يوقفَ هذه العقوبة، كنتُ أنفِّذ التمرين وبكل سهولة وحتى أنَّني عندما لاحظتُ أنَّ قائدَ الدورة يراقبني، أصبحت - وبشكل قصدتُ فيه تحدِّي هذا الضابط وأن أريَه قوَّةَ تحمُّلي وعدم تأثير عقوباته بي - أنفِذ التمرين بشكل سريع جدًّا وبأصابعي فقط وليس بكامل يديَّ؛ وعندها، لاحظت الغيظَ الشديد بدا على وجهه، ثم قام بإيقاف العقوبة، وقال صارخًا متوجِّهًا

بكلامه لبقية المتدربين الذين هم جميعًا - كما ذكرنا من أبناء طائفته النصيرية - يا كلاب يا حقراء يا أوباش قاربت دورتُكم على الانتهاء ولم يستفد من جميع ما فيها ويزداد قوَّة سوى هذا الشاب، وذكر اسمي وكنيتي، ولكنَّ لسانَ حاله وما فهمته أنا وفهمه الجميع، ولكنه لم يستطع إعلانه، أنه كان يقصد أنَّ هذا السني ابن المدينة الذي ظنناه أضعفَ الموجودين انتصر عليكم جميعًا يا أبناء الريف الأشدَّاء وأبناء طائفتي. وقد شعرتُ عندها بالسرور والفخر الشديد، لأنها شهادة من أفواه قادة ومدربي أعدائنا أنفسهم، بانتصاري بفضل الله عليهم.

وخلال هذه الدورة، زاد وزني عشرين كيلوغرامًا كاملة من الكتلة العضلية الخالصة، وتغيَّر شكلي الخارجي تمامًا، وطبعًا تغيَّرت حياتي كلها بعدها ..... وفي نهاية الشهر الثاني شباط من عام ١٩٩٥، جرى تخريجُنا من الدورة. وبدل أن يودِّعَنا المقدم قائد دورتنا كالعادة المعروفة دائمًا، قام بإلقاء محاضرة علينا مفادها أنَّنا كنا أكثرَ دورة شغبًا مرَّت عليه في حياته، وأنَّه يكرهنا، ويتنبَّأ لنا بمستقبل سيِّئ، وطبعًا نحن - وخاصة أنا - كنا نغالب الضحكَ

بصعوبة بسبب معرفتنا أنَّه يتكلَّم معنا هكذا بدافعٍ من غيظه منا ومن ما سبَّبناه له من ذلٍّ وإحراج بين الضباط الآخرين، حتى أنَّه رفض بعدها إرسالَ باصات معنا لتقوم بإيصالنا للعاصمة دمشق كما هو المعتاد، وتركنا نضطر للسير مسافاتٍ حتى نجدَ ما يقلُّنا إلى هناك انتقامًا منا.

وقد جرى إبلاغي أنَّني قد حزتُ - بفضل الله - بعلاماتي ودرجاتي في جميع الامتحانات والفحوصات الأمنية والعسكرية المرتبةَ الأولى على جميع أقراني، وأنَّ هذا الأمرَ جرى تسجيلُه في سجلي وملفي الذي سيرافقني لدى الدولة. وقد قمتُ في نهاية الدورة، عندما طلب منا تسليمَ جميع الكراسات والدفاتر التي كنا ندرس فيها طوالَ الوقت وندوِّن فيها جميعَ الدروس الأمنية والاستخباراتية، بإخفاء دفاتري وكتبي وكرّاساتي بعدَ إيهامهم أنَّني قد سلَّمتها مثل غيري، وذلك لأنَّني ظننتُ أنه ربما وفي أيّ وقت قد أتمكَّن من الاستفادة منها لتدريب عناصر تنظيمنا السرِّي على العمل الأمني؛ وقد بقيت هذه الدفاترُ والكراسات مخبأةً في منزلي حتى عام ٢٠١٢ م، حين جرى قصفُ وتدمير منزلي من قِبل

نظام المجرم بشار الأسد في أثناء الثورة السورية المباركة في ذلك العام، واحترقت مع باقي المنزل والأوراق الأخرى، والحمدُ للّه على كلِّ حال وفي جميع الظروف.

انتهت الدورةُ الأمنية أخيرًا، لقد فعلتها أنا الشاب العادي الذي ينحدر من عائلة عادية من الأغلبيَّة السنِّية، أصبحتُ بشكل رسمي موظفًا عاملًا مدرَّبًا ومؤهَّلًا في جهاز المخابرات العسكرية السوري، الجهاز الذي ساهم في ظلم واضطهاد واخضاع الملايين من أبناء وطني وديني ومجتمعي. لقد نجحتُ باختراق أعداء الشعب السوري، ودرَّبني هؤلاء الأشرار الحمقى بأنفسهم مستخدِمين إمكانياتهم وجهودهم وأموالهم على أمور وخبرات ستكون سلاحًا إضافيًا معي أستخدمه في حربي السرية ضدَّهم، وقد نجحتُ فعلًا في هذا مدةَ سبعة عشر عامًا مستمرة بفضل اللّه وتوفيقه.

المفاجأة الصادمة
والقرار المصيري الصعب!

في أثناء إجازة نهاية الدورة، وريثما حان موعدُ استلامي لنتيجة الفرز التي تحدِّد لكل متدرب متخرِّج من الدورة الأمنية ما هو الفرع الأمني الذي سيجري تحديده له من قِبل القيادة كي يتوجهَ إليه للعمل فيه من بين العدد الكبير من الأفرع التابعة لشعبة الأمن العسكري والتي تتوزَّع في العاصمة دمشق وفي جميع مدن ومناطق سوريا، بدأتُ أسعى لتجديد لقاءاتي مع صديقي أحمد وبقيَّة مجموعتي المقرَّبة من الأصدقاء الذين كانوا هم أيضًا شركاءَنا في تنظيمنا السرِّي، مع العلم أنَّ اللقاءات بيني وبين الجميع خلال فترة العام التي قضيتُها في مدرسة المخابرات كانت قد خفَّ عددُها مع أحمد كثيرًا، وانعدمت تقريبًا مع البقية لأسباب متعدِّدة،

مثل ندرة الإجازات التي كنَّا نحصل عليها في أثناء الدورة، ومثل معرفتنا لضرورة زيادة الحذر والحيطة خلال تلك الفترة لخوفنا من احتمال كوني وُضِعت تحت المراقبة السرِّية من قبل النظام وأعوانه بعدَ دخولي في هذا العمل. وعندما التقيتُ بأحمد، بدأتُ ألاحظ تغيُّرًا في سلوكه نحوي لم أستطع تحديدَه في البداية، وليس هو فقط بل لاحظت تغيُّرًا عندَ الجميع، حيث كان أحمد يحاول أن يتهرَّبَ من الجلوس معي على انفراد. وكلما حاولتُ التحدُّثَ معه عن أحوال تنظيمنا وما جرى في غيابي، كان يحاول دائمًا بطريقةٍ أو أخرى تغييرَ الموضوع أو تسخيفه بتحويله إلى مزاح، ولاحظتُ أنَّ شبابًا جددًا من نوع عادي مختلف عنَّا تمامًا قد أصبحوا ملازمين لمجموعتنا؛ ومن أحاديثهم، علمتُ أنَّ هذه الحالَ كانت مستمرَّةً طوالَ فترة غيابي في الدورة.

لقد أصبحت الجلساتُ والأحاديث والاهتمامات التي تدور بين الجميع بعيدةً كل البعد عن الشأن العام وعن السياسة، وحتى عن الدين! كانت الأحاديثُ الجديدة عن لعب الورق وعن مباريات الكرة وعن الفتيات وجميع ما يمكن أن يدورَ عادة بين شباب في

هذا العمر. ولدى تكراري لمحاولات إعادة الجدِّية إلى الأحاديث وإعادتها إلى الاتجاه الصحيح، الذي كنا فيه، أذهلني إصرارُ أحمد والبقية بالمقابل على تهرُّبهم من الأمر. وبعدَ مرور أشهر من تكرار المحاولات، أصبحت الحقيقةُ الجديدة المذهلة التي صدمتني واضحةً أمامي، علمتُ وتأكَّدت أنَّ الجميعَ - وفي مقدَّمتهم أحمد - وباتفاق أو دون إتفاق قد أوقفوا كلَّ شيء كنا قد اتفقنا عليه سابقًا؛ وكانوا يتهرَّبون حتى من فتح الموضوع أو ذِكر الأسباب. شعرتُ كأنَّهم أشخاصٌ آخرون مختلفون تمامًا عن من عرفتهم ووثقتُ بهم وضحيتُ بحياتي ومستقبلي وأهلي وسمعتي وراحتي من أجل ما اتَّفقت عليه معهم وما بنيناه سوية، كنت أحلِّل الأسبابَ التي دعتهم للتراجع عن كل شيء، هل هو يا تُرى الخوف الذي جرى زرعُه منذ زمن بعيد في نفوس أهاليهم ونفوسهم ونفوس جميع طائفتنا من بطش أجهزة المخابرات، حيث جعلهم يخافون حتى مني أنا صديقهم وشريكهم السابق حين أصبحت جزءًا من أجهزة الأمن!؟ هل ظنَّ هؤلاء أنني وبعدَ كل ما تعبت من أجله كثيرًا، ودخلتُ بسببه طريقًا لا رجعةَ فيه أبدًا سأخونهم في أيّ لحظة!؟ أم أنهم لم يخافوا

من خيانتي، ولكنَّهم توقَّعوا سقوطي بيد الأعداء وانكشاف خطتي، وبذلك ربما انكشفوا جميعًا عندَها وتعرَّضوا للهلاك!

أو ربما لم يكن الخوفُ أبدًا من أوقفهم وأبعدهم عن مشروعنا التنظيمي، وإنما عدمُ جدَّيتهم من البداية، وعدم أهليَّتهم أساسًا كشباب صغار في بداية أعمارهم بلا إمكانيات، وربما كان تجاوبهم منذ البداية هو مجرَّد نزوة شبابية ورغبة في إثارةٍ ربما ظنوا وقتها أنها لن تتجاوز مجردَ أحاديث وأحلام، ولم يكونوا مستعدين أبدًا لتحويلها إلى أمر جدي تمامًا يحمل هذا القدرَ من الخطورة، وربما سحبتهم ميولُ الشباب العاديين وانساقوا مثلَ غيرهم وراءَ الشهوات والمتع والتسالي التي تناسب أعمارَهم، وتركوا أمرَ الإصلاح والمقاومة للمجهول مثل الملايين غيرهم من الشعب المذلول!

ما عرفتُه وتأكَّدتُ منه أن بعضَهم كان لديه عددٌ من هذه الأسباب، وأغلبهم ربما كان لديه جميع ما ذكرت من الأسباب مجتمعة معًا.

هنا، وعندما تأكَّدتُ من جميع ما سبق، شعرتُ بألم وجرح كبيرين، وحتى أنَّني شعرت لفترة بالضياع وبأنني تعرَّضتُ لخيانة

دفعتُ أنا مستقبلي ثمنًا لها؛ وكان لابدَّ لي من وقفةٍ ومراجعة مع نفسي ومحاكمة لها، ومن ثم كان لابدَّ لي من اتخاذ قرار أو وضع خطة جديدة.

ماذا فعلتُ بنفسي!

لقد رميتُ بنفسي في جحرٍ من ألدِّ أعدائي وأعداء جميع ما أؤمن به، وطبعًا لا مجال أبدًا ولا طريقة للتراجع؛ فجميعُ السوريين وأنا واحدٌ منهم يعلمون أنَّه في نظام الأسد من يعمل في أجهزة الأمن والاستخبارات لا يُسمَح له بالاستقالة أو ترك العمل أبدًا، مهما حاول، ولا يُسمَح له بالسفر أيضًا، ويكون خروجُه من العمل عندهم ممكنًا في حالتين فقط لا ثالث لهما، إما إن أُصيبَ بعاهة دائمة شديدة تجعله غيرَ قادر على شيء ، أو إلى القبر ميتًا.

وما فائدة دخولي إلى هذا الجهاز الآن بعدَ أن أصبحتُ وحيدًا تمامًا، ولم يَعُد لدي طبعًا إمكانية لتجنيد أو تنظيم أي أشخاص جُدُد معي مستقبلًا، لأنَّ من كان صديقًا مقرَّبا لي وبيني وبينه ثقة عمياء سابقًا قد خاف مني وهرب وتراجعَ وقتها، فكيف الآن بعدَ أن أصبحت أحمل رتبةً وصفةً مخيفة لأي مواطن عادي في سوريا،

وتجعلني في عيون وظنون الجميع وحشًا بشريًا لا أمانَ له، بل يستحيل الثقة به، وتجعل أيّ كلمةٍ تخرج من فمي في مجال معارضة النظام تُؤخَذ من قبل جميع من يسمعها من السوريين على أنَّني قلتها من أجل أن استجرَّهم وأكشفهم وأختبر ما يحملون من نوايا للنظام الذي أصبحت أظهرُ في عيون جميع الناس وأمامهم – عدا القلَّة الذين يعرفون الحقيقة والأسباب الحقيقية طبعًا – أنَّني أعمل له ولحسابه ومصلحته.

وحتى لو تابعتُ عملي الذي كنت قد نويته منذ البداية، أي أن أعملَ جاسوسًا ومخرِّبًا وعدوًا سرِّيًا من داخل النظام الأسدي وضده، فهل سأستطيع كشخصٍ وحيد محدود القدرات والإمكانيات أن أتركَ أيّ أثر نافع ومفيد لقضيَّتي وضارٍّ لأعدائي كما تمنيتُ ورغبت!؟ فقد كانت خطَّتي أن أسحبَ غيري وأساعدهم على الدخول مثلي إلى أجهزة الأمن والدولة، وبهذا طبعًا كلما ازداد عددُنا ازداد معه تأثيرنا في النظام، وسهلت مهامُنا أكثر، يا تُرى هل أجرمتُ وأخطأت في حقِّ نفسي من أجل من لا يستحق ذلك!؟

والأهم من هذه الأسئلة جميعها ماذا يجب أن أفعل الآن!؟

كنتُ متأكِّدًا من نفسي تمامًا، وكما رويتُ لكم كلَّ شيء، أن نيَّتي عندما بدأتُ هذا العملَ كانت في سبيل الله وكانت طيِّبة؛ وما أعلمه بعلمي المتواضع أنَّ من يخلص النيةَ ويصدق في توكُّله على الله، فإنه محالٌ أن يخيب. كان الحلُّ الأسهل والجواب المنطقي الأقرب لأسئلتي اللذان سيخطران على بال أيّ شخص في موقعي وقتها أن أفضِّل ما أستطيع أن أفعله هو ما فعله جميعُ أصدقائي بأن أتناسى جميعَ أفكاري وخططي السابقة، وأن أتحوَّلَ إلى متابعة مصالحي الشخصية، وخاصة بعدَ أن فتحت أمامي أبواب الدنيا بجميع ملذَّاتها وبالمجان بعدَ دخولي وعملي في جهاز الأمن السوري الذي كانت الصلاحياتُ والإمكانات والسلطة التي تُعطَى لعناصره مثلي ليس لها حدود تقريبًا. ولكن إن فعلتُ هذا أكون قد رميتُ بجميع مبادئي وقِيمي وأخلاقي، والأهم منها جميعًا رميتُ ديني وتركت ثأرَ قومي ودماءَ شهدائهم المظلومين، وأكون قد انضممت إلى الطريق الشيطانية للفساد التي يسير عليها النظامُ وأتباعه، ويجرّ سوريا جميعها معه إليها.

عندَ هذا الحدِّ من التفكير، اتخذتُ قرارًا مصيريًّا بالنسبة

لحياتي وطريقي وخطتي المقبلة، قرارًا لا رجعةَ فيه، قرَّرتُ أن أكونَ وأبقى - كما خططت سابقًا - جاسوسًا، ولكن ليس من أجل تنظيمي السابق الذي أفشله خوفُ الآخرين، وليس من أجل أحد معيَّن وليس من أجل حزب أو جهة معينة، نعم قرَّرتُ أن أعملَ جاسوسًا من أجل لا أحد، ومن أجل كل أحد من مجتمعي وأبناء ديني وشعبي، سأجمع المعلوماتِ بإذن الله وأخزِّنها ثم أسرِّبها لمن يحتاج إليها من المظلومين أو المعارضين الشرفاء لهذا النظام إن وُجِدوا؛ سأحارب الأعداءَ من داخل منزلهم ومن بينهم، سأخرِّب بإذن الله، سأرمي بينهم الفتنَ والفرقة بإذن الله، سأحاول أن أبتكرَ وأنشرَ بينهم شائعاتٍ الغرض منها إثارة المشاعر والآراء السلبية والضارَّة بينهم بإذن الله؛ سأحاول نشرَ الإهمال والتقاعس عن العمل بينهم بإذن الله، وقد وفَّقني الله فعلًا بقدرته على أن أستمرَّ بالنجاح في فعل جميع هذه الأعمال والكثير غيرها بعدها ودون أن أُكشفَ مدة ستة عشر عامًا في شعبة المخابرات، ثم لمدة عامين في الجيش الأسدي، فالحمدُ لله مدبِّر كل شيء.

باسل محمد روحي صنيب

سنوات العمل في فرع الأمن العسكري بمدينة حماة

بعدَ انتهاء الدورة الأمنية وإجازتي، توجَّهتُ إلى الفرع الإداري لشعبة المخابرات في دمشق، وجرى هناك تسليمي فرزي النهائي إلى مكان عملي الجديد، والذي تبيَّن أنه إلى فرع الأمن العسكري في مدينة حَماة، هذه المدينة المظلومة والمنكوبة والمجاورة لمدينتي حمص، والتي من قصَّتها بدأت قصَّتي ومن نكبتها ومأساتها كنت استمدُّ دوافعي. لم يكن إحساسي وقتها أنها كانت صدفةً غريبة جدًّا كما قد يبدو عليها، بل شعرتُ أنه ترتيب وتيسير وتوفيق جديد من الله عز وجل.

عندما توجَّهت مسافرًا إلى مدينة حَماة ولم أكن أعرفها جيِّدًا سابقًا، لاحظتُ خلال الطريق الرعب والارتباك الذي ظهر

على وجوه السائق والركاب في الحافلة التي كنتُ أستقلُّها، لمجرد توجيهي سؤالًا لهم عن مكان الفرع، وأين يتوجَّب علي أن أترجلَ من الحافلة حتى أصلَ إليه. وعندما وصلتُ، وجدتُ أمامي سورًا ضخمًا عاليًا جدًّا لا يُظهِر شيئًا تقريبًا من المباني التي تقع خلفَه، ويحيط بمساحة شاسعة جدًّا من الأرض، وحولَ هذا السور أيضًا جرى زرعُ طوقٍ من الحواجز الإسمنتيَّة والأسوار الأقل ارتفاعًا. كان الفرعُ من الخارج لا يشبه الأفرعَ الأمنية الأخرى التي شاهدتها في باقي الأماكن، كان هذا أشبهَ ما يكون بالقلاع الأثرية القديمة التي كانت تحمي الممالكَ والملوك داخلها، ولكنها هنا لحماية المجرمين طبعًا؛ فبرغم تدمير نظام الأسد لمدينة حَماة بالكامل وقتله وتشريده واعتقاله لمعظم مواطنيها، كانوا حتى الآن في قرارة أنفسهم يخافون عواقبَ ما فعلوه يومًا، أو أن يطالهم انتقامُ ما قد يأتي ليهاجمهم في أيّ لحظة. وبعدَ أن اجتزتُ البوَّابات والحراس المتعددي الأنواع في طريقي نحو الدخول إلى الفرع، وأنا أقوم في كل مرة بإظهار مهمَّتي وأوراقي طبعًا، سلَّمتُ نفسي في الداخل للقسم المختص بتسجيل العناصر الجدد، وجرى إخباري أنَّه يجب عليَّ الانتظار لأيام وربما

لأسابيع حتى أتمكَّنَ من مقابلة رئيس الفرع، والذي كان وقتها برتبة عميد ويدعى أحمد حلُّوم، وهو من الطائفة النصيرية ومن أبناء الساحل كالعادة طبعًا، والذي كان هو الوحيد الذي لديه صلاحية تحديد القسم والمكتب الذي سأُعيَّن وأعمل فيه في هذا الفرع.

بدأتُ فورًا خلال هذه الفترة أجري أبحاثي الخاصة عبرَ العناصر الذين جلستُ معهم، وتعرَّفت إليهم، عن أسماء وميزات الأقسام الموجودة في فرع مخابرات حماة، وحسمتُ أمري بعدَها أنني سأحاول أن يكونَ العمل الذي سيحدَّد لي هو في قسم الحاسب الإلكتروني /الكمبيوتر/، وذلك كان لعدَّة أسباب وجيهة تجعل منه أفضلَ عمل مناسب لوضعي، لأنَّني سأستطيع من خلال العمل فيه الحصولَ على أكبر كمِّية من المعلومات والبيانات والأسرار والقرارات والمراسلات بين قيادة نظام الأسد وبين الفرع، لأنَّ جميعَ ما ذُكِر كان يمرُّ ويرسل ويستقبل ويطبع عن طريق قسم الكمبيوتر، وبالإضافة لهذا كان السببُ الثاني والمهم جدًّا بالنسبة إلي هو أنني إن عملت في هذا القسم فسأكون قد أُبعِدتُ وأُعفيت تلقائيًا مما يمكن أن اضطر إليه في أيّ قسم آخر من أقسام فرع المخابرات من

اشتراكي بنفسي وبيدي وبشكلٍ مباشر في ظلم واضطهاد الناس أو تعذيبهم، أو ربما بالنسبة للاحتمالات الموجودة في أقسام أخرى مثل قسم التحقيق العدلي وقسم السجن. نعم، سأكون بعملي في قسم الكمبيوتر قد أعفيت نفسي من الاشتراك في قتل الأبرياء، والسببُ الأخير أنني علمتُ وقتها أن ذاك القسمَ يرأسه ضابط مهندس برتبة مقدَّم يدعى محمد ديب، وأن المقدمَ المذكور ذو طبع أهدأ وأقلّ شراسة من غيره؛ وفعلًا، بدأت أبحث وأسأل عن طريقة أو وساطة توصلني إليه كي أطلبَ منه أن يساعدني بإحضاري للعمل في قسمه؛ وتبيَّن بعدَ البحث أنَّ أحد أخوالي أشقاء والدتي، وهو كان يعمل سابقًا طبيبًا في إحدى اللجان الطبية العسكرية، وفي أثناء عمله في تلك اللجنة قدم خدمةً كبيرة للمقدَّم محمد رئيس قسم الحاسب من خلال مساعدة والده بطلب تسريحه من العمل في الجيش، وكان المقدم وعد خالي بردِّ هذا المعروف له يومًا ما؛ وعندما علمتُ بهذا فرحتُ واستبشرت كثيرًا، وقام خالي بتزويدي عندها برسالة للمقدَّم محمد يطلب فيها منه مساعدتي وإحضاري للعمل في قسم الكمبيوتر عنده، وأنا بدوري قمتُ بمقابلة المقدم

وأوصلتُ إليه الرسالة وأخبرته برغبتي، ولكنَّ جوابه لي كان بوجوب انتظاري لنتيجة مقابلتي مع العميد رئيس الفرع.

لقد أعطاني هذا الموضوعُ وقتها أولَ درس تعلَّمته حول طبيعة العلاقات وأسلوب العمل في جهاز المخابرات السوري، حيث لاحظت ممَّا حدث وقتها ومن أمور كثيرة تلت ذلك فيما بعد أنَّ الرتبَ العسكرية والدرجات الوظيفية لم تكن داخل جهاز الأمن السوري في عهد الأسد سوى شكليَّات، ولم تكن ذات قيمة فعلية داخل الفرع وبين الضباط والعناصر، بينما كانت القيمةُ الفعلية والحقيقية هي لدرجة الدعم والوساطة التي يمتلكها كلُّ شخص يعمل ضمن هذا الجهاز، وتدخل في معادلة القوَّة هذه أيضًا بالنسبة للنصيريين درجة قرب وقرابة كلِّ شخص منهم من عائلة الأسد وأقربائه ومن كبار المسؤولين وصانعي القرار في النظام. وحتى من كان أيضًا يعمل مع أو تحت إمرة أحد المقربين الذين هم ذوو سلطة وصلاحيات لأحد الأسباب السابقة، كان يكتسب قوةً ودعمًا من قوتهم هم وحمايتهم له، فكم من عنصر أو ضابط صف ذو رتبة صغيرة أحيانًا أو حتى موظف مدني في المخابرات عرفتهم، كان

لهم من القوة والصلاحيات والسلطة والنفوذ ما لا يملكه ضباط ذوو رتب عالية يعملون في ذات المكان. وكان في فرع مخابرات مدينة حَماة لمدة سنوات طويلة عدَّةُ موظفين مدنيين لا يحملون أيّ رتبة عسكرية أو أمنية، وليس لديهم أيّ مؤهِّلات، كانوا معينين كقادة لمفارز أمنية كاملة مسؤولة عن أمن ومراقبة مناطق وقرى سكانية كثيرة وكبيرة، بينما كان في مقر الفرع ضباطٌ يحملون رتبًا ومؤهلات عسكرية، رغم ذلك كانوا مهمَّشين في الفرع ومكلَّفين بأعمال ومهام بسيطة لا قيمةَ لها.

بعدَ أيام من بقائي في الفرع، قام العميدُ أحمد حلوم رئيس الفرع بمقابلةٍ شخصية معي ومع جميع العناصر الذين أتوا حديثًا مثلي، ولكل واحد منا على حِدَة، وكانت مقابلتي معه سريعةً لم تستمرَّ سوى دقائق، كان رجلًا ضخم الجثة ذا وجهٍ وسحنة إجرامية؛ وكان يظهر على لون وجهه الغريب أنَّه، ومنذ زمن بعيد جدًّا لم يتعرَّض لأشعة الشمس، وقام هو خلال المقابلة بتوجيه أسئلة سريعة إليَّ عن بعض المعلومات عن حياتي ومؤهِّلاتي وعائلتي بينما كانت عيناه تتفحصان وجهي بشكلٍ دقيق. وعندما انتهت المقابلة وانصرفت من

مكتبه، جرى إبلاغي أنه جرى فرزي وتحديد عملي في مقر الفرع في قسم المعلومات.

وفي الحقيقة، عندما جرى إعلامي بهذا، تضاربت مشاعري بين انزعاجي من عدم نجاح جهودي ومسعاي للعمل في قسم الكمبيوتر، وبين ارتياحي لأنني كنتُ قد علمت سابقًا حين كنت أسأل عن ميزات أقسام الفرع أنَّ رئيسَ قسم المعلومات هو ضابط من القلة النادرة من الضباط الذين ذكرتهم لكم سابقًا، والذين ينتمون للأغلبيَّة السنية؛ ولكن جرى الإبقاءُ عليهم بعد أن أثبتوا ولاءَهم المطلق وطاعتهم العمياء لنظام الأسد، ثم عمَّدوا هذا الإثبات بغمس يديهم في دماء الأبرياء من أبناء سوريا بشكل عام ودماء أبناء دينهم المسلمين السنَّة بشكل خاص، وكان هذا الضابطُ من أشهرهم وأقربهم لنظام الأسد، ويحمل رتبة عقيد وقتها، ويُدعى محمَّد الشعار، وعلمتُ وقتها أنَّه ذو نفوذ كبير وسمعة منتشرة بين جميع فئات الشعب السوري من مدنيين وعسكريين بسبب ما أنجزه للنظام من خدمات في أثناء أَحداث الإخوان المسلمين في حَماة عام ١٩٨٢، حيث كان يعمل في فرع مخابرات حمص، وساهم

وقتها في اعتقال وتعذيب الآلاف من أبناء العائلات المعروفة، ومن رجال الدين والطبقة المثقَّفة وطلاب العلم في مدينة حمص بعدَ اتهامهم بانتسابهم أو تعاطفهم مع الإخوان المسلمين، وقد قام النظامُ الأسدي بإعدام الكثيرين منهم سرًّا بعدها، ولم يعودوا إلى منازلهم أبدًا.

وبعدَ هذه الفترة، ساهم العقيدُ محمد والذي كان وقتها يحمل رتبة أصغر أيضًا في ظلم واضطهاد الشعب اللبناني بعدَ أن جرى نقلُه إلى فرع الأمن العسكري السوري الذي كان موجودًا هناك في أثناء فترة الاحتلال الأسدي للجمهورية اللبنانية، وسعى مع غيره من ضباط الأمن السوري هناك إلى اعتقال الكثيرين وتركيع وإخضاع الشعب اللبناني، وقاموا جميعًا بالمشاركة في نهب أموال وممتلكات ذلك البلد وشعبه. ونتيجةً لهذه الخدمات الإجرامية القيمة بالنسبة لنظام الأسد، فقد كان للعقيد محمد الشعار وقتها وزنه ونفوذه ضمن النظام. ولكن، رغم جميع هذا الوصف السيِّئ ظننت أنه ربما وكوننا من طائفة واحدة سيكون من الأفضل بالنسبة إليَّ العمل في قسمه، وإلا سأضطر للعمل في أيّ قسم آخر، وسيكون

رئيسُ ذاك القسم من الطائفة النصيرية، وغالبًا سيوجِّه عندها حقدَه الطائفي نحوي.

بعدَ فرزي إلى قسم المعلومات في فرع حَماة، قمتُ بالالتحاق بالقسم، وأعلمني وقتها بعضُ المسؤولين فيه أن علي أيضًا الانتظار بضعةَ أيام حتى أتمكن من مقابلة العقيد الشعار رئيس القسم؛ وفعلًا، بعدَ مدة قصيرة، جرت المقابلةُ، وكانت تشبه سابقاتها من المقابلات من حيث الشكل، ولكنها من حيث المضمون كانت مختلفةً تمامًا بالنسبة إلي، لأنَّ فضولي كان شديدًا لرؤية أحد أكبر الخونة وأعلاهم مقامًا ورتبةً من أبناء ديني، كيف يبدو شكله وكيف هي شخصيته!.

وفي الحقيقة، كنتُ متفاجئًا تمامًا عندما رأيته، فسمعته والرهبة التي تحيط بذكر اسمه، إضافة للشروط الجسدية المعروفة في سوريا وعالميًا في ذلك الزمان، والتي كانت تتطلَّب شكلًا جسديًا خاصًّا عادة لقبول تطويع الضباط، جميع هذا جعلني أتخيَّل أنني سأرى رجلًا ضخمَ الجثة بجسد رياضي، ولكنَّني لم أرى سوى رجلٍ ضئيل الجسم قصير القامة في عينيه حولٌ واضح. وكان يبدو عليه

الغرورُ والتكبُّر الشديدان، يضع في فمه دائمًا سيجارًا من النوع الغالي الثمن، وأحسستُ أنَّ هذا الرجلَ كان يعلم تمامًا أنه ما كان أبدًا - حتى في أفضل أحلامه - يمكن أن يظن أنه سيصل إلى هذا القدر من النفوذ والسلطة لولا فسادُ وشذوذ نظام الأسد الذي كان يقرِّب ويزيد قدرَ وصلاحيات رجاله كلَّما زاد إجرامُهم وقذارتهم ولاإنسانيتهم. وبسبب ذلك، كان هذا العقيدُ وأمثاله يتمسَّكون بخدمة وحماية هذا النظام، لأنهم يعلمون أنه لو ذهب نظامُ الأسد، فإن مكانهم الحقيقي والمناسب سيكون بين حثالة المجتمع.

أحسستُ بشكل مؤكَّد في أثناء مقابلتي معه، ومن خلال نظراته وأسئلته أنَّ الفضولَ لم يكن شعوري أنا وحدي فقط، بل كان أيضًا يتملَّك هذا العقيد نحوي، وخاصة أنه كان سابقًا قد امضى سنوات يعمل في مدينتي حمص، ويعلم تمامًا مكانةَ عائلتي وطبائع أهل المدينة ومقاطعتهم لهذا النوع من الوظائف والأعمال وحقدهم السرِّي الدفين على نظام الأسد. وبينما كنتُ أقف أمامَ وجهه في الطرف الآخر من مكتبه، ورغم كوننا نحن الاثنين من مجتمع واحد ومنبت وطائفة واحدة، إلا أنني كنتُ أعرف أننا في الواقع على طرفي

نقيض تمامًا، فشتَّان بين من أفنى عمرَه في خيانة قومه ولخدمة ومساعدة نظام ظالم مستبد وبين من ضحَّى وخاطر بحياته وكل شيء في محاولة مساعدة ونصرة شعبه المظلوم.

بعدَ انتهاء المقابلة، جرى إبلاغي أنَّه حدد عملي في مكتب العمال /المكتب الاقتصادي/ في قسم المعلومات، والذي كان مختصًّا بمراقبة ومتابعة جميع المعامل والشركات والمؤسسات والمصارف والبنوك التابعة للقطاع الحكومي المدني، وأضيف إليها القطاع الخاص أيضًا بعدَ سنوات، حيث يقوم المكتبُ المذكور بمراقبة والتدخُّل بكل ما يخص أيّ موظف حكومي، سواءٌ أكان مديرًا عامًّا أم مُستخدَمًا، وسواءٌ في أثناء وقت الدوام أم في أثناء حياته الشخصية، ومع أسرته وفي منزله. وكجميع أجهزة الأمن والمخابرات في سوريا، كانت الصلاحياتُ المعطاة للتدخُّل في أمور المواطنين لا حدودَ ولا سقفَ لها.

وقد أفرحني وأراحني جدًّا فرزي إلى المكتب الاقتصادي؛ وشعرتُ أنه توفيقٌ جديد من الله عز وجل، لأن المواضيعَ الأمنية التي كنت سأستطيع أن أوجهَ عملي الأمني إليها في هذا المكتب

غالبًا ستكون ذات مواضيع تمس اللصوصَ والمختلسين، وسأكون بعيدًا غالبَ الأوقات في هذا المكتب وعمله عن المشاركة في ظلم واضطهاد الناس لمجرَّد ممارستهم لحريتهم في شعائر دينهم أو لمجرد تحدُّثهم أو مطالبتهم بحريتهم وانتقادهم لأحد المسؤولين كما كان يمكن أن يحدثَ أو أضطر إلى فعله في المكاتب الأخرى المختصَّة بمراقبة الأمور الدينية أو السياسية أو العسكرية.

كانت الفترةُ الأولى لي في مكتب العمَّال هي فترة تدريبية، حيث جرى إبقائي مدة أسابيع أداوم وأعمل ضمن مقرِّ الفرع في المكتب المذكور، اطلعتُ خلالها على طريقة وسير العمل والمواضيع التي يجري تناولها وكيفية متابعتها فيه؛ وكان أوَّل ما لفت نظري كمية الفساد المنتشرة بين عناصر المكتب والفرع بأكمله، لم يكن للشرف والأخلاق مكانٌ في أحاديث وتصرُّفات الجميع، ولا لزمالة العمل أو حتى لانتمائهم جميعًا للطائفة النصيرية الواحدة أيّ تقدير؛ فقط من كان يقدم مالًا أو طعامًا إلى من هو أعلى منه في الرتبة، أو من هو مسؤول عنه، يحصل على ما يريد، وطبعًا مصادر كل الأموال والهدايا والطعام المتداولة بين العناصر والضباط بشكل رشاوى

كانت تأتي من نهب وابتزاز المواطنين المدنيين في مدينة حماة، ومن مساومة هؤلاء المواطنين المساكين على دمائهم ودماء أولادهم. وكان الموظفون الإداريُّون، وهم من يكون عملهم دائمًا في مقر الفرع ولا يُسمَح لهم بمغادرته في أثناء فترة الدوام، هم الذين يقومون بتوزيع المهام ومواضيع العمل وتوزيع البريد وعرضه على رؤساء الأقسام. وبما أنَّه لا يُسمَح لهم بالعمل الميداني بين الناس والتواصل المباشر اليومي مع المواطنين في مدينة حَماة مثل العناصر الآخرين، الذين عملهم في المدينة /يسمى الآخرون عناصر المدينة/، فإنهم كانوا يحقدون عليهم ويحسدونهم؛ ويرى الإداريون أنه قد جرى حجبُهم عن الكنز الثمين الذي هو جيوب وأموال المواطنين الحمويين، ولذلك فهم بدورهم يبتزُّون عناصرَ المدينة ويساومونهم على مقاسمتهم الغنائم المسروقة يوميًا من الشعب لقاءَ خدمات، مثل تغيير توزيع المهام بحسب مصالح الراشي والمرتشي، وتحسين أو تشويه صورة عناصر المدينة أمام الضباط الأعلى رتبةً وأمام رئيس الفرع أو أحيانًا التستُّر على تأخر بعض العناصر أو تقصيرهم وأخطائهم في عملهم.

وكان الاهتمامُ الأكبر الذي يظهره الجميع في أحاديثهم وأعمالهم بعدَ موضوع المال هو تعاطي الخمور والدعارة حتى في مقرِّ الفرع وفي أثناء الدوام؛ ففي كلِّ مكتب وقسم كانت زجاجات وكؤوس الخمر متوفرة، ويجري تناولها ليلَ نهار مثل الماء، أمَّا العاهراتُ والزوجات اللاتي جرى جرهن للعلاقات الجنسية مع الضباط والعناصر تحت ضغوطاتٍ متعدِّدة، مثل الابتزاز والتهديد وغيرها، فكان يجري جلبهن أو استدعاؤهن بشكلٍ علني وشبه يومي إلى مكاتب الجميع. وبنتيجة هذه الأمور جميعها، كانت الأحاديثُ التي تدور في الجلسات بين عناصر وضباط وأفراد الفرع كلها حولَ مناقشة هذه المواضيع القذرة والافتخار بتنفيذها وممارستها، وقد كان من رحمة اللّٰه سبحانه وتعالى بي أن أرسلَ لي شابًا من طائفتي السنِّية، التحقَ بالعمل في الفرع في نفس الفترة التي التحقتُ فيها بالمكان ذاته، وهو ينحدر من منطقة ريف دمشق؛ ورغم أنَّه في البدايات عندَ تعرفي عليه لم يكن سوى شخص يشبه الآخرين تقريبًا في درجة فساده وانحلاله الأخلاقي، ولكن وكونه ينتمي لعائلة محترمة ووالدين طيبين ربَّياه على الأخلاق، فهو كان يعاني في نفسه دائمًا صراعًا

دائمًا بين الخير والشر، وقد أصبح هذا الشاب، والذي كان اسمه هيثم، فيما بعد وعبر جميع أيام وسنين عملي الطويلة في الأمن العسكري هو صديقي الوحيد ومؤنسي في هذا المكان والجو الموبوء القذر. ومنذ السنوات الأولى، أثبت أنه أصبح أفضلَ وأسمى أخلاقًا من أيّ شخص آخر من القَذِرين الذين يعملون معنا، حتى صرت أعتبره فيما بعد مثلَ الأخ، وكنا شركاء في كل شيء تقريبًا، عدا سري الخطير والدفين الذي لم أخبره عنه أبدًا طبعًا.

وخلال هذه الفترة أيضًا، تصادف أنَّ فرعَ مخابرات حَماة كان يقوم بتحديث وتصحيح معلومات ما يُسمَّى /دراسات الفارِّين/، وهي أضابير وملفَّات تحتوي على معلوماتٍ وبيانات كاملة عن عشرات آلاف المواطنين الحمويين الذين تمكَّنوا من الهروب والنجاة بحياتهم من الموت الذي كان يلاحقهم على يد جلَّادي النظام الأسدي في فترة أَحداث حَماة وما بعدها، ثم استطاعوا إكمالَ هروبهم عبرَ الحدود إلى الدول المجاورة لسوريا كالأردن والعراق، وجميعهم عدا نسبة قليلة جدًّا منهم كانوا لا علاقةَ لهم نهائيًّا بحزب الإخوان المسلمين، ولا بما حدث من أَحداث في

حَماة إلَّا ما لحقهم من أذى وظلم النظام خلال تلك الفترة. ولكنَّ مجرمي النظام الأسدي، لم يعجبهم أبدا أن ينجو أحد من خبثهم، ويكون شاهدًا للعالم على ما فعلوه في مدينتهم، فقاموا بإعداد هذه الملفات التي تُسمَّى دراسات الفارين، والتي كان عددها يبلغ نحو ستةَ آلاف إضبارة، وفي هذه الأضابير جرى تلفيقُ تهمة الانتساب لحزب الإخوان المسلمين للجميع، هذه التهمة التي كانت عقوبتها المقرَّرة في القانون الظالم الذي وضعه نظامُ الأسد هي الإعدام ميدانيًا وفورًا دون تحقيق أو محاكمة.

وكلُّ شخص من هؤلاء المذكورين الذين جرى تلفيقُ التهم لهم وذِكْرهم في هذه الدراسات، جرى ذكرُ جميع عائلاتهم وأقاربهم حتى الدرجة الخامسة فيها، ومعهم عائلات الأقارب الذين ذكروا فيها وأولادهم هم أيضًا. وكان الكثيرُ من هؤلاء الأقارب ما زالوا يعيشون في مدينة حماة؛ وبسبب قراباتهم وكونهم مذكورين في هذه الدراسات، كان جميعُ هؤلاء المساكين المنكوبين ولمدة أكثر من خمسة وعشرين عامًا يتعرَّضون بشكل دوري للاستدعاء إلى فرع الأمن العسكري بحماة، وهناك كان يجري إذلالهم وإرهابُهم وابتزازهم

بحجَّة التحقيق معهم وسؤالهم عن آخر أخبار أقاربهم الفارين؛ وهذا أمرٌ لم يسمع أو يعلم أحدٌ بظلمٍ مثله في أيّ دولة أونظام آخر عبر التاريخ، وذلك بأن يحاسبَ شخصٌ عن تهمة جرى اتهام قريب بعيد له بها، وأن يظلَ معرَّضًا للاضطهاد عشرات السنين من أجل هذا.

وفوقَ جميع ما ذُكر، كان جميعُ أهل مدينة حَماة وطوالَ حكم المجرم حافظ الأسد يُعامَلون في جميع أنحاء سوريا كمواطنين درجة ثانية؛ فلم يكن يُسمَح لهم بالتوظُّف في معظم الوظائف المدنية والعسكرية، وطبعًا مستحيل أن يُقبَلوا في الوظائف الأمنية؛ وكانوا عرضةً للاضطهاد والمعاملة السيئة والاحتقار من أتباع النظام في كلِّ مكان تابع للدولة أو الحكومة؛ وكان مجرَّد انتماء الشخص لمدينة حَماة يشبه كونه تهمة أو جريمة تجعل فاعلَها خائفًا وخجلًا من الناس في زمن الأسد. وليس هذا فقط، بل أنني عندما طلب مني وقتها المشاركة معهم في تحديث المعلومات الواردة ضمن هذه الدراسات كونها كان قد مضى عليها اثنا عشر عاما، كان ما قرأته في هذه الدراسات من ظلم مريع ومن تفاصيل محزنة

عن مأساة حَماة وما فعله زبانية النظام وجلاديه من مجازر فيها يفوق الخيال. لم يكن ما فعله النظامُ الأسدي وأعوانه، ومعهم من جرى إحضاره من جميع القرى النصيرية للمساعدة فيه، مذهلًا فقط، بل هي أفعال شيطانية مريضة ربَّما لا يعرف عقلُ الإنسان الطبيعي مثلها، وهي أقذر حتى من أفعال البهائم والوحوش البرية؛ وكان لهذه الصدفة التي جعلتني أطَّلع على هذه المعلومات الخطيرة منذ بداية وجودي وعملي في هذا الفرع، ومعرفتي لكمية الظلم والتصفية العنصرية المتوحِّشة التي تعرَّض لها بنو قومنا في مدينة حَماة، أثرٌ كبير في نفسي ودافع جديد وقوي لي للمتابعة في خطَّتي واقتناعي أكثر بأهميتها للناس إن أعطاني اللّه القوةَ للمتابعة في تنفيذها.

لقد كان ضمن عملي في هذه الأضابير والدراسات أوَّل مهمة قمت بها ضدَّ هذا النظام بفضل اللّه بنجاح، حيث عمدتُ – وبدلَ أن أدقِّق وأصحح وأحدِّث البيانات الواردة ضمنها عن طريق التحقيق مع الأشخاص المذكورين فيها مثلما يفترض بي أن أفعل ومثلما فعل بقيةُ العناصر المكلفين مثلي بهذه الدراسات – إلى تزوير

وتغيير وتبديل الكثير من المعلومات والبيانات، والتي ولكثرة عدد الدراسات يكون من الصعب كشفها، حيث غيَّرت أعمارَ وتاريخ تولُّد الكثير من الأسماء، وغيَّرتُ الدرجات والشهادات العلمية التي يحملها البعضُ الآخر، وبدَّلتُ عناوينَ الإقامة خارج سوريا وفي الدول المجاورة التي ذكرت للبعض، وكان مجموعُ ما نجحت في تزويره وقتها نحو أربعمائة ملف. ورغم أنَّ ضابطًا قام بتدقيقها بعدَ انتهائي منها، إلا أنَّه جرى الموافقةُ على عملي وإقراره وحفظه في معلومات الفرع كما هو.

وقد يظنُّ من ليس له خبرة أنَّ تبديلَ هذه المعلومات البسيطة ليس له قيمةٌ كبيرة، ولكنَّه في الحقيقة والواقع قد يكون سببًا لإنقاذ أرواح بشرية؛ لأنَّه في حال جرى إمساكُ أو إلقاء القبض على أيّ شخص مذكور اسمه في هذه الدراسات، فإنَّ اختلافَ بياناته ومعلوماته عن البيانات الموجودة في الفرع قد يمنع إعدامَه أو يؤدِّي إن كان حظه جيِّدًا لإطلاق سراحه بسبب عدم تطابق المعلومات، وقد تكرَّر فعلي هذا العديد من المرات خلال السنوات التالية في كلِّ مرة كان يجري تحديثُ دراسات الفارين فيها، ويجري تسليمي

عدَّة مئات منها كالعادة، حتى أنَّني بالإضافة لهذا كنت أتصنَّع أنني أساعد العناصرَ النصيريين في العمل بتحديث دراساتهم، ثم أتلاعب بهذه الدراسات كما أشاء؛ وكانوا هم يُسرُّون كثيرًا ويشكرونني على ما ظنُّوه مساعدةً مني، وخاصة أنَّ عددًا كبيرًا من عناصر هذا الفرع وشعبة المخابرات بشكل عام كانوا لا يحملون إلَّا الشهادةَ الابتدائية المزوَّرة التي كان النظام يعطيهم إيَّاها في مناطقهم، حسب ما رووا لي هم أنفسهم؛ لكي يتمكَّنوا قانونًا فقط من تحصيل الحد الأدنى من شروط توظيفهم في أجهزة الأمن والمخابرات السورية؛ وكانوا بالكاد يجيدون الكتابةَ والقراءة بشكل رديء؛ ولكنَّهم لم يكونوا يحتاجون العلم ولا الكفاءة في أعمالهم في هذا الجهاز، والتي تعتمد فقط على القدرة على الظلم والقمع والسرقة والابتزاز. ولهذا كانوا يُسرُّون من مساعدتي لهم في الكثير من الأعمال الكتابية، بل ويرجون مني دائمًا فعلَ ذلك، وهذا ما أعطاني – بفضل الله – قدرةً أكبر على الاطلاع والتلاعب بمضمون المواضيع والتقارير الأمنية وتغييرها لصالح المواطنين، ولتخفيف الأذى عنهم على قدر ما كانت تسمح إمكانياتي، وجعلني مسيطرًا

أكثر على هؤلاء العناصر بسبب حاجتهم لي وخوفهم من الاطلاع الذي أصبحت أملكه على أخطائهم ومعرفتي لها بسبب ما ذكرت.

بعدَ فترةٍ من التدريب في مقر الفرع، قام العقيدُ رئيس القسم بفرزي وتحديد عملي كمحقِّق ومدقق ميداني في مدينة حَماة / عنصر مدينة/ ضمن المجال الإقتصادي الذي يعمل به مكتبُ العمال الذي أعمل فيه؛ وقام بتكليف عنصر نصيري يُدعَى سهيل خليل بتدريبي على العمل في حَماة عن طريق اصطحابي معه يوميًا في جولاته على الدوائر الحكومية التي كان هو مكلَّفًا بمتابعتها ومراقبتها، حيث كان كلُّ عنصر مدينة يجري تسليمُه قطاعًا من الدوائر الحكومية التي يصبح هو مسؤولًا أمام قيادة الفرع عن إبلاغهم عن جميع ما يحدث في هذه الدوائر بالكامل تقريبًا، عن طريق تقارير أمنية يكتبها العنصرُ نهايةَ كل يوم، ويقدِّمها للضباط القادة في الفرع؛ وهذا القطاعُ يكون مجموعةً متجاورة جغرافيًا عادة من المعامل والمؤسَّسات والنقابات المهنية والعلمية والمنظَّمات الشعبية والمديريات الإدارية وجميع الأماكن التي يعمل فيها موظَّفون تابعون للقطاع الحكومي، ويقوم كلُّ عنصر مدينة

بالتجوُّل والتنقل في قطاعه يوميًا من معمل إلى آخر، ومن مديرية إلى أخرى، بحسب ما يسمح وقت الدوامُ له، والجزء الباقي الذي لم يستطع أن يزورَه من قطاعه في أيّ يوم بسبب عدم كفاية الوقت يقوم بالاتصال به ومعرفة ما يريد هاتفيًا.

كانت قصةُ أول عنصر درَّبني، والذي ذكرت أن اسمه سهيل خليل، من أغرب الأمور التي شاهدتها في فرع مخابرات حماة، حتى أنَّه هو نفسه كان يرويها للجميع ويندهش منها دائمًا ويسخر أمام الجميع من نفسه؛ فهذا العنصرُ، ورغم قدمه في هذا العمل في فرع حَماة ممَّا يجعله في نظر القادة صاحبَ خبرة ربما، كان لم يحصل في حياته على أيّ شهادة مدرسية ولا حتى الشهادة الابتدائية، حيث لم تكن بحوزته؛ وكان بالكاد قد تعلَّم القراءة والكتابة؛ ولكنه رغم هذا كان مكلفًا ومسؤولًا أمنيًا عن نقابة الأطباء والمستشفى الوطني ومدرسة التمريض في حَماة، وعن نقابة المهندسين، وعن نقابة المحامين والقصر العدلي /مكان جميع المحاكم والقضاة والنيابة العامة يسمى في سوريا بهذا الاسم/، بمعنى آخر كان مكلفًا بمراقبة ومتابعة والتدقيق والتحقيق وبالنقاش اليومي مع حملة

أعلى شهادات علمية موجودة في سوريا. وكان هذا التكليفُ عندما التقيته مستمرًّا منذ نحو اثني عشر عامًا، وبقي بعدها مستمرًّا في عمله هذا مدة حوالى خمسة عشر عامًا فوقها، وكان هو نفسه كما ذكرتُ سابقًا يسخر من هذا الأمر، ويقول دائمًا للعناصر الآخرين في الفرع مستهزئًا ألم تجد الدولةُ شخصًا أقلَّ علمًا وثقافة مني حتى تكلِّفه بالتعامل مع حملة أعلى الدرجات العلمية والجامعية في حَماة!!!؟

لقد رافقتُ سهيل هذا في جولاته عدةَ أشهر من أجل تدريبي وتعليمي على العمل في مدينة حماة، وعلى طريقة التعاطي الأمني مع الدوائر والشركات الحكومية المدنية.

كان أوَّلُ ما أدهشني، بل أذهلني، عندما بدأتُ العملَ الميداني في مدينة حماة، وعندما تجوَّلتُ بين المواطنين والموظفين المدنيين مع سهيل خلال عمله الأمني، هو الصلاحيات بلا حدود والسلطة المطلقة لعناصر الأمن على المواطنين بجميع فئاتهم وانتماءاتهم. ورغم أنني كنت سابقًا قد علمت وسمعت وشاهدت الكثيرَ خلال حياتي كشاب سوري أو كطالب مدرسي ومواطن سوري عن قوة

صلاحيات أجهزة الأمن وتسلُّطها على الناس، إلَّا أنني عندما أصبحتُ واحدًا منهم اكتشفتُ أن جميع الأمور تقريبًا كانت مباحةً لعناصر الأمن في عصر حافظ الأسد، مع امتلاكهم أيضًا حصانة شبه كاملة من المحاسبة القانونية والقضائية عن أيّ جرم يرتكبونه. وإذا كان هذا الوضعُ العام وقتها في جميع أنحاء سوريا، إلا أنَّ الأوضاعَ الخاصة جدًّا لمدينة حَماة وما فعله بها النظام من أهوال وما استمر بفعله، مثلما شرحتُ لكم أجزاء متعددة منها سابقًا، كانت تجعل أيّ عنصر أمن في حَماة يمتلك من النفوذ والصلاحيات أضعافَ ما يمتلكه أمثاله في المدن الأخرى؛ فالحمويُّون كانوا يُعامَلون من قبل النظام - كما شرحتُ - كمواطنين درجة ثانية وكعملاء وكخونة وكأعداء لنظام المجرم الأسد، ولذلك كان المطلوبُ من عناصر الأمن الاستمرار في إذلالهم وإخضاعهم؛ وكان المثلُ الذي يستخدمه كبارُ القادة الأمنيين في المخابرات ويوصون به العناصر دائمًا كحكمةٍ يجب الالتزام بها والعمل وفقها، ممَّا كنتُ أسمعه منهم دائمًا هو قولهم:

"أهل مدينة حَماة مثل النابض طالما أنتَ تدوس عليه وتثبِّته

بقدمك فأنت في أمان، أمَّا إن فكرت في أيّ لحظة في رفع قدمك عنهم فإنَّ هذا النابضَ سيرتدُّ ويقفز ضاربًا وجهك".

وبالمقابل، كان يُباح للعناصر كمكافأةٍ شيطانية جميع ما يستطيعون أن يحصلوا عليه ممَّا يملكه المساكين الحمويُّون، وبأي طريقة قذرة يريدها هؤلاء العناصر، يعني باختصار أنَّ أجهزةَ الأمن في سوريا عامة وفي حَماة خاصة كانت عصاباتِ نهبٍ مسلَّحة محمية ومدعومة بسلطة القانون؛ فعندما كنَّا ندخل أنا وسهيل إلى أيّ نقابة أو مديرية أو مؤسسة، كان الجميعُ وحتى المدراء يقفون عند دخولنا خائفين مرعوبين، ويقومون غالبًا بإجلاسنا مكانهم وعلى مكاتبهم، كنا نادرًا ما نسمع كلمة رفض عن أيّ طلب نطلبه من أيّ مواطن، سياراتهم أموالهم بيوتهم وجميع ما يملكون، كنا نستطيع بكل بساطة أن نقاسمَهم في استعمالها، وكانت الرشاوى التي تُسمَّى الهدايا والدعوات إلى الولائم الفخمة والسهرات العادية أو الماجنة تُقدَّم لسهيل وغيره من عناصر الأمن بشكلٍ شبه دائم ومستمر. ومن كان يتجرأ على القيام بصدِّ رغبات أيّ عنصر أمن، فإنَّ حياته يمكن أن تنقلبَ جحيمًا من خلال استطاعة هذا

العنصر ببساطة أن يلفِّقَ التهم المهلكة للجميع، أو أن يقطعَ الأرزاق لأي منهم من خلال فصل أيّ موظف من عمله أو الضغط عليه حتى يُضطر أن يستقيلَ بنفسه من وظيفته ويصبح بلا مصادر رزق.

كما أنَّ جميعَ هواتف سوريا، التي كانت موجودة في ذلك الزمان، كانت مراقبةً دائمًا على مدار الساعة من قِبل الأمن العسكري، وكانت شعبةُ المخابرات بسبب هذا تستغل أسرارَ الناس الشخصية وتستخدم زلَّات لسانهم التي يتفوَّهون بها على هواتفهم ضدَّهم ولابتزازهم والسيطرة أكثر عليهم. وحتى الأشخاص كانوا يعتبرون أمامَ الناس وأمام الرأي العام المحلي والعالمي أنهم مسؤولون في الدولة وقتها، مثل المحافظين وقيادات حزب البعث ومدراء الدوائر والمعامل والشركات وأعضاء مجلس الشعب، كانوا جميعًا واجهاتٍ وصورًا وهمية، يجري اختيارُهم وتعيينهم وحتى تلفيق انتخابات وهمية لهم، ثم يُوضَعون بيد فرع الأمن وبسلطته في الأماكن المختارة لهم. ويبقى هؤلاء المسؤولون المزعومون خاضعين منفِّذين للأوامر الأمنية؛ ومن يفكِّر في التمرُّد منهم، تجري إزالتُه فورًا بمختلف الطرق ووضع غيره مكانَه، وطبعًا هؤلاء الأشخاص لم يكن

اختيارُهم لوضعهم في مواقع المسؤولية من قبل الأمن يجري وفقًا لكفاءاتهم أو حسن سيرتهم وأخلاقهم أو شعبيتهم، بل بعكس ذلك تمامًا كان الفاسدون والمنحلون والقوَّادون ومدمنو الخمر والشاذُّون هم الأقرب والأغلى على قلوب ضباط وقادة الأمن الفاسدين المفسدين، وهم المفضَّلون لترشيحهم لجميع المناصب، لأنَّ هؤلاء ليس لهم أيّ طموحات سياسية، بل يكون همهم الأكبر والأوحد إرضاء شهواتهم ونزواتهم، ولا مانعَ لديهم أبدًا بالمشاركة في أيّ فساد في طريقهم لإرضاء نزواتهم.

أمَّا الشرفاءُ والمتديِّنون، الذين كانوا لا يزالون يعملون في وظائف الدولة، فكانوا دائمًا ملاحقين مراقبين ومعزولين، لأنَّ وجودَهم يقطع الدائرة المغلقة لشبكات الفساد والرشاوى ويعرقلها. ولذلك، كان يجري التخلُّصُ منهم في أسرع وقت، وبأي طريقة، حتى لو كانت كما ذكرتُ سابقًا بشكل تلفيق أيّ تهمة لهم تودي بحياتهم ومستقبلهم إلى الضياع. وهناك أمثلة كثيرة جدًّا - عرفتُ تفاصيلها - عن تقصُّد نظام الأسد اختيارَ حثالة الناس لوضعهم في المناصب والوظائف المهمَّة والحساسة؛ كنت أشعر أنَّها

من النوع المضحك المبكي تمامًا، مضحك من شدَّة سخافة هذا النموذج من الأشخاص وعدم تناسبهم مع الأعمال التي يكلَّفون بها، بل وتنافرهم مع الصفات اللازمة لها بشكلٍ فكاهي، ومبكي بسبب المأساة والوضع المزري الذي كان يعيشه الشعبُ السوري، وما وصلت إليه درجةُ الظلم التي تجعله يسكت عن هذه المهازل؛ فمثلًا، نذكر وظيفةَ مدير مديرية الأوقاف الإسلامية في حَماة، والتي يفترض أنها وظيفة حساسة جدًّا وغاية في الأهمية بالنسبة للغالبية العظمى من الشعب السوري، كونها تتعلَّق بإدارة وتنظيم المساجد والمعاهد الشرعية وتعيين ونقل المشايخ والعلماء والإشراف على المشاريع الخيرية الإسلامية ... إلخ، حيث يجري في العادة المعروفة في جميع دول العالم التي توجد فيها مثلُ هذا النوع من الدوائر اختيارُ مديرها من الأشخاص ذوي السمعة والخلق الحسن وأن يكونَ ملتزمًا دينيًا حتى يناسب متطلِّبات هذه الوظيفة، أمَّا نظامُ الأسد وبشكل خبيث ومتعمَّد كان قد عين مديرًا لأوقاف حَماة يُدعى غالب، وهو شخصٌ مدمن على تعاطي الخمر وفاسد مرتشي ولص وسمعته سيِّئة، وأبقاه في هذه الوظيفة لسنوات طويلة، وكان عناصرُ

فرع المخابرات يذكرون هذا الأمرَ في أحاديثهم كلَّ فترة، ضاحكين شامتين، لأنهم اعتبروه إنجازًا قذرًا آخر نجحوا فيه. وأذكر أيضًا أمرًا يتعلَّق بهذا، وهو أنَّني - بعد سنوات - كنت أحقِّق في مواضيع أمنية تتعلَّق بالفساد والرشاوى في بعض النقابات العمالية في مدينة حماة، وفوجئت عندَ تدقيقي ودراستي لسيرة حياة أحد رؤساء هذه النقابات، وكانت النقابة التي يرأسها كبيرةً ومهمَّة، أنَّه معروف سابقًا بتعاطي الشذوذ الجنسي والفعل الفاحش وسمعته سيِّئة! واستغربتُ في البداية كيف حدث هذا في مدينة صغيرة مثل حَماة يعرف جميعُ سكانها بعضَهم بعضًا تقريبًا؛ فكيف جرى انتخابُ هذا الشخص الفاسد لهذا المكان من قِبل العمَّال التابعين لنقابته!؟، وعندما بدأتُ بدراسة سيرة حياة رئيس نقابة ثانية، فوجئت أكثر بتطابق ميوله الشاذَّة وسمعته السيئة مع الأوَّل، ولكنني ظننت أنها ربَّما مجرد صدفة غريبة!! ولكن ولما تشابهت سيرةُ حياة رئيس نقابة ثالث مع سابقيه في كل شيء، ذُهلتُ تمامًا وعرفت أنها بالتأكيد ليست صدفة، وأصبح عندي فضولٌ شديد وإصرار أن أعرفَ سرَّ هذا الأمر، ومن وراءَه!؟

وبعدَ الجهود والأبحاث، عرفتُ أخيرًا أنه، بعدَ أَحْداث حَماة ١٩٨٢ جرى وقتها وضعُ شخص بمنصب رئيس اتحاد عمَّال حَماة، وعُيِّنَ في هذا العمل بأمرٍ من فرع الأمن العسكري بحماه؛ رغم أنه يفترض قانونًا في العادة أن يجري انتخابَه من قِبل العمال؛ وكان هذا الرجل قوَّادًا معروفًا، ويعلم عنه أبناء مدينة حَماة أنه كان أيضًا مدمنَ خمر ويتعاطى جميعَ الموبقات، ومن ضمنها كان حبُّه وتعاطيه للشذوذ الجنسي. وقد أوكلَت إليه، لكونه كان خادمَ ضباط الأمن المطيع ومخبرَهم وأحد جواسيسهم على أبناء حَماة، مهمةُ اختيار وتعيين رؤساء النقابات العمالية، وطبعًا كان اختيارُه لمن هم مثله وعلى شاكلته ممَّن كانوا يشاركونه في القذارات الأخلاقية، وكان مجرمو نظام الأسد طبعًا موافقين وسعداء لهذا الاختيار.

لقد استمرَّت فترةُ تدريبي مع سهيل في مدينة حَماة عدَّةَ أشهر؛ وبعدها جرى إرسالي مع عدة عناصر آخرين؛ وفي كل مرة أكون مع واحد منهم أتعرَّف إلى قطاع عمله، ثم أنتقل لغيره، حتى أصبحتُ في نهاية هذه الفترة أعرف معظمَ أحياء المدينة وأغلب معاملها ومؤسساتها وبنوكها تقريبًا. وبدأ الخبرُ ينتشر بسرعةٍ في مدينة

حَماة وبين الموظَّفين والناس العاديين حولَ وجودي كموظف مسلم سنِّي جديد في فرع الأمن العسكري؛ وكانت المرة الأولى طبعًا التي يَرَوْنَ أو يسمعون فيها عن شخص في هذا المكان والعمل هو من أبناء المدن، وخاصَّة من مدينة حمص أقرب المدن المجاورة لهم؛ وفوجئوا أكثر عندما علموا بنوع العمل الحسَّاس والمهمّ الذي كُلِّفت به ضمن الفرع، وهو القطاع الاقتصادي، والذي كان لا يُعطَى عادة إلَّا إلى العناصر النصيريين المقرَّبين والمدعومين من قادة النظام.

ولكن، يجدر بالذكر هنا أنَّ الطريفَ والغريب لمن لا يعلم تفاصيل الوضعَ الطائفي السوري في ظل حكم الأسد أنَّ أكثرَ ما كان وظلَّ يثير دهشةَ واستغراب الجميع، سواءٌ ضمن الجهاز المخابراتي أم بين الناس المدنيين في وضعي عندما يسمعون أو يعلمون عن وجودي في العمل الأمني طوالَ السنوات الطويلة التي أمضيتها في عملي بالمخابرات والجيش السوريين وبالإضافة لجميع الأسباب والأمور التي ذكرتها وشرحتُها سابقًا، هو اللقب الذي أحمله!!! حيث إنَّني ومنذ البداية المبكِّرة من شبابي، ونتيجة لحبي وإعجابي الكبيرين بسيرة صاحب سيِّدنا رسول الله (عليه الصلاة

والسلام) الصحابي عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - كنت قد لقَّبت نفسي /أبو عمر/. وحسب العادات والتقاليد التي كانت سائدةً في مجتمعنا ومدننا باستخدام الألقاب أكثر من الأسماء، فقد كان الجميعُ يعرفونني ويخاطبونني بهذا الاسم، ولكن ما هي المشكلة أو الغرابة في هذا!؟

يعلم أغلبُ السوريين أنَّ من ضمن معتقدات وعقيدة الطائفة النصيرية الحاكمة في سوريا أنَّهم يتشبَّهون بالشيعة في بعض الأمور، ومن أهمِّها أنهم يكرهون صحابةَ النبي عليه الصلاة والسلام، ويشتمونهم، ويتحدَّثون عنهم بالسوء دائمًا، ويعتبرون هذه الأفعالَ والأقوال ضدَّ الصحابة هي أحد شعاراتهم الدينية، وأذكر بالأخص الصحابيَّين الأكبر والأشهر أبا بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

في سوريا، وبعد أن تمكَّنت هذه الطائفة من الهيمنة على كلِّ شيء، أصبحوا يتقصَّدون زيادة وإعلان هذه الأقوال المسيئة والشتائم في كلِّ مكان وزمان تحدِّيًا وإذلالًا للغالبية السنِّية. ومن أجل هذا، كان جميعُ السوريين عامة يتجنبون غالبًا أن يسمون أنفسَهم أو أولادهم

بأسماء أو ألقاب تتضمن أسماء هؤلاء الصحابة، حتى لا يعتبرهم جلّادو النظام أعداء لهم، وكي لا يستجلبون عداوةَ طائفة الأسد التي تستفزُّها هذه الأسماء، فيتعرَّضون لعرقلة أمور حياتهم أو للأذى أو حتى الهلاك في أيّ لحظة على يد أحد زبانية النظام. أمَّا ضمنَ الأجهزة العسكرية والأمنية، فقد كانت هذه الأسماءُ معدومة تماما، لأنَّ القلةَ النادرة من المسلمين السنَّة - التي تعمل في هذه الأجهزة والتي شرحتُ لكم عن وضعها كيف يكون - لم يكن من مصلحتهم ولا اهتماماتهم أبدًا أن يتَّحدوا أسيادَهم وقادتهم بأسماء وألقاب تزعجهم؛ فتخيَّلوا الوضعَ المأساوي وكمية الظلم الذي كان يعيش فيه ملايين المسلمين السنَّة في سوريا لمدة أكثر من أربعين عامًا، حيث إنَّهم كانوا يخافون ولا يستطيعون حتى أن يطلقوا اسمًا يحبُّونه أو يرغبون به على أنفسهم أو على أولادهم، بسبب خوفهم من بطش وانتقام النظام الذي ممكن أن ينالهم بحجَّة هذا الأمر البسيط العادي جدًّا بالنسبة للبلاد الأخرى التي تعيش حياةً طبيعية!!

وبسبب هذا جميعه، كنت وبفضل الله - ومنذ تطوُّعي في هذا

العمل نهاية عام ١٩٩٣ وحتى تاريخ اعتقالي من قِبل نظام الأسد الابن عام ٢٠١٢ وبعدها بسنوات - الشخصَ الوحيد الذي يحمل اسم "أبو عمر" من بين جميع قوَّات الجيش والمخابرات والأمن السوري بأنواعها المختلفة. وكنا نعيد التأكُّدَ كل فترة من استمرار كوني وحيدًا في هذا أنا وأصدقائي ونتراهن عليه من باب الفضول أو المزاح أحيانًا؛ كما كنت أتحدَّى الجميعَ دائمًا أن يجدوا أحدًا غيري يحمل هذا الاسم ممن يعملون في الأمن أو الجيش. وفي كل مرة، تكون النتيجة نفسها لا أحد، وكان هذا الاسم وجرأتي على حمله وأنا أعيش بين الأعداء يشكِّل مفاجأةً لجميع من يسمع به خلال حياتي، سواءٌ من النصيريين الذين كنت ألتقي معهم في الفرع أو الأماكن الأمنية والعسكرية الأخرى، أم من المواطنين العاديين من أبناء الطوائف الأخرى؛ وكانوا يتناقلون هذا الموضوعَ بينهم في أحاديثهم كخبر غريب، وكنتُ في الكثير من المرات أسمع أحدَهم يهمس مع شخص آخر أو يحدِّثه عبر الهاتف، أو أحيانًا يروي لي من سمع مثل هذا أنهم كان أحدهم يقول للآخر: هل تعلم أنه في فرع مخابرات حَماة يوجد شخصٌ يسمِّي نفسه "أبو عمر"!!؟

كنتُ أقول في نفسي، ولمن أثق بهم، دائمًا عبر السنين وما زلت أقول إنَّني أرجو من الله أن يرضى عني ويتقبَّل ما فعلته عبر السنين من تحدِّي هؤلاء المجرمين الظلمة في كلِّ شيء، حتى في الاسم الذي اخترتُه لنفسي، وذلك رغم أنَّني فعلتُ هذا وأنا أقوم بإمضاء حياتي بينهم وفي عقر دارهم ونظامهم.

في نهاية عام ١٩٩٥، وبعدَ حوالى ستَّة أشهر من التدريب الميداني، جرى تسليمي قطاعَ عملٍ أمني مكوَّنًا من عدد من المعامل والمؤسَّسات والشركات، حيث أصبحت مسؤولًا بشكل رسمي أمام قيادة فرع الأمن العسكري عن متابعتهم ومراقبة سير العمل فيهم، وعن الإبلاغ فورًا عن أيّ خلل أو مشكلة تحدث بينهم في أيّ وقت. وجرى وضعُ سيارات هذه المعامل والشركات في خدمتي، وكنت أستطيع أن أستحضرَ أيًّا منها مع السائق المكلَّف بها إليَّ في أثناء عملي، وأن استعملها في تنقُّلاتي كما أشاء في أيّ وقت.

كانت السنواتُ الأولى لي في هذا العمل بالفرع سنواتِ تأسيس واطِّلاع وتعرُّف إلى كل شيء؛ وكانت ساعاتُ الدوام طويلة جدًّا، والعمل كان منهكًا كثيرًا، وخاصة مع الاضطرار للتعايش مع نماذج

الحثالة البشرية المنحطَّة للعناصر الذين يعملون معي في فرع المخابرات والمتفاخرين دائمًا بأفعالهم التي يفترض أن يخجلَ من ذكرها أيُّ شخص عادي يحمل قدرًا من الأخلاق؛ حيث كان برنامجُ العمل والدوام اليومي يبدأ منذ الصباح الباكر يوميًا بكتابة التقارير والمواضيع الأمنية في المكتب بمقر الفرع، ثم استلام المهامَ التي يجب تنفيذها، ومقابلة القيادات إن كان هناك داعٍ لذلك؛ ثم يقوم كلُّ عنصر منا بالتواصل هاتفيًا مع القطاع الذي يعمل فيه من المعامل والشركات، والإيعاز لهم بإرسال أيّ سيارة متوفِّرة عندهم. وبعدها، ينطلق كلُّ عنصر ليتجوَّل في مكاتب وأقسام ومستودعات كل شركة أو معمل هو مكلَّف بتغطيتها أمنيًا، ويقابل في كل يوم عادةً العشراتِ من المدراء والموظفين والمهندسين والعمَّال العاديين، ويقوم بالتدقيق والتحقيق معهم، ويستمر بمتابعة أعمال العشرات من هؤلاء؛ ويتكرَّر هذا العملُ حتى نهاية وقت الدوام الرسمي، حيث يعود جميعُ العناصر إلى مقرِّ الفرع. وبعد ذلك، يجري تكليفُ كلِّ عنصر بدوريات مراقبة يستمرُّ تنفيذُها لساعات طويلة بالتجوُّل في شوارع وأحياء المدينة ومراقبتها، ثم في الليل كنا

عادة نُكلَّف بدوريات على الفنادق والملاهي الليلية في حَماة وريفها، لنقومَ خلالها بالتجوُّلٍ على تلك الأماكن لمراقبة وتدقيق أسماء وشخصيات مرتاديها وزبائنها وزوارها. ويتواصل هذا العملُ حتى صباح اليوم التالي، والذي نعود فيه ودون الحصول على أيّ نوم أو راحة لمتابعة قطاعاتنا من الدوائر الحكومية من جديد حتى وقت الظهيرة؛ وعندها فقط يحل أخيرًا وقتُ مغادرتنا العملَ إلى الراحة في منازلنا لمدة اثنتي عشر ساعة فقط، ثم نعود في الصباح التالي لتكرار نفس الروتين اليومي المذكور.

وطبعًا، يُضافُ إلى جميع الأعمال اليومية الاعتيادية، التي شرحتُها، الكثير من الأعمال الأمنية الإضافية التي تطرأ فجأةً في الكثير من الأحيان، من مثل مداهمات المنازل ومراقبة ومطاردة المطلوبين الفارِّين أو بعض المهرِّبين. وباختصار، كان نظامُ عمل فرع الأمن العسكري في حَماة هو ستًّا وثلاثين ساعة عمل، ثم اثنتي عشر ساعة راحة فقط، وهو طبعًا نظامٌ منهك جدًّا، وكان لا يوجد مثله في جميع الأفرع الأمنية الأخرى في سوريا. وسببُ ذلك أنَّ نظامَ الأسد كان، ورغم ما فعله من سحق لمدينة حَماة وسكَّانها،

يرى حسب زعمه أنها لا تزال أخطرَ مكانٍ على وجود هذا النظام؛ ولذلك، فهو وضعَ فرعَ الأمن العسكري في حالة استنفار دائم ولمدة سنوات طويلة. ونتيجةً لهذا الدوام المنهِك والدائم، بالإضافة إلى الخواء الروحي والفساد الأخلاقي الموجود عندهم، ورغم المكاسب المادية الكثيرة والكبيرة التي كان يحصل عليها ضباط وعناصرُ الفرع من فسادهم وابتزازهم للناس، كانت تحدث بين عناصر الفرع وموظَّفيه حالاتُ إصابة بأمراض عقلية ونفسية كلَّ فترة، وقد شاهدت بنفسي العديدَ منها؛ فقد قام عنصر نصيري كنيته / بصو/ منذ أوَّل أيام عملي في الفرع، وبعد حالة اكتئاب، بالانتحار مُطْلِقًا النارَ على نفسه داخل الفرع؛ وأُصيب عنصرٌ آخر ويدعى آصف وكان من ذوي الأعمال المهمَّة والحسَّاسة في الفرع بجنون لم يشفَ منه أبدًا بعدها؛ وآخر يدعى بسَّام منصور، وهو ينحدر من قرى مصياف النصيرية، أُصيبَ باكتئاب شديد أخرسه عن الكلام نهائيًا لمدة سنوات.

ومن أوَّل الأمور المهمَّة التي اطلعتُ عليها وتعرَّفتُ على الكثير من تفاصيلها الخفية، خلال السنوات الأولى من عملي في فرع

المخابرات العسكرية في حَماة، هي أَحْداث شهر شباط عام ١٩٨٢ الشهيرة؛ ولكنَّ اطلاعي على بواطن هذه الأَحْداث كان مختلفًا تمامًا عن جميع الناس الآخرين، لأنَّني قد أكون الشخصَ الوحيد في العالم، وبسبب طبيعة عملي، الذي سمع شهادات وروايات الطرفين معًا القاتل والمقتول .. الجلّاد والضحية .. النظام الإجرامي الظالم والشعب المضطهد المظلوم، بالإضافة طبعًا إلى اطلاعي على الملفَّات والدراسات الأمنية السرية جدًّا، والتي جعلت الصورةَ تكتمل في ذهني عمَّا جرى في مذبحة حَماة عام ١٩٨٢، حيث كان عناصرُ الأمن النصيريُّون القدامى، الذين شاركوا في الجرائم التي حدثت في المدينة، وفي كثير من المرات - بعد تناولهم عددًا من كؤوس الخمور من النوع الفاخر والغالي الثمن التي كانوا يحصلون عليها كرشاوى يومية من أصحاب الملاهي الليلية أو الخمَّارات أو من بعض المهربين، يبدأون في أثناء بعض الجلسات والسهرات الليلية في المناوبات ضمن مكاتب الفرع، وبعد أن تلعب حالةُ السكر بعقولهم، بالثرثرة والتفاخر مُستذكِرين جرائمَ مقزِّزة قاموا هم بها أو شاركوا فيها في مدينة حَماة في أثناء وبعد أَحْداث

الإخوان المسلمين، يروونها ضاحكين مستبشرين كأنَّهم يروون بطولات؛ فكانوا مثلًا يحكون لي كيف أجروا مرةً سباقًا ورهانا حول من يستطيع منهم إصابةَ مئذنة ضخمة لأحد مساجد حَماة في حي يُسمَّى البيَّاض بالقاذفات الصاروخية المحمولة التي معهم، وجعلها تنهار على المسجد، وأنَّهم نجحوا أخيرًا بعدَ عدَّة إصابات مباشرة في جعلها تنهار على المسجد ومن فيه، وذكروا كم أضحكهم وقتها أصواتُ صرخات الألم والرعب التي سمعوها من المصلِّين والناس الذين كانوا داخلَ المسجد عندَ الانهيار، حيث قُتل بعضهم وأصيب آخرون. كما كانوا يتلذَّذون كثيرًا عندما يتذكَّرون كيف قامت مجموعةٌ منهم بإضرام النار في لِحى بعض المشايخ وطلّاب العلم، ثم تمتَّعوا بمراقبة آلامهم قبلَ أن يكملوا عليهم بقتلهم؛ وكيف قام عنصر يدعى موسى باقتلاع لحية أحد رجال الدين المعروفين في حَماة، وهو من عائلة مشهورة /من آل الجاجة/ مستخدمًا كمَّاشة معدنية.

أمَّا قصصُهم المفضَّلة، والتي كانوا يحبون تكرارَ روايتها دائمًا، فكانت هي قصص الاغتصاب وانتهاك الأعراض، حيث حكوا

أمامي مرارًا وتكرارًا وبالتفاصيل كيف أنَّ عنصرًا أمنيًا نصيريًا يدعى /محمد الحسن "أبو عامر"/ قام باغتصاب زوجة عالم كبير من عُلَماء الشَّرْع في حَماة (أتَحَفَّظ على تَعْيينه احترامًا وسترًا لعائلته) بعدَ فترة الأَحْداث هو ومجموعةُ عناصر آخرين تحت تهديد السلاح في أثناء مداهمتهم وتفتيشهم لمنزله، وأنَّ أبا عامر هذا كان يحب بشكلٍ خاص اغتصابَ زوجات المشايخ ورجال الدين، وأنه كان يكرِّر هذا الفعلَ على نساء أخريات كلما سنحت له الفرصة. وكان أبو عامر هذا، وهو عنصر كان لايزال يعمل معنا في مكتب العمَّال بالفرع وقتها رجلًا قصيرًا ضئيلَ الجسم قميءَ المنظر كريه الرائحة دائمًا. وعندما كانت قصتُه هذه تُروَى من قِبل غيره بحضوره كان ينفجر ضاحكًا ومسرورًا ومفتخرًا بها.

وذكروا في إحدى المرَّات أيضًا أنَّ عنصرًا آخرَ من الفرع، وفي أثناء اقتحامهم لأحد منازل المدنيين في حَماة، قام بسحب إحدى النساء إلى شقَّة مجاورة؛ وكان خلال ذلك يحمل بندقيةً آلية روسية يهدِّدها بها، ثم قام بتمزيق ملابسها، ووضع البندقيةَ على كتفه، وبدأ باغتصاب المرأة بالقوة؛ وكانت هي تصيح وتستغيث

به وبالجميع، وتقول له: أرجوك أنا متزوِّجة، أرجوك واستحلفكَ أن تتركني، فأنا حامل، بينما كان العنصرُ يتابع غيرَ آبهٍ ولا مهتم بصرخاتها وتوسُّلاتها له؛ أمَّا باقي العناصر الذين كانوا معه في هذه المهمة فكانوا ينصتون لكلِّ شيء ويضحكون. وكانوا في الفرع عندما يروون هذه الحادثة الأخيرة لي أو لبعضهم يقومون بتقليد حركات العنصر حين كان يقوم بالاغتصاب وهو يسند البندقيةَ المعلَّقة على كتفه بيده، ويقلِّدون صرخاتِ الضحية المسكينة ضاحكين مسرورين.

ومن القَصَص التي سمعتُها منهم أيضًا، وهي قصةٌ تطابقت مع ما رواه لي المدنيُّون من أهل حَماة والذين حضروا أَحْداثَها، كانت عن حيِّ الكيلانية الذي كان حيًّا رئيسيًّا ومشهورًا في مدينة حماة، والذي كان بعضُ سكَّانه - وهم جميعًا من أبناء عائلة واحدة هي عائلة الكيلاني - من أكثر سكَّان حَماة ثراء وغنى، وكيف أنَّ ضباطَ الجيش السوري التابع لنظام الأسد ومعهم ضباط المخابرات قاموا في أثناء تدميرهم لهذا الحي بجمع جميع من وَجدوه من النساء البالغات والبنات القاصرات في هذا الحي من بيوتهم، وحجزهم في

منزلٍ مجاور كان الضباط قد جعلوه مقرًّا مؤقّتًا لهم، ثم قاموا على مدى أيَّام بعدها باغتصاب جميع المُحْتَجَزات بوحشية، والتناوب على ذلك، ولم يُعرَف مصيرُ هؤلاء النساء والبنات القاصرات بعد ذلك، ولكن كلًّا من عناصر المخابرات والمواطنين الحمويين قاموا برواية هذه الحادثة لي في أوقاتٍ ومناسبات مختلفة، وأضافوا أيضًا أنَّ هناك شهودًا من الطرفين شاهدوا بعدَ تلك الحادثة بوقت قصير آثارَ دماء وكميةً كبيرة من الملابس النسائية الداخلية والخارجية الملوَّثة بهذه الدماء في المنزل الذي كان ضباطُ الجيش يتمركزون فيه في هذا المكان؛ وكانت العبارة أو المثل المقزِّز الذي يردده جميعُ عناصر فرع الأمن العسكري دائمًا في أحاديثهم بين بعضهم في الفرع هو قولهم الذي يوصون به بعضهم:

"أنَّه من لم يذق طعمَ اغتصاب فتاة حمويَّة، ويقصدون بهذا المسلمة السنِّية طبعًا، فهو مهما فعل سيكون كأنه لم يذق طعمَ النساء الحقيقيات أبدًا في حياته!!".

ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ولم تكن عملياتُ الاغتصاب والاعتداءات الجنسية، التي يقوم

بها ضباط وعناصرُ الأمن في فرع الأمن العسكري بحماة، تجري باستخدام السلاح والعنف فقط، بل كنتُ أسمع أمورًا إضافية أخرى كانت تحدث سابقًا، ورأيتُ فيما بعد حوادث مثلها تتعلَّق باستخدام الابتزاز والتهديد والضغط النفسي على الإناث في حَماة خلال مدة استمرَّت أكثرَ من ربع قرن من الزمان، حيث كان يوجد في جميع مكاتب قيادات أفرع المخابرات والضباط الكبار غرفٌ داخلية خفيَّة مجهزة دائمًا لهذه الاعتداءات؛ فكان يجري استدعاءُ النساء والفتيات من مدينة حماة إلى مبنى مقر الفرع كلَّ يوم من معظم العائلات، ثم يُتْرَكنَ لساعاتٍ طويلة وأحيانًا منذ الصباح الباكر حتى وقت متأخِّر من الليل محجوزاتٍ في غرفٍ مغلقة وبجلسات غير مريحة، ويكون بعضهنَّ أحيانًا برفقتهن أطفال أو رضع أيضًا، ويجري تكرارُ هذا الاستدعاء لهن لمدة أيام، وأحيانًا لأسابيع حتى يصلنَ إلى حالة شديدة من الانهيار واليأس والخوف؛ وبعدَها يجري إدخالهن إلى مقابلة الضباط الذين يبدأون بمساومتهن على شرفهن أو أموالهن عن طريق التهديد بإلقاء التُّهَم الأمنية المهلكة عليهن أو على أحد من أزواجهن أو عائلاتهن وذويهن؛

وتستمرُّ عمليةُ الضغط والابتزاز لأولئك النسوة والفتيات حتى يرضين بدفع ثمن لخلاصهن من هذا البلاء، إمَّا بأجسادهن إن كن يتمتَّعن بجمال يعجب مجرمي الفرع وقبلنَ هن بالاستسلام لهذا الخيار من كثرة اليأس والتعب والخوف، وإمَّا بدفعهن هنَّ أو أحد عائلاتهن مبالغَ نقدية كبيرة كرشاوى لضباط وعناصر الأمن ليتخلَّصن من هذا العذاب. وقد بقيت أشاهد أمثالَ هؤلاء المسكينات يوميًا طوالَ خمسة أو ستَّة عشر عامًا من وجودي وعملي في فرع الأمن العسكري بحماة، يحضرنَ صباحًا إلى مقر الفرع حين أكون مغادرًا المقرَّ إلى عملي في المدينة، ثم أراهنَّ هن أنفسهن يغادرن المكان ليلًا حين أعود. وكلَّما اشتد صمود المرأة ورفضها للانصياع لرغبات المجرمين ومحافظتها على شرفها أكثر، طالت فترةُ تعذيبها وابتزازها من قِبل مجرمي الأمن أكثر.

أمَّا ما كنتُ أسمعه من المواطنين المدنيين الحمويين فهو كثير، وهم الذين عاشوا المأساة وحضروا مذبحةَ حَماة عام ١٩٨٢، والذين جعلهم خوفُهم على من تبقَّى لهم من أولادهم يصمتون طويلًا رغم أنَّ جراحهم وآلامهم وهمومهم والقهر الذي تعرَّضوا

له أكبر وأشدّ من أن يتحمَّله إنسان؛ ولكن شيئًا فشيئًا - وبفضل الله - وعامًا بعدَ عام (ونتيجة أنهم تأكَّدوا من اختلافي الكامل عن باقي موظفي الأمن، وأنَّني لستُ عدوهم بل ما أنا إلاَّ واحدٌ منهم، لا أختلف عنهم) استطاعوا معي كسرَ جدار الخوف، واستعادوا الثقةَ والأمل بأنَّ من بين هؤلاء الشياطين البشريين القذرين يمكن أن يوجدَ - بفضل الله - من يحاول جهدَه أن يساعدَهم ويحميهم. وقد كانت رواياتُهم عن ما عاشوه تُبْكِي القلبَ قبل العين، عن أطفال قُتِلوا بدم بارد أمامَ والديهم، وعن والد طُعِن ثم جرى إطلاقُ النار عليه أمامَ زوجته وأولاده، وعن قيام الجيش والمخابرات والمدنيين المسلَّحين الطائفيين - الذين جرى إحضارُهم من القرى النصيرية المحيطة بمدينة حَماة - بجَمع العائلات من المنازل النساء والرجال والأطفال ثم صفِّهم على جدران الأبنية وفتح نيران المدافع الرشَّاشة عليهم جميعًا؛ والمضحكُ المبكي والمقرِف أيضًا أنَّ الكثيرَ من الحمويين أخبروني وأكَّدوا لي بأنَّ الشخصَ الحموي الوحيد الذي كان يستطيع ولديه الصلاحيات والإذن من قِبل ضباط الإجرام الأسديين، في أثناء ذلك الوقت الرهيب، لإنقاذ الناس وفك رقابهم

من الموت – حتى ولو كان ذلك في اللحظات الأخيرة بعدَ وضعهم في صف الموت النهائي – هذا الشخص هو أشهر عاهرة قوَّادة كانت موجودةً ومعروفة في حَماة في ذلك الزمان، وتُدعى أم سمير، حيث إنَّه – وبسبب ما كانت تقدِّمه هي شخصيًا ومن يعملون لحسابها في تجارة الدعارة من خدمات جنسية وبشهادة الكثير من الحمويين / وهي رواية أكدها لي أيضًا بعض عناصرُ الأمن النصيريين أيضًا / – كانت تستطيع وبإشارة منها إلى الجلّادين في أثناء الأَحداث إنقاذَ من تختارهم من الأشخاص، والذين غالبًا ما تختارهم لأنهم على شاكلتها أو من زبائنها، من الموت المحقَّق.

كما روى لي الحمويُّون أيضًا كيف كان نظامُ الأسد ومجرموه يقومون بالقتل العشوائي دون سبب ودون تهمة ولا محاكمة، حيث كان القتلُ لمجرد القتل والتصفية على أساس طائفي فقط، وكانت الجثثُ تُجمَع كلَّ يوم بواسطة البلدوزرات والآليات الثقيلة في أكوام ترتفع أمتارًا في الهواء، وجميعهم مدنيُّون عزَّل؛ لأنَّ جميعَ الذين كانوا مسلَّحين أصلًا في كافة أنحاء مدينة حَماة، وحاولوا الدفاعَ عن أنفسهم، لم يكن عددُهم يتجاوز المئات من المسلحين، وبأسلحة فردية خفيفة.

وهذه هي المعلوماتُ الدقيقة والصحيحة التي حصلتُ عليها من خلال تدقيقي لآلاف الأضابير والدراسات والملفَّات خلال سنوات عملي، ومن خلال الشهادات التي سمعتُها ممن كان حاضرًا من الطرفين، طرف القتلة وطرف أهالي الضحايا؛ ومن أجل هؤلاء المئات وبحجَّة وجودهم، قام النظام بإحضار عشرات الألوف من المجرمين القتلة المسلحين، ومدافعه وطائراته ومدرعاته وأسلحته الثقيلة، ليقوموا بذبح عشرات الألوف من الأبرياء واعتقال عدد يساويهم تقريبًا، معظمهم كانوا من القاصرين، وتدمير مدينة بأكملها على رؤوس سكَّانها، وفوق ذلك اضطهاد وظلم وقمع ملايين الناس طوالَ عقود في جميع أنحاء سوريا.

خلال السنوات الأولى لي في عملي الميداني، بدأتُ شيئًا فشيئًا ومن خلال تعرُّفي ومراقبتي للآلاف من العمَّال والموظفين الذكور والإناث (الذين يعملون ضمن القطاع الذي كنت فيه) أشكِّل في ذهني فهمًا كاملًا لمدينة حَماة وعائلاتها، طريقة حياتهم وتعاملاتهم؛ فرغم أنَّني من أبناء مدينة مجاورة لهم، إلَّا أنه ومثل أيّ بلد في العالم، كان لكل منطقة ومدينة أمورٌ تميِّزها عن الأخرى وتعطيها طابعَها

الخاص. وفي الحقيقة، في البدايات، لم يكن الأمر سهلًا عليَّ أبدًا، لأنَّ الأمرَ استغرق وقتًا طويلًا حتى استطاع الحمويُّون كسرَ جدار الخوف والبغض الدفين الذي يشعرون به تجاه أيّ موظف أمن، ممَّا يجعلهم ينفرون منه حتمًا؛ ولكنَّهم بدأوا بعدَ فترة يتناقلون اسمي سرًّا بينهم، ويراقبون تصرُّفاتي بصمت، مندهشين كغيرهم من وجودي.

كان المعتاد، وكما يعلم جميعُ العاملين والمطَّلعين على طريقة عمل أجهزة المخابرات في جميع دول العالم وسوريا منهم طبعًا، أن تعتمدَ أجهزة الأمن والمخابرات في الحصول على المعلومات وجمعها على عدَّة طرق ومصادر، كان من أهمها ما يسمَّى /المخبِرون/، والذين هم مواطنون مدنيُّون عاديون يعيشون بيننا مثلَ غيرهم من الناس، ولكنَّهم يقومون سرًّا بالتجسُّس، وتَتبُّع وتسجيل ما يحدث حولهم في مجتمعهم وعملهم، وحتى ضمن عائلاتهم أحيانًا؛ ثم ينقلونه بتفاصيله لمن كلَّفهم بهذا العمل من ضباط وعناصر وموظفي الأمن، وذلك لقاء مكاسب مادية أو معنوية أو حماية أو غايات شخصية أخرى يرغب المخبرُ بالحصول عليها من جهاز المخابرات وبمساعدة سلطة هذا الجهاز ونفوذه. ولا يستطيع أيُّ ضابط أو

موظَّف أمني النجاحَ في عمله أبدًا دون شبكة تعمل لصالحه من هؤلاء المخبرين، وهم يُسمَّون أيضًا بالمصطلح الأمني بيننا / المصادر أو مصادر المعلومات/. وكلَّما ازدادت شبكة المخبرين والمصادر عددًا واتساعًا وفاعلية، أصبحت معلوماتُ الضابط أو الموظف الذي يديرهم ويتعامل معهم أقوى وأشدَّ غزارة.

وفي ظلِّ نوعية ضباط وعناصر جهاز الأمن الفاسدة القذرة التي كانت وحدَها الموجودة في عصر النظام الأسدي، فقد كان مخبرو ومصادر جهاز الأمن جميعهم من ذات النوعية والسوية المنحطَّة؛ ولم يكن يتعاون مع الأمن السوري أو يقدِّم معلومات له عادة سوى:

أوَّلًا - النصيريين الذين هم طبعًا جزءٌ من النظام الطائفي، ولكنهم كانوا لا يستطيعون تقديمَ المعلومات الكافية اللازمة لأنَّهم لا يستطيعون معرفةَ أيّ شيء مما يدور بين مواطني جميع الطوائف الأخرى في سوريا، وخاصة الغالبية السنِّية، لأنَّ الجميعَ كان يعلم أنَّ أفرادَ الطائفة النصيرية هم جزء لا يتجزأ من نظامهم، وكان أفرادُ الطوائف الأخرى في سوريا يتحاشون الاختلاطَ بهم، ويخفون كل شيء عنهم، ويأخذون حذرَهم التام منهم.

ثانياً - الشَّاذين والفاسدين والمنبوذين من المسلمين السنَّة، والذين هم أساسًا سمعتهم سيِّئة، ويعتبرون أنهم لا شيء لديهم ليخسرونه في حال انتبه لهم الناس وكشفوا تعاملَهم مع مجرمي المخابرات الأسدية، وطبعًا هذا النوعُ من البشر ليس لديهم الرادع الأخلاقي أو الديني الذي يمكن أن يمنعَ أيّ إنسان سويّ من التعامل مع نظام قميء كهذا.

وبسبب هذا، كان جميعُ مخبري ومصادر فرع مخابرات حَماة الحمويين هم من مدمني الخمر، والقوَّادين والعاملين بالدعارة، واللصوص والمختلسين والمرتشين وأصحاب السوابق الإجرامية وروَّاد الملاهي الليلية والشاذين جنسيًا؛ وكان هؤلاء جميعًا - بالتعاون مع العاملين في الأمن الأسدي طبعًا - يعملون بعكس جميع أجهزة الأمن في العالم، وبشكل يخالف المنطقَ الأخلاقي السليم، فكانوا يدعمون ويحمون الفاسدين والسيِّئين، ويساعدونهم، بل وحتى يرشحونهم للمناصب والأعمال الحساسة، ويساعدونهم بالوصول إليها، بينما يعتبرون الشرفاءَ والمخلصين في وظائفهم والملتزمين بالأخلاق والدين هم أعداءَهم، والعثرةَ الأساسية في طريق استمتاعهم

بقذاراتهم. ولذلك، كانوا يتربَّصون بهم وينتظرون منهم أيّ زلة لسان أو تصرُّف حتى يلفِّقوا لهم التهمَ الجاهزة، مثل تهمة العداء للنظام أو لحزب البعث وتهمة التعاطف مع الإخوان المسلمين، وغيرها من التهم حتى يتمكَّنوا من التخلص منهم وإزاحتهم من طريقهم. وكانت قياداتُ الأمن والنظام الأسدي طبعًا مسرورة بهذا، وتشجعه دائمًا، لأنهم كانوا يعتمدون على استشراء الفساد في المجتمع السوري كإحدى الوسائل التي تضعف هذا المجتمعَ، وبذلك تساعدهم على السيطرة أكثر على سوريا.

وفي الحقيقة، فإنَّ صراعي الأوَّل - خلال سنين عملي الأولى في مدينة حَماة - كان مع النفس!

نعم، كان مع نفسي؛ فالسلطةُ والقوَّة والنفوذ التي حصلتُ عليها كشاب صغير وقتها - بينما كان لا يزال أمثالي معظمهم مجرَّد طلاب في الجامعات - كانت مغريةً جدًّا؛ وكان لهذه الصلاحيات سحر، ولا يمكن أن تقاومَ بسهولة؛ فكلُّ شيء يتمنَّاه أيّ شخص في العالم أو يسعى له وما ينفق الناس جهودَهم ومالهم عادة للحصول عليه كان متاحًا ومفتوحًا أمامي ومجَّانًا وبكثرة وبشكل يومي أيضًا.

كان جميعُ مُدَراء الشركات والمعامل لا يستطيعون رفضَ أيّ طلب لي أو لأي عنصر أمن عسكري، فبعضُهم كان خوفُه من بطش النظام الظالم به أو بعائلته دافعَه لهذا؛ والبعضُ الآخر كان شريكًا في الفساد والسرقات مع النظام، ويريد أن يحافظَ على مُكْتَسباته من هذا، وبعضُهم كان هو نفسه أساسًا قد وُضِع سابقًا في منصبه، وعُيِّن بيد أجهزة الأمن وبأمر منهم، لأنَّه يعمل مخبرًا وعميلًا لصالحهم ضد الشعب. ومن كان يحاول أن يتمرَّدَ على سلطة الأمن العسكري عليه أو يعارضها أو يميل مع جهةٍ أمنية أخرى، فإنَّه كان يُوضَع فورًا هو وعائلته وكل من يهمُّه أمرهم تحت المجهر الأمني حتى يقعَ أحدُهم في أيّ خطأ أو زلَّة لسان.

كان جهازُ الأمن العسكري في سوريا، كونه المكلَّف هو وحده تحديدًا من بين أجهزة الأمن الأخرى بالمراقبة والتجسُّس على جميع الاتصالات الهاتفية في سوريا (والتي كانت وسيلةَ الاتصال الوحيدة المتوفِّرة في ذاك الزمان)، يستغلُّ هذا الأمرَ أسوأَ استغلال في إخضاع وتركيع الناس من خلال كشف أسرارهم، حيث كان فرعُنا ونحن عناصره نعرف من خلال ما يسجَّل من مكالمات هاتفية يومية

أسرارًا عن بيوت العائلات يكون حتَّى بعض أفراد هذه العائلات لا يعلمها، فكنَّا نعلم مثلًا من يخون زوجته سرًّا من الرجال ومع من يفعل ذلك وأين، ومن تخون زوجَها من النساء من دون أن يعلمَ أحدٌ بذلك مع التفاصيل، والفتاة أو الشاب اللذين يقومان بعلاقةٍ غير شرعية، وغيرها الكثير من أسرار الناس والبيوت. وكان ضباطُ وعناصر الأمن يستغلُّون هذه الأسرار طبعًا أبشعَ استغلال في ابتزاز ومساومة الناس، وخاصَّة الأغنياء منهم، على أموالهم، وأحيانًا على أعراضهم.

وأذكر من الحوادث التي كانت مشهورةً في حَماة في هذا المجال أنَّ مسؤولًا في مديرية زراعة حَماة في تلك الفترة، وبسبب قرابته لأحد المسؤولين المقرَّبين لقيادات نظام الأسد في دمشق، كان قد حاول أن يتمرَّدَ على سلطة فرع الأمن العسكري عليه وعلى مديريته؛ وكان يرفض إطاعةَ أوامر رئيس وضباط الفرع وتدخُّلاتهم في عمله، فجري وضعُه بالطريقة التي ذكرتها لكم ومعه جميع عائلته تحت المراقبة الدائمة، حتى أمكنَ - من خلال مراقبة هاتف منزله - اكتشافُ أنَّ زوجته كانت تخونه بإقامة علاقة جنسية مع أحد

سائقي زوجها، والذي كانت سيارتُه مفروزة ومخصَّصة لخدمة منزل هذا المدير؛ وكانت الزوجةُ تشكو دائمًا لهذا السائق عن العجز الجنسي الذي يعاني منه زوجها خلال مكالماتها الهاتفية معه؛ وبعدَها، قام فرعُ الأمن العسكري بترصُّد الزوجة والسائق المذكورين حتى جرى إمساكهما بالجرم المشهود، وأُخِذا بعدَ ذلك وهما عاريان تمامًا إلى مقرِّ الفرع، ثم جرى إحضارُ الزوج مدير الزراعة – والذي كان لا يعلم شيئًا عن كلِّ هذا الموضوع – إلى مقرِّ الفرع، وعُرِضا عليه (زوجته وسائقه) كما هما بمنظرهما المخزي؛ ثمَّ جرت مساومةُ هذا المدير، إمَّا أن يجري فضحُه وفضح أولاده ونشر خبر هذا الأمر بتفاصيله في جميع أنحاء مدينة حماة، وإمَّا أن يرضخَ هذا المدير للفرع تمامًا مقابلَ عدم نشر هذا الخبر. وكان اختيارُه طبعًا هو الطاعة التامة للفرع للحفاظ على شرفه وشرف أولاده.

كما أذكر حادثةً أخرى من هذا النوع أيضًا، حين جرى إخضاعُ محافظ حَماة الذي كان وقتَها مهندسًا من أبناء ريف دمشق، وظنَّ أن منصبَه ومكانته كمحافظ ستحميه من نفوذ وتسلُّط

الأمن العسكري على كلِّ شيء، وحاول عدم طاعتهم، فقام الفرعُ باستغلال العلاقة السرِّية التي كشفها بينه وبين امرأة سيِّئة السمعة - كانت عضوةً من أعضاء قيادة فرع حزب البعث في حَماة عن طريق المكالمات الهاتفية التي جرى تسجيلُها بينهما - في الضغط عليه أوَّلًا، ثم بالتخلُّص منه بعدَ ذلك.

وبسبب هذه الأساليب وغيرها، لم يكن أيُّ مدير أو رئيس قسم في أيّ معمل أو شركة يستطيع أن يرفضَ لي أو لأي عنصر أمن عسكري آخر أيّ طلب؛ كانت جميعُ سيَّارات وسائقي الدوائر الحكومية تُوضَع تحت تَصرُّفي وفي خدمتي. وفي كلِّ يوم، كان الكثيرُ من الموظَّفين في هذه الدوائر وبالأخصّ الفاسدين منهم يعرضون تقديمَ جميع المغريات التي يستطيعون تقديمَها إليَّ، وهذا كان يشمل كلَّ شيء؛ كانوا يحاولون دائمًا أن يقدِّموا لي الهدايا والرشاوى والولائم والدعوات إلى المنازل والمطاعم الفخمة، حتَّى الفتيات كان يجري تقديمُها وعرضها عليَّ. ولكن، كان للتربية الجيدة التي حصلتُ عليها في عائلتي سابقًا والخلفية الدينية والأخلاقية التي كنت أملكها الأثرُ الأكبر في استطاعتي الانتصار على نفسي

ورغباتي، وعدم قبولي لهذه المغريات المتعدِّدة. وكلما كنت أزداد رفضًا لهذه العروض والمغريات أكثر وأصرُّ على هذا، كان يحدث أمران مهمَّان:

- الأوَّل كان ازدياد كره ونقمة الفاسدين الكُثُر عليَّ، والذين كانوا مقرَّبين من موظفي الأمن الذين كانوا قبلي، وزيادة رغبتهم بالتخلُّص مني والتآمر علي أكثر.

- الثاني كانَ انتشارُ اسمي وسمعتي وصيتي وما أفعله سرًّا بين الشرفاء والمظلومين في حَماة، حتى أصبح أغلبُ أهل مدينة حَماة قد سمعوا وعلموا بوجودي في فرع مخابرات حماة، واشتهرت وانتشرت قصَّتي بينهم.

وقد تطلَّب الأمرُ مني عدَّةَ سنوات في بداية عملي الميداني في حَماة، حتى تمكَّنت شيئًا فشيئًا من بناء وترسيخ ثقة متبادلة مع نماذج من البشر تعاكس تمامًا النماذجَ التي كان غيري من عناصر الأمن يعتمد عليهم، ويتعاون معهم للحصول على المعلومات، واستطعتُ - بفضل الله ثم صدقي مع الناس - بناءَ شبكة كبيرة من الأصدقاء والمعارف في حَماة، سواءٌ أكانوا مدنيين عاديين ممَّن

يعملون في التجارة والمهن اليدوية أو من مدراء الدوائر والمهندسين والموظَّفين في الدوائر والمعامل الحكومية.

وبما أنَّ تيَّارَ الفساد في جهاز الأمن كان جارفًا، فقد احتجتُ إلى توفُّر أمرين حتى أستطيعَ مقاومة هذا التيار: أوَّلهما صناعة تيَّار صغير معاكس خاص بي، وهذا ما حدث من خلال تجاوب وتعاون الكثير من المواطنين والموظفين الحمويين الشرفاء معي؛ والثاني تأمين الدعم والحماية لي من الحرب التي بدأت ضدِّي وبشراسة من قِبَل جميع ضبَّاط وعناصر الأمن الآخرين عندما بدأوا يلاحظون بعدَ سنوات أنَّني خالفتُ وعاكست شبكات وحلقات الفساد التي كانوا هم منغمسين فيها منذ سنوات؛ وكانوا يسخِّرون من أجلها جميعَ جهودهم؛ وقد فوجئتُ أنَّ الحمايةَ توفَّرت لي وبشكلٍ قوي ومستمرّ وطوالَ سنوات طويلة من حيث لم أتوقَّع؛ فكيف جرى هذا؟

كانت جميعُ أجهزة الدولة في عصر الأسد، ومن بينها أجهزةُ الأمن والمخابرات، تشهد دائمًا صراعًا سرِّيًّا أو علنيًا أحيانًا بين الضباط والمسؤولين على كل شيء، صراعات على التقرُّب من

القيادات الأعلى، وصراعات على السلطة والنفوذ، وصراعات على السرقات والرشاوى والمكاسب الأخرى التي يمكن الحصولُ عليها.

كان فرعُ الأمن العسكري في حَماة كغيره تشتعل فيه هذه الصراعاتُ دائمًا، وخاصة بين الضباط القادة؛ وكان الصراعُ الرئيسي والأكبر الموجود في فرع حَماة في السنوات الأولى التي بدأتُ فيها عملي هناك هو الذي كان يجري بين العميد أحمد حلُّوم رئيس الفرع من جهة، وبين العقيد محمَّد الشعار نائب رئيس الفَرْع ورئيس قسم المعلومات الذي أعملُ فيه من جهةٍ أخرى. وكان بقيةُ الضباط القادة في الفرع يميلون في كلِّ مرة إلى جانب أحد هذين المذكورين حسبما تقتضي مصالحهم ومطامعهم الشخصية. ومنذ الأشهر الأولى لي في هذا الفرع، وبعدَ أن علمتُ بهذا الصراع، قرَّرتُ أن يكونَ التحريض على المزيد من هذه الصراعات ورمي الفتن بين جميع المجرمين الذين يحيطون بي في هذا العمل من أهمِّ مهامي التي يجب أن أسعى إلى تنفيذها دائمًا؛ ولم يقتصر تنفيذي لهذا الأمر فيما بعد على الضباط أو على فرع الأمن العسكري فقط، بل استطعتُ أن أسهمَ طوالَ عملي هناك في توسيع دائرة الخلافات

حتى بين ضباط فرعنا وضباط الأفرع الامنية الأخرى، حتى أنَّني نجحت والحمد لله بطرد ضباط مجرمين وتخليص الناس في حَماة من شرورهم، وكان أعلاهم رتبةً عميدٌ في جهاز أمن الدولة يدعى علي يونس، كان يشغل منصبَ رئيس فرع أمن الدولة بحماة؛ وقد كانت تقاريري ضدَّه ومتابعتي له ومراقبتي له وتحريضي لرئيس فرع الأمن العسكري عليه سببًا في نقله من حَماة بعد أن كان قد أنهك الناسَ في المدينة المذكورة بأذاه وابتزازه لهم؛ فما علاقةُ هذه الصراعات بي وبحمايتي!؟

بعدَ فترة، وبعد أن بدأتُ بإمطار الفرع بالتقارير والمواضيع الأمنية عن الفساد الذي كنت أجده في كلِّ مكان وفي كل مكتب تقريبًا من قطاع الدوائر والمعامل التي كنت مسؤولًا أمنيًا عنها (فالرشوى والاختلاس والسرقات والمحسوبيات كان التعاملُ بها يوميًا في القطاعات الحكومية)، وكان غيري من عناصر وضباط الأمن يتغاضى عنها دائمًا بعد أن يقبضَ أثمانها، بدأتُ بإثارة هذه المواضيع وعدم قبول أيّ ثمن لسكوتي.

كنت أتوقَّع وجميع من علم بما أفعله أنَّ أمري لن يطولَ في هذا

العمل قبل أن يجري التخلُّصُ مني، بنقلي من عملي إلى أيّ عمل آخر أو ربما بطريقة أسوأ من ذلك. ولكن، شاء اللّه - سبحانه وتعالى - أن تكونَ الصراعات التي شرحتها لكم سببًا جعل العقيدَ محمد رئيس قسمي يسعد جدًّا بهذه المواضيع التي قمت بإثارتها وتحريكها، ليس حبًّا منه بالعمل ولا حبًّا بشخصي، وليس أيضًا رغبة بمحاسبة الفاسدين والمفسدين الذين كنت أوجِّه تقاريري الأمنية ضدَّهم، ولكنَّه علم بخبثه ودهائه وخبرته أنَّ ما أفعلُه سيخدم مصالَحه من عدَّة جوانب: أولها أنَّ كثافةَ عملي في متابعة الفساد وما أحاط هذا العملُ من شهرة وصيت انتشر بين الناس سيقوِّي من وضعه وشهرته وسلطته ونفوذه كضابط أمن، سواءٌ بين القيادات الأمنية أم بين المدنيين، لأنَّه هو رئيس قسمي، ويقوم دائمًا بإرسال المواضيع المهمَّة جدًّا التي كنت أكتشفها إلى العاصمة باسمه هو، وكان يوجد بينها أحيانًا مواضيع عن اختلاسات من أموال الدولة تبلغ عشرات الملايين في ذلك الزمن ، وهذا كان يساعده على تحسين صورته أمام القيادات العليا وعلى التغطية والتمويه على المواضيع الأخرى التي يكون قد قبضَ مبالغ كبيرة

على السكوت والتعامي عنها؛ أمَّا ثانيًا، فإن ضغطي على الفاسدين وملاحقتي لهم كانت تجعلهم يلجأون للمسؤولين والضباط الذين كانوا يشاركونهم ويدعمونهم في أعمالهم هذه، ويرجونهم للتوسُّط مع العقيد محمد من أجل إيقاف ما أرفعُه من تقارير وإخفائها بأي ثمن، وهذا كان أيضًا من مصلحة العقيد محمد، لأنه يوسِّع دائرة معارفه ونفوذه. وثالثُ هذه المنافع التي كانت تحصل للعقيد محمد من عملي هي المبالغ النقدية والهدايا الثمينة التي كان طبعًا وبالتأكيد يتلقَّاها من الكثيرين للتغطية على أعمالهم القذرة التي كشفتُها من خلال عملي، وأحضرت الأدلةَ والوثائق الدالة عليها للفرع.

ومن أجل الحفاظ على جميع هذه المصالح التي فهمتُها وتأكَّدت منها فيما بعد تدريجيًا، عندما ازدادت خبرتي، قام العقيد محمد بوضع كامل ثقله ونفوذه لجعلي استمرُّ بما أفعل، وهذا ما فاجأني في البداية، ثم فهمتُ أسبابَه مع مرور الزمن. ورغم معرفتي بهذا المصير الذي ستصير إليه مواضيعي وجهودي، وبأنَّ الفسادَ الذي كنت أقوم بكشفه لن تجريَ معالجتُه غالبًا، إلَّا أنني لم أكن أبدًا

أملك أيّ خيار آخر ضمن إمكانياتي المحدودة في هذا الجهاز الأمني، لأنَّ توجُّهي في عملي الأمني ومواضيعي ضد الفاسدين والمختلسين واللصوص كان أفضلَ من اضطراري - لا سمح الله - من الاتجاه لأذى الناس كما يفعل غيري، حتى لو كان هؤلاء الفاسدون لا تجري محاسبتُهم قانونيًا في أغلب الأحيان. ولكن، على الأقل، هذا كان يظهرني أمامَ بقية ضباط فرع المخابرات كعنصر مخابرات منتج، وهو ما كان يبرِّر أمامَهم أيضًا الفائدةَ من وجودي في هذا الفرع، والأهمّ من هذا جميعه كان يوفِّر لي غطاءً جيِّدًا على الأعمال الحقيقية التي كنتُ أعملها في الخفاء.

وخلال السنوات الطويلة التي قضيتُها في عملي بفرع الأمن العسكري بحماة، تعرَّضتُ لعشرات المحاولات لإيذائي والتخلُّص مني من قِبَل الضباط والعناصر والأفراد النصيريين في الفرع؛ وكانت هذه المحاولاتُ ضدي تتكرر دوريًا كل فترة من الزمن؛ وفي كل مرة، كانوا يحاولون توجيهَ تهم أكبر وأخطر ضدِّي، ومترافقة مع شهادات من المدنيين اللصوص والفاسدين الذين هم أيضًا يهمُّهم بشدة التخلُّص مني. ولكن، بسبب سمعتي المعروفة

والمشهورة بين الجميع بنزاهة اليد بفضل اللّه، والتي لا يستطيع أحدٌ منهم إنكارَها، فلم تكن التهم التي يحاولون اتهامي بها تتعلَّق بالأمور المالية والاقتصادية التي أعمل بها أنا، بل كانوا يحاولون اتهامي مرةً باضطهاد الأقليات الدينية ومرة بالسخرية من الأديان الأخرى، ومرة باضطهاد الموظفين والقسوة في التعامل معهم. وفي كل مرة، كان العقيد محمد الشعار يقوم بإيقاف الإجراءات ضدِّي ثم إخباري بالأمر، وهكذا سخر اللّه - عزَّ وجلَّ - لي هذا الرجل لحمايتي من حيث لا أحتسب؛ فله الحمد والشكر دائمًا وأبدًا.

كانت الأيامُ والسنين تمرُّ عليَّ في هذا العمل؛ ورغم أنَّ كرهي لأعدائي من نظام الأسد ونفوري منهم كان يزيد يومًا بعدَ يوم وعامًا بعد عام كلَّما عرفتهم واحتككتُ بهم أكثر، إلَّا أنَّني كنت مسرورًا ومرتاحًا لما كنت قد أنجزتُه حتى الآن، ولا زلت أنجزه، من الأهداف والأعمال التي تحمَّلت كل هذه الجهود وأنفقت جميعَ هذه السنوات من أجلها. وكنتُ أحتفظ دائمًا بنسخ مختصرة عن أيِّ موضوع أمني مهم أعمل به، وخاصة إن كان فيه معلومات يمكن أن تفيدَ مستقبلًا في إدانة نظام الأسد أو أيِّ أحد من كبار ضباطه

في جرائمهم ضدَّ الشعب السوري إن جرت محاسبتُه يومًا ما. وكنت أكتبُ هذه المعلومات على مفكِّرات وأوراق بحجة أنها مسودَّة سيجري إتلافُها فيما بعد لتقاريري الأمنية، ولكنني في الحقيقة كنتُ أنقله دائمًا إلى مخبأ سرِّي آمن في منزلي بحمص.

ومن الأعمال التي نجحت بتنفيذها أيضًا، والتي أرجو من الله أن يتقبَّلَها مني نجاحي كلَّ فترة من الزمان في إنقاذ أرواح وحياة أعداد من الرجال والنساء المظلومين الذين كانوا سيجري اعتقالهم لمجرد كلمات انتقاد تلفَّظوا بها عن نظام الاسد، أو عن أحد مسؤوليه، أو بسبب قيام أحدهم بأداء بعض الصلوات والعبادات فيتهمونه ظلمًا بتعاطفه مع الإخوان المسلمين، وغيرها من التهم السخيفة التي كانت كافيةً في سوريا في ظل حكم نظام الأسد لاعتقال وإهلاك الناس بلا حسيب ولا رقيب. وكنتُ أتمكَّن من ذلك أحيانًا بإخفاء التقارير المقدمة ضدَّهم حين وقوعها في يدي لفترات حتى أتأكد تمامًا أنها نُسِيت، ثم أقوم بإتلافها بعدَ ذلك، وأحيانا كنتُ أقوم بتبرئتهم من التهم إن كنتُ المكلَّف بالتحقيق والتدقيق معهم. وفي مرات أخرى كثيرة، كنت أمتنع نهائيًا عن إيصال هذا النوع من

التقارير إلى الفرع، أو عن إبلاغ أيّ أحد بهذه التقارير التي كان يقوم بعضُ المخبرين من النوع القذر بتسليمها لي.

وعندما كنتُ أعلم بعملية اعتقال ستَجْري لأحد الأشخاص، بسبب هذه التهم الباطلة أو عملية مراقبة شخصية أو هاتفية تجري لأحد تمهيدًا لإلقاء القبض عليه فيما بعد، أحاول تسريبَ الخبر إلى الشخص المعني أو إلى أحد من أقاربه أو معارفه بشكلٍ غير مباشر، من خلال طرق تختلف في كل حالة حسب الظروف حتى يتمكَّنَ من أخذ حذرِه والهرب قبلَ وقوعه في أيدي فرع الأمن. وكنتُ في أثناء عملي بين موظّفي وعمّال المعامل والشركات أحاول دائمًا مساعدةَ المضطهدين والمستضعفين والملتزمين دينيًا، وفي المقابل عرقلة أمور المدعومين من قِبل النظام وأعوانه والذين هم يكونون من حثالة الناس وأشرارهم عادة.

وقد أصبحت سيرتي وأفعالي هذه معروفةً عند الطرفين في قطاع عملي وفي مدينة حَماة عامة، وكانت محاولاتُ إغرائي بالمال من قبل المتضرِّرين تتكرَّر أكثر أكثر، وفي كل مرة يجري رفعُ الرقم المعروض علي أكثر. وأذكر أنَّ المديرَ العام لشركة إسمنت حَماة،

وهي شركة مؤلفة من عدة معامل، كنت مسؤولًا أمنيًّا عنها لفترة طويلة وقتها، قال لي في مرة كنا نتحدَّث فيها:

أنت أتعبتَ الجميعَ معك يا "أبو عمر"، فقلت له: لماذا!؟

أجابني: لأنَّ جميعَ من عرفناهم من ضباط ورجالات الأمن والمخابرات كنا نستطيع أن نعرفَ ونحدِّد ما هو وكم هو ثمنهم بعدَ فترة؛ أمَّا أنت، فرغم تعدُّد وتنوع العروض المادية والمعنوية وضخامتها ورغم مرور السنين، لم يستطع أحدٌ أن يجدَ لك ثمنًا!

وكانت هذه شهادةً سمعتها بفضل الله منه ومن غيره في أوقات متعدِّدة خلال السنين التي قضيتها من عمري في حَماة، وكانت تؤكِّد لي أنني ما زلت على الطريق الصحيح.

وأما ضمنَ مقرِّ الفرع، وفي أثناء الأوقات التي كنتُ أقضيها فيه بين العناصر، فقد نجحتُ في زرع الفوضى بينهم والتقاعس عن العمل، وكنت أشجِّعهم دائمًا على الهروب في أثناء المهام والدوريات ونوبات الحراسة. وكان زميلي المسلم السنِّي الوحيد في الفرع هيثم الذي ذكرتُه سابقًا يلاحظ هذه الأمورَ والتصرُّفات مني، كوني كنت بعدَ مرور السنوات قد وثقت به وكنا متلازمين دائمًا؛ وكان

يلاحظني دون أن يعرفَ طبعًا أسبابي الحقيقية؛ وكان يظن أنها فقط بسبب مشاعر الكراهية التي نكنها جميعًا كأغلبية سنِّية لهؤلاء السفلة أعدائنا وأعداء الوطن، ونتيجة لما ارتكبوه من فظائع بحقِّ الشعب السوري.

لقد كان من أهمِّ ما نجحت في فعله، في مجال التحريض على التقاعس عن العمل، هو قضية صلاة وخطبة الجمعة، حيث كانت جميعُ فروع الأمن والمخابرات بمختلف أنواعها في سوريا تقوم بمراقبة المساجد والصلوات الجماعية والمصلِّين بشكلٍ دائم، كما شرحتُ في السابق؛ وبما أنَّ صلاةَ يوم الجمعة، وكما يعلم أغلب الناس، هي الصلاة الإسلامية الجماعية الأهم في كل أسبوع، ويحضرها عادة عددٌ من المصلين أكبر من العدد الذي يحضر أيّ صلاة أخرى، وهي تُقام أسبوعيًا طبعًا في جميع مساجد سوريا من دون استثناء، من أجل ذلك كانت جميعُ فروع أجهزة المخابرات السورية – وبينها فرع الأمن العسكري بحماة – تقوم بإرسال عنصر من كلِّ فرع لكل مسجد في أنحاء سوريا. ومهمةُ هذا العنصر أن يراقبَ المصلين والشيخ الإمام، وأن يتجسَّسَ على أفعالهم وأقوالهم

حتى ينقلها إلى الفرع الذي يعمل فيه فيما بعد ويدوِّنها في تقرير خطي. وبما أن نظامَ الأسد ومنذ سيطرته على سوريا، كانَ قد صنعَ قانونًا أمنيًا جديدًا ضمن سلسلة القوانين القمعية الكثيرة التي قام بسنِّها، وهو إجبار جميع خطباء المساجد في سوريا على قراءة خطب موحَّدة يقوم النظام بكتابتها وتجهيزها لهم في الجهات الأمنية، ثم تُوزَّع على أولئك الخطباء، ويكون مضمونها بشكلٍ دائم تقريبًا عن تمجيد وتعظيم الأسد وحكمه وحزبه وسياساته وكلِّ أفعاله. وبذلك، كان النظامُ يقوم بتحويل خطب الجمعة من خطب دينية إلى خطب سياسية سخيفة تحت الضغط والتهديد.

وبسبب هذا، كانت إحدى المهام الرئيسية التي كُنَّا نُكلَّف بها جميعًا كعناصر أمن، عند تنفيذنا لمهمة مراقبة صلوات الجمعة، أن ندقِّقَ في التزام الشيخ الخطيب بالخطبة الإجبارية التي أعطيت له وأنَّه لم يخرج عن موضوعها، أو يضيف إليها أيّ موضوع آخر، مع الانتباه إليه إن قام بإنقاص ذكر أيّ عبارة تمدح وتمجِّد المجرم حافظ الأسد. وفي حال قام خطيب المسجد بأي مخالفة من التي ذكرتُها، فإنَّ العنصرَ الأمني المكلَّف بالمراقبة يقوم فورًا بإبلاغ

الفرع الذي يعمل لصالحه، ليجريَ استدعاء هذا الشيخ الخطيب إلى جولة من الإهانات والتهديدات في الفرع تزداد وتنقص شدَّتُها ونتائجها على الشيخ حسب مقدار المخالفة التي قام بها، ومقدار إجرام جلادي الفرع الذين يعملون على موضوعه. وقد كان هذا الموضوعُ برمته يشكِّل في نفسي دائمًا، عبر السنين، معاناةً نفسيَّة شديدة وانزعاجًا دائمًا، وذلك عندما كنت أرى مشايخ حَماة ورجال الدين المحترمين وذوي القدر المحترم بين الناس - والذين أغلبهم من كبار السن أيضًا - يتعرَّضون للإذلال والإهانات من قِبل حثالة الناس في الفرع الذي أعمل به بسبب كلماتٍ بسيطة كانوا قد أضافوها أو أنقصوها في خطبتهم في المسجد. وبسبب هذا، فقد عملتُ بجهدٍ كبير وخلال سنواتِ عملي على تحريض عناصر فرع الأمن العسكري بحماة دائمًا على الهروب والتقاعس عن تنفيذ مهمَّة مراقبة خطبة الجمعة؛ وكنت أقنعهم بأنها مهمَّةٌ سخيفة، وأنَّه لا يوجد أيّ خطيب يجرؤ على مخالفة التعليمات؛ وأرفق هذا الإقناعَ دائمًا بتوجيه الدعوات المختلفة لهم في كل يوم جمعة لمجموعةٍ جديدة مختلفة من عناصر الفَرْع لولائم طعام

على نفقتي الخاصة، أو لحضور أفلام في دور السينما، أو للقيام بنزهة في إحدى الحدائق، وذلك لمعرفتي بمقدار طمعهم وحبِّهم وحماستهم لأي مكسب من أيّ نوع، وبغيةَ إشغالهم عن مهمة يوم الجمعة وتعويدهم على إهمالها. وقد نجحتُ - بفضل اللّه وبعد جهود استمرَّت سنوات طويلة على هذا الموضوع - في تغيير الأمور تمامًا في فرع الأمن العسكري بحماة؛ فبعدَ أن كان جميعُ العناصر في هذا الفرع يلتزمون بالكامل بمهمة مراقبة المساجد في يوم الجمعة، أصبح العكسُ هو الصحيح، ووصلت الحالةُ في السنوات الأخيرة التي قضيتها فيه إلى أنَّ عددًا قليلًا جدًّا فقط من العناصر كان لا زال يلتزم بتنفيذ هذه المهمة، وكان هذا سببًا لتخفيف الأذى بعضَ الشيء عن الناس في مدينة حَماة، وربما لإنقاذ بعض الأرواح بفضل اللّه تعالى وتوفيقه.

وأخيرًا مات الطاغية ....
ولكن بعدَ أن كان قد قتلَ معظمَ الشعب!!!!!

في الأشهر الأولى من عام /٢٠٠٠/، وكان قد مضى على دوامي المستمرّ في العمل بفرع الأمن العسكري في حَماة ستُّ سنوات، وفي أثناء أحد الاجتماعات بيننا نحن عناصر قسم المعلومات وبين العقيد محمد الشعار رئيس القسم، فوجئت به يبلِّغني ويعلن أمامَ جميع الموجودين أنه وبسبب غزارة التقارير الأمنية الاقتصادية التي قدَّمتها للفرع طوالَ فترة عملي فيه، وبسبب أهمية المواضيع التي تحتوي عليها جميعُ هذه التقارير، والتي كشفتُها، فقد جرى منحي وسام تقدير من المجرم الأكبر في سوريا الرئيس حافظ الأسد، وهو كان أعلى وسام يمنح عادةً لعناصر الأمن. وقد جرى تبليغُ فرع حَماة بهذا بشكل رسمي وتسجيله في الملفِّ الرسمي

الخاص بي، وكانت مفاجأةً مذهلة فعلًا بالنسبة لي؛ فمنذ أول لحظة دخلتُ فيها هذا المجالَ، وبدأتُ العمل في مخابرات النظام الأسدي، كنت أتوقَّع في أيّ لحظة اعتقالي فجأةً أو اغتيالي نتيجة أنهم اكتشفوا خلفيتي السياسية المعادية لهم، أو ما كنتُ أخطِّط له ضدهم سابقًا، أو بسبب اكتشافهم لما خرَّبت وسرَّبت من معلوماتٍ وبيانات أمنية، أو حتى للتخلص من إزعاجاتي الدائمة للضباط في الفرع بسبب كشفي الغطاءَ عن شركائهم وعملائهم ومخبريهم الفاسدين واللصوص والمرتشين. ولكنَّني لم أتوقَّع أن يأتيني أيّ تكريم، وبخاصة أنَّه لم يكن يخطر على بالي أبدًا أن يأتي التكريم باسم المجرم الأكبر وألد أعدائي وأعداء قومي ووطني؛ فقد بدا لي أمرًا فكاهيًا أن يشكرونني على ما لو علموا حقيقتَه وحقيقتي لأعدموني فورًا.

ولكن، بعدَ زوال أثر المفاجأةِ عنِّي، كنتُ في الحقيقة مسرورًا جدًّا وفخورًا بنفسي، ليس بسبب تكريم هذا الشَّيْطان البشري حافظ الأسد ورجاله المجرمين القذرين هؤلاء لي، فتكريمُ أمثال هؤلاء جميعهم لأي شخص حسب مبادئي وما تربَّيت عليه وتعلَّمته

من أخلاق ودين تكون أمرًا مذمومًا وشهادة إجرام عادة، ولكنَّ سروري وفخري كان بسبب اكتشافي كم وفَّقني الله بالنجاح في اختراق وخداع هؤلاء الحمقى التافهين وفي التلاعب بهم، وتأكَّدت في نفسي أن طائفةَ الأسد – ورغم كل ما فعلوه خلال سنوات طويلة من تدريب رجالهم وتسليحهم وجعلهم يسيطرون على مراكز القوَّة في سوريا – هم ما زالوا ضعفاء أغبياء، وأنَّ العدوَ الحقيقي الذي هزم وظلم قومي المسلمين السنَّة في سوريا كان هو خوفهم وفرقتهم وضعفهم. أمَّا ما فعله هؤلاء الجبناء كان فقط أنَّهم استغلُّوا هذا الوضعَ وغدروا بنا؛ ومما أضحكني وزاد سروري وقتها أيضًا هو رؤيتي لتعابير السخط والغضب والحسد التي ظهرت على وجوه جميع العناصر النُّصيريين الذين حضروا الاجتماعَ، بعد أن سمعوا خبرَ تكريمي وهمساتهم الحاقدة التي استمرَّت تدور بينهم فترةً بعدَ انتهاء الاجتماع.

وفي يوم حارٍّ من أيامِ الصيف في الشهر السادس حزيران من العام /٢٠٠٠/ ذاته، وبينما كنتُ جالسًا في منزل أهلي بحمص أتابع الأخبارَ العالمية باللغة الإنكليزية على إحدى المحطات الغربية،

قُطِع البثُّ فجأةً، ونقلوًا خبرًا عاجلًا باللون الأحمر؛ ولكنني عندما قرأتُ الخبر لم أصدق عيناي وظننت أنَّ لغتي الإنكليزية ربما خانتني وجعلتني أترجم وأفهم بشكلٍ خاطئ، كان الخبرُ يتحدَّث عن موت طاغية سوريا حافظ الأسد!!!!!

وعندها، وبسرعة، غيَّرتُ المحطَّةَ إلى المحطَّات السورية، فوجدتهم مستمرِّين ببرامج عادية فزادت دهشتي، ما هذا!؟ هل هو خطأ!؟ ولكنَّ هذه المحطة الغربية هي وكالة أنباء عالمية معروفة ومشهورة عالميًا بصحَّة ودقة أخبارها، وهي كانت لا تزال تؤكِّد الخبر وتتحدَّث عن تاريخ وجرائم الميت. ولكن، بعدَ الانتظار نحو نصف ساعة كنت خلالها مستمرًّا بالتقليب بين المحطات العربية، وفجأة أوقفت المحطاتُ السورية بثَّها للبرامج العادية، وبدأت تضع موسيقى كلاسيكية حزينة ثم بعدها انتقلت إلى بث تلاوة آيات من القرآن الكريم. لقد أصبح الأمر واضحًا جدًّا، الخبرُ إذن صحيح، ولكنهم يؤخِّرون إعلانه. وفي هذه اللحظة، لا أظن أن هناك وصفًا كافيًا لخليط المشاعر التي شعرت بها، يا الله يا الله أخيرًا ... مات المجرم؟ مات الظالم؟ مات رأس وزعيم الطغاة!؟ مات من أمر بقتل

وتقطيع وتشريد واغتصاب شعبي وقومي وبلادي!؟

منذ وعيتُ على الدنيا، ونتيجة ما كنت أراه من حزنٍ وقهر على وجوه أغلب الناس حولي، لم أكن أفوِّت أيّ صلاة للّه قمت بها إلا وكنتُ أدعو وأسأل اللّه وأرجوه أن يخلِّصَ الناس من هذا الشيطان البشري، وخاصة بعدَ أن أصبحت موظفًا معهم في النظام، وبتُّ أرى من الداخل مقدارَ الشر الذي يوجد فيه.

كنت أنتظر هذه اللحظةَ وأحلم بها طوالَ عمري، كنت أظن أنَّ الناسَ وبالأخص غالبية الشعب من المسلمين السنَّة ستقوم الآن - وبعد أن ماتَ رأس الأفعى - بالانتفاض، وأنه ستحدث ثورة في جميع أنحاء سوريا بغيةَ استعادة الشعب لحريته وحقِّه الطبيعي المنطقي في حكم بلادهم، وللتخلُّص من هذه الطائفة الأسدية القذرة ومحاسبتهم ثم معاقبتهم على ما فعلوه لملايين الناس من أذى واضطهاد وقمع، كان المنطقُ يقول هذا؛ إنَّ هذه هي اللحظة المناسبة لإحقاق الحق.

وطبعًا، خلال ساعات من هذا الحدث، جرى استدعائي فورًا وجميع ضبَّاط وعناصر الأمن والمخابرات في سوريا للالتحاق

بمقرات أعمالنا، وأُعلنَت حالةُ استنفار أمني قصوى. وبينما كانت المحطاتُ السورية تنقل تصويرًا لجنازة الطاغية، كنت أنا وخلال الدوريات الأمنية التي جعلونا نقوم بها وفي أثناء تجوُّلنا بين الناس في حماة، أقول في نفسي وأنا أنظر للأطفال الحمويين في الشوارع، لقد حان وقتُ القصاص العادل، حان وقتُ أخذ الثأر ممَّن ذبح وسحل آباءَكم وعائلاتِكم، ومحاسبة من فعل هذا بهم. كنت أتوقَّع خلال هذا الوقت وفي أيّ لحظة وأنتظر سماعَ خبر الهبَّة الشعبية التي توقعتها من شعبنا؛ ولكن، ما حدث بعدَ ذلك كان بالنسبة لي مذهلًا أكثر، وأراني حقيقةً جديدة لم أكن أتوقَّعها أبدًا، حيث وبكل سخافة وسهولة - ورغم أنني كنتُ أسمع بأذني همسات الشتم والسب والدعاء واللعن وتمنّي الجحيم كمصير للمقبور حافظ الأسد بين الناس في كل مكان بعدَ تأكدهم من خبر موته (باستثناء أفراد طائفته النصيرية طبعًا، والذين كانوا مَذْهولين مرعوبين يبكون بحرقة، ويظهر في وجوههم وأفعالهم أنهم كانوا يتوقَّعون كما توقعَت أنا أنَّ نهايتهم بعد موت حافظ الأسد زعيمهم الدموي ستحل الآن في أيّ لحظة)، برغم جميع هذا جرى إحضارُ أكبر من تبقَّى

من أولاد الشيطان الميت، وهو المدعوّ بشار الأسد الذي كانت ملامحُ البلاهة والغباء تظهر على ملامحه دائمًا، وجرى بكلِّ وقاحة تغيير جميع القوانين السورية ومحتوى دستور البلاد خلال دقائق، كأنها مسرحية فكاهية سوداء، وجُعِل خلفًا لوالده الطاغية، وكأنه عرفان ومكافأة لما فعله المقبور من جرائم يندى لها جبين الإنسانية.

ورغم كل شيء، جرى إعلانُ استمرار حكم الطائفة الإجرامية، أمَّا الشعبُ المقهور المظلوم المضطهد فقد شاهد وسمع وصفَّق للطاغية الجديد، مع أنَّ دماءَ عشرات الألوف من أبنائه الذين ذبحهم أولائك المجرمون لم تكن قد جفَّت بعد؛ وما زال عشراتُ الألوف غيرهم ينزفون في أقبية المعتقلات المظلمة التي قذفهم فيها والدُ هذا المجرم الجديد، وأدركت وقتَها بكلِّ حزن وتأكَّدت بكل أسى أنني كنت وما زلت سأستمرُّ وحيدًا فيما فعلت وفيما أنا ذاهب إليه، وأنَّ الطاغيةَ اللعين قبل أن يموت كان للأسف قد نجح في قتل كلِّ شيء في نفوس الشعب!!

ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

السَّنوات الصعبة

بعدَ تسلُّمِ المجرم الجديد بشار الأسد للحكم ولقيادة النظام القمعي في سوريا، ورغم الشائعات التي تعمَّدت جميعُ أجهزة الأمن والمخابرات الأسديَّة أن تنشرَها وتبرزها أمامَ الرأي العام العالمي والعربي والداخلي والتي تدور حولَ الأحلام الوردية بأنَّ الرئيسَ الجديد سيخفف شيئًا فشيئًا من نهج القمع والاضطهاد والديكتاتورية الذي أنشأه وسار عليه وثبَّته والدُه في سوريا، إلَّا أنَّني كان لدي يقين داخلي - ربما سببه معرفتي أكثر من غيري بكثير لبواطن الأمور ولطريقة تفكير هذه الطائفة النصيرية الحاكمة وقياداتها - بأنَّ الأمورَ من شبه المستحيل أن تتبدَّل ما دام أنَّ النظامَ بأكمله وأجهزته لا يزالان موجودين؛ وهذا ما كنتُ أصرِّح به دائمًا لمن كان يسألني من أصدقائي وقومي في مدينتي حمص

وحماة عن توقُّعاتي عن مستقبل سوريا في عهد بشار، كوني مختصًّا بالعمل الأمني والسياسي.

والجميعُ حَوْلي علمَ وقتها، ومنذ بداية تسلُّمه الحكمَ بلا وجه حق في سوريا، أنَّني لست متفائلًا أبدًا بمستقبل أفضل في عهده، وكنت أختصر رأيي لمن يسأل في عبارة: ما نبتَ من سُحت فالنارُ أولى به، وما بُنِيَ على باطل فهو باطل، وخاصَّة أنني كنت أرى وأسمع كلَّ يوم في أثناء استمرار عملي في فرع الأمن العسكري بحماة التعليقات الساخرة والمستهزئة التي كان يطلقها ويتحدَّث بها ضباط وقيادات الفرع ممَّا ينتشر بين المواطنين من إشاعات وأخبار مزعومة عن التغييرات القادمة نحوَ الأفضل في سوريا؛ وكان الاطمئنانُ والثقة والهدوء اظاهرةً جميعها على وجوه مجرمي المخابرات الصغار والكبار منهم؛ وكلُ ذلك كان لا يبشِّر بخير قادم أبدًا. وفعلًا، وخلال السنوات التي تلت استلام بشار للحكم، لم يتغيَّر أيّ شئ تقريبًا في طبيعة عملي أو عمل فرع الأمن العسكري بحماة بشكل عام، بل أُضيفَت في عهد المجرم الصغير جماعات جديدة إضافية أيضًا من المواطنين الأبرياء الذين بدأت أجهزةُ الأمن والمخابرات السورية

بمراقبتهم ومتابعتهم والتضييق عليهم، ثمَّ اعتقالهم مثل جماعات حقوق الإنسان وجماعة إعلان دمشق والتجمُّع الوطني الديمقراطي وغيرها من الجماعات والتجمعات السياسية الجديدة الصغيرة التي ظنت واهمة أن الوضع في سوريا قد تغير، وبالنسبة إلي فقد بقيت مستمرا في اعمالي السرية والعلنية المعتادة برغم اليأس والإحباط اللذان تملكاني بعد رؤيتي لانعدام ردود الفعل وانعدام المقاومة لدى الشعب السوري وهو يرى بلاده وحريته يقوم الأعداء المجرمين بتوريثها لبعضهم البعض.

وفي بداية العام /٢٠٠٣/، حدثَ ما غيَّر وضعي وحياتي بالكامل، حيث قام النظامُ السوري بإعادة توزيع ضباط وقيادات أجهزة الأمن السورية، وكان من نتيجة إعادة التوزيع أن جرى ترفيعُ العقيد محمد الشعَّار إلى رتبة عميد، ومن ثم نقله من فرع حَماة وتعيينه كرئيس لفرع الأمن العسكري في طرطوس. وقد توقَّع جميعُ عناصر الفرع وقتها أنَّني سأطلب نقلي معه كونهم توهَّموا خلال السنوات الماضية أنَّني كنت أعمل وأبذل الجهودَ من أجله؛ وقام هو باستدعائي إلى مكتبه قبلَ أن يرحل إلى عمله الجديد لظنه أيضًا

أنني سأطلب منه أن ينقلني معه؛ ولكنَّهم جميعًا كانوا لا يعلمون أنَّ ما بنيته من الثقة المتبادلة والتعاون على الخير مع عددٍ كبير من المثقفين الشرفاء في مدينة حَماة خلال سنوات، إضافة إلى شبكة العلاقات والمعلومات التي أصبحتُ أملكها وهي كانت تساعدني دائمًا على أن أتمكَّنَ من مساعدة الكثير من المواطنين الحمويين في مختلف المجالات، كلُّ هذا لن أقومَ بالتخلِّي عنه وأدعه بسهولة، لأنَّ حصولي على كل هذا كان نتيجةَ جهودي ومخاطرتي بحياتي المستمرة مدَّة عشر سنوات.

عندما علم العميدُ الشعَّار بعدم رغبتي بالذهاب معه إلى فرع طرطوس، قام بالتشديد على تحذيري من غدر وأذى ومؤامرات الضبَّاط والعناصر الآخرين، والتي قال إنَّه متأكِّد أنها ستتقصَّدني وتُوجَّه ضدي مستقبلًا؛ وأوصاني بالحذر الشديد من ذلك، وقد شكرته لهذا الاهتمام مستغربًا في نفسي من هذه البادرة من ضابط عُرِف بقسوته وأنانيته وعدم اهتمامه بأحد!!

وكان من بين التنقُّلاتِ التي حدثت في قيادات أجهزة الأمن أن جرى إحضارُ عقيدٍ جديد إلى فرع الأمن العسكري بحماة، وجرى

تسليمُه منصب رئيس الفرع، وهو العقيدُ المدعو محمد أحمد المفلح، وكان رجلًا يُفْتَرَض به أنه مُسْلِم من الأغلبية السنِّية، وتنحدر أصولُه من عشائر البدو المقيمة في قرية تُدعى /المحجَّة/، وهي إحدى قرى درعا؛ ولكنَّ أقوالَ هذا الضابط، ومنذ أوَّل كلمة سمعتُها منه في أول اجتماع أجراه مع العناصر ثمَّ أفعاله الإجرامية الكثيرة التي قام بها فيما بعد، أثبتت لي وللجميع أنه شيطانٌ بشري، وأنَّه مجرمٌ حقيقي يقدِّس مصلحتَه الشخصية ومطامعه فقط، وأنَّه لا يقيم وزنًا لأي دين أو أخلاق، وهو أكثر شرًّا حتى من طائفة الأسد.

ورغم أنَّ العقيدَ المفلِح كان، كما أكَّد جميعُ من كان يعرفه سابقًا أو عمل معه في فروع الأمن التي عملَ فيها، ضابطًا رخيصًا مهمَّشًا وذليلًا بلا صلاحيات؛ وكان بشهادة كثيرين أيضًا يتعرَّض للإهانات والشتائم اليومية من قِبل قياداته والضباط النصيريين الأعلى منه رتبة، إلَّا أنَّ إلحاحَه في التوسُّل والرجاء والتوسُّط مع أحد أهم الخونة الكبار للشعب والأغلبية السنية، والذين شاركوا في جرائم الأسدين الأب والابن المدعو فاروق الشرع الذي كانت تربطه بالعقيد مفلح قرابة، وكان يشغل وقتَها منصب نائب الرئيس

(وهو طبعًا منصبٌ وهمي فقط أمام الإعلام ولا صلاحيات حقيقية له مثل جميع المسؤولين السنَّة في نظامي الأسدين)، جعلاه أخيرًا يحصل على هذا المنصب كرئيس لفرع الأمن العسكري بحماة، والذي كان يمثِّل بالنسبة له غايةَ آماله وأقصى أحلامه. وكان ينوي الحفاظَ عليه بأي شكل ووسيلة حتى لو كانت هذه الوسيلةُ هي دماء وأرواح الأبرياء من بني دينه وقومه وطائفته ووطنه. وفعلًا، كان هذا ما فعله لاحقًا طوالَ عمله كرئيس لهذا الفرع، حيث بدا للجميع واضحًا منذ السنوات الأولى لترأسُّه لهذا الفرع أنَّ خطتَه في جميع أعماله وما قام به بتسخير فرع الأمن العسكري من أجله طوالَ عهده تتلخَّص في السعي للوصول إلى هدفين:

- الأوَّل: جمع الأموال بأيِّ طريقة مهما كانت قذرةً، مثل إنشاء الشراكات بينه وبين تجار المخدِّرات وتجار السلاح ومهربي البضائع والبشر والعاملين في الدعارة والبغاء وتجار الرقيق الأبيض، وحتى المختلسين والمرتشين واللصوص جميعهم أنشأ معهم صداقاتٍ وشراكات وعلاقات ودٍّ، تقوم على مبدأ تأمين المفلح لهم الحماية والغطاء القانوني والتغاضي الأمني عنهم وعن أفعالهم القذرة

مقابل مبالغ ومكتسبات كبيرة جدًّا يجري دفعُها من قِبلهم لهذا الساقط بشتى الطرق والأشكال. وبسبب هذه الاتفاقات وما نتج عنها، كانت السيَّارات المحملة بالهدايا الثمينة والأموال تصل وتُسلَّم للعقيد أحمد المفلح في مقرِّ الفرع وفي منزله كلَّ يوم، في الليل والنهار، طوالَ فترة وجوده في عمله بمدينة حَماة.

أمَّا الهدفُ الثاني فكان إرضاءَ القيادات الأمنية الأسدية عنه بأي طريقة مهما كانت قذرةً أو إجرامية، وإثبات ولائه المطلق للنظام الأسدي، ونفي أيّ شكوك قد تحدث في هذا الولاء نتيجة انتمائه بالاسم للاغلبية السنِّية من أجل أن يتمكَّنَ من المحافظة على وجوده ومكاسبه وعلى استمرار بقائه في منصبه كرئيس لفرع الأمن العسكري في حماة، وكانت الطريقةُ الأسهل والأسرع لتحقيق هذا الهدف، بالنسبة لشخص بلا ضمير مثل المفلح، هي تقديم قرابين بشرية من الضعفاء والشرفاء والمساكين وجميع من لا يرجو منهم هو أيّ مكاسب مادية - من مواطني مدينة حَماة - لمذبح النظام الأسدي، وبالأخص طبعًا من المسلمين السنَّة حتى يجري إرضاءُ طائفة الأسد جيِّدًا.

وخلال سنوات من تسلُّم المفلح لرئاسة الفرع، والذي كان قد أصبح برتبة عميد، كنت أرى الفرعَ يعج بالأبرياء والشرفاء المساكين الذين جرى جرُّهم من حَماة نتيجة التقارير القذرة التي كانت مافيات الفساد التي تتعامل معه يلفقونها لهؤلاء المساكين لإزاحتهم من طريق فسادهم ومصالحهم. وبعدَ أن كان أهل مدينة حماة طوالَ عقود مضت تحت ظلم واضطهاد النظام والطائفة الأسدية، أُضيفَ إلى بؤسهم في عهد العميد المفلح ظلم واضطهاد مافيات الفساد الاقتصادي المالي الجديدة.

وبعدَ فترة لم تكن بالطويلة، شعر عناصرُ فرع حَماة وضباطه ومعهم الفاسدون والمفسدون في مدينة حَماة والدوائر الحكومية، والذين كنتُ أحاربهم وأتحدَّاهم بشكل مستمر منذ أعوام طويلة وأقف دائمًا عثرةً في طريقهم، بأنَّ الوقتَ المناسب للانتقام مني وإزاحتي من طريقهم قد حان، وأنَّ ظهري أصبح مكشوفًا بعد زوال حماية العميد الشعار التي سخرها الله سبحانه لي طوالَ الفترة الماضية عني، وأنَّه أصبح من الممكن التخلُّص مني. وبالفعل، وفورًا، بدأوا يشكِّلون تحالفات ويعقدون اللقاءات والاجتماعات للاتفاق

على طريقة فعل ذلك؛ ثم - عندما لم يجدوا وبفضل اللّه أيّ تهمة أو شبهة مالية تدور حولي والتي تكون متوفِّرة عادة وتنطبق على أغلب ضباط وعناصر الأمن الآخرين، عندها توجَّهوا إلى تلفيق تهم لي بالتعصُّب الديني، وأنَّني أتقصَّد في عملي اضطهادَ المواطنين غير المسلمين من الطوائف الأخرى.

ولذلك، قاموا بإعداد ملفٍّ ضخم ضدي وزوَّدوه بشهادات كثيرة تقدَّم بها الموظفون الفاسدون الكثر الذين كنت قد سعيتُ خلال سنوات عملي السابقة إلى إيقاف فسادهم ومحاسبتهم قانونيًّا عليها، وتوجَّهوا بهذا الملف لرئيس الفرع مرفقًا بدعم من ضباط الفرع وكبار زعماء المافيات التي ذكرتُها سابقًا؛ لكن اللّه سبحانه، وبما عودني دائمًا من كرمه ورحمته - عزَّ وجلَّ - جعل أحدَ العناصر النصيريين، ويدعى جمال، والذي كنت سابقًا قد قدَّمت له مساعدات أنقذته من وضع سيِئ (وقد فعلتُ ذلك وقتها من ضمن خطتي للتقرُّب من العناصر والحصول على المعلومات منهم)، يقرِّر فجأة وبعد أن كان يعلم بالمؤامرة ضدِّي (وبعد أن كان متردِّدًا هل يشترك فيها أم لا) أن يكشف الموضوع كله، حيث

فوجئت به يخبرني بتفاصيلها، وما كان يُحاك ضدي سرا. ثم بعدَ ذلك طلب مقابلةَ رئيس الفرع مفلح، وشرح له أن ما جرى كان ملفَّقًا، وهو مؤامرة ومحاولة للتخلص مني. وبسبب شهادته، جرى إيقافُ هذه المحاولة الأولى، ونجوت منها بفضل اللّه.

ولكنَّ العميدَ المفلح انتبه بعدَ هذه الحادثة إلى أن شركاءَه في القذارة لن يسعدهم وجودي أبدًا، ولم يكن بنذالته يحتاج أساسًا إلى أيّ تهمة أو عذر لإزاحتي من طريق الجميع، فهو كان آخر من يهتم بالقانون. ولم تكن التقارير والمواضيع الأمنية التي أكشفها وأقدِّمها للفرع من النوع الذي يعجبُه أو يهتم به طبعًا، وخاصة أنَّني كنت أحارب وأكافح أحدَ أهم مصادر رزقه غير المشروعة.

وبناءً على كلِّ ذلك، فقد بدأ بالتضييق عليَّ فورًا، حيث أصدر فجأة أمرًا وبلا سبب بنقلي من المكتب الاقتصادي إلى مكتب الدراسات الأمنية بالفرع؛ ولم يكتفِ بهذا فقط، بل أصبح كل فترة يصدر قرارات يلبِّي فيها الرغبات والأماني الشريرة التي كان يحلم ضباط وعناصر الفرع النصيريُّون بتنفيذها ضدِّي منذ زمن بعيد، فقد أصبحت موضوعًا تحت مراقبتهم الدائمة لي. وأخذ المفلح

بناء على مقترحاتهم يقوم بنقلي بين الأقسام والمكاتب في الفرع ليتلاعب بأعصابي ونفسيتي، ثم بدأ بمنعي أحيانًا من العمل نهائيًا وتجميدي في مقر الفرع، حيث وجد المفلح فيما كان يفعله معي من حقارة وقتها فرصةً للحصول على مكاسب جديدة يساوم عليها من يكرهونني داخل الفرع وخارجه، وطريقة جيِّدة لإثبات ولائه وطاعته العمياء للطائفة الأسدية، كونه كان يستعرض أمامهم في حالتي أنه لا يهتم أبدًا لأبناء طائفته الذين أمثِّل واحدًا منهم.

وخلال هذه الفترة، مرت علي أعوام صعبة وسيئة جدًّا، وخاصة أنَّ اللعين المفلح كان كل شهر تقريبًا - وبأعذار وأسباب تافهة جدًّا - يقوم بوضعي في السجن المظلم المنعزل تحت الأرض بمقر الفرع لمدد تتراوح بين أسبوع إلى أسبوعين. وكان قد أصبح لديَّ أولاد وأصبح عملي وظروفه السيئة جدًّا وغياباتي المتكررة دائمًا عن أولادي أمورًا يصعب جدًّا تحمُّلها. وفي أثناء هذه السنوات السوداء من حياتي، تعرَّضتُ أيضًا لمحاولة أخرى خطيرة للتخلُّص مني نهائيًّا، ولكن هذه المرة كان الهدف منها الحصول على أمر بإعدامي نهائيًا من قبل نظام الأسد، وكان لهذه المحاولة قصة غريبة جدًّا بل مدهشة!!

ففي إحدى المرات، التي كنت أقضي فيها واحدة من عقوبات السجن التي ذكرتها لكم والتي كان رئيس الفرع "المفلح" قد أمر بتنفيذها علي بحجة تأخُّري قليلًا عن موعد الدوام؛ استغربتُ حينها أن مدة سجني قد طالت حتى بلغت ستة عشر يومًا. وعندما خرجتُ أخيرًا، وطلب مني أحد العناصر النصيريين بعدَ أيام، ويدعى باسل شحود /وهو من أبناء قرية نصيرية صغيرة في ريف مدينة حمص أسمها قرية تارين/، أن يتحدَّث معي على انفراد، وكان يبدو على وجهه التردُّد والخوف الشديدان؛ وعندما وافقتُ، سألني هو: هل تعلم ماذا حدث في الفرع في غيابك بينما كنت أنت في السجن؟

أجبتُه: لا طبعًا، وكيف سأعلم أيّ شيء وأنا في سجن منعزل عن العالم الخارجي وتحت الأرض!؟

قال: هل تقسم على ذلك!؟

أجبته: نعم.

وبدأ عندَ ذلك يروي لي أنه في أثناء فترة وجودي في السجن، كان أحدُ الضباط الفاسدين في فرع الأمن العسكري بحماة وقتها -

ويدعى العقيد عبد الحميد وهو ضابط قذر كان مدمنًا على الكحول وارتياد بيوت الدعارة – قد اتَّفق مع أحد القوَّادين المشهورين في مدينة حَماة واسمه عز الدين، والذي كان يعمل بتجارة وتسهيل الدعارة للمسؤولين على مستوى عالٍ وكنتُ قد ساهمت عدَّةَ مرات سابقًا في عرقلة أعماله المشبوهة، وكان معهم أيضًا مجموعةٌ أخرى من الأشخاص الذين على شاكلتهم وبذات المستوى المنحط، كانوا قد اتَّفقوا جميعًا على أن يقوموا هذه المرة بتوجيه ضربة قاضية نهائية لي؛ وقد وعدهم العقيد عبد الحميد حرفيًا، بعد انتهاء الملف الذي تعاونوا جميعًا على إعداده ضدي واتهامي فيه بأنني ضدَّ الدولة، بأنه "سيرسلني خلفَ الشمس"، وهذا المصطلح كان يعني في سوريا الاعتقال حتى الموت أو الإعدام فورًا. وفعلًا، روى لي العنصر باسل بأنهم طوالَ فترة وجودي في السجن عملوا بشكل سرِّي ومكثَّف، وأحضروا من أجل ذلك الكثيرَ من الشهود من أعدائي ليلفِّقوا لي مختلفَ التهم حول طائفيتي وغيرها من التهم المهلكة في قانون النظام الأسدي. وكان من يشرف بشكلٍ مباشر على التحقيق الموجَّه ضدي عنصرٌ قذِر آخر نصيري يدعى ياسين

محمد من قرية نصيرية تُدعى الصومعة من قرى منطقة مصياف السورية.

وتابع باسل روايتَه بأنَّهم عندما وصلوا إلى نهاية الملف، وكانوا جاهزين لإرساله إلى العاصمة دمشق للقضاء علي، حدث أمرٌ غريب جدًّا حيث وفي الليلة التي يفترض أن يرسلوا في صباحها الملف المذكور حدث خللٌ في جهاز التدفئة المركزية المثبَّت على الجدار وفاضت منه كمياتٌ من الماء الحار طوالَ الليل باتجاه المكتب وانسابت في داخل الدرج الذي فيه الإضبارة المعدة ضدِّي، وهذا ما أتلفها تمامًا. وفي صباح اليوم التالي، جُنَّ جنونُ العقيد عبد الحميد والعنصر ياسين عندما علموا بهذا، وأخذوا يكيلون الاتهامات بالخيانة لبعضهم بعضًا ولباقي المشاركين في المؤامرة؛ ثم توصلت استنتاجاتهم إلى ظنهم بأن شخصًا ما من بينهم كان قد أخبرني بالأمر في أثناء وجودي في داخل السجن، وأنَّني عندها أرسلت أحدًا قام بفتح ماء التدفئة على الملف ليتلفه بشكلٍ متعمَّد.

وبعدَ ذلك، أخبرني باسل بأنهم قرَّروا إلغاءَ الموضوع حاليًا، لأنَّهم لم يستحسنوا استدعاءَ الشهود والمشاركين في المؤامرة مرةً أخرى

إلى الفرع وأخذ إفاداتهم مرة ثانية، لأنهم سيصبحون عندها مثارَ سخرية للجميع، وسيشوِّهون سمعتهم وسمعة الفرع بأكمله، عندما يعلم الجميع بعدم قدرتهم على المحافظة على الملف وعدم قيامهم بالاحتفاظ بنسخة احتياطية منه. وعندما انتهى باسل من رواية هذا الموضوع لي، وبقدر غضبي من مقدار الغدر والشر الذي يحمله هؤلاء المجرمون الذين أعمل بينهم، بقدر ما حمدتُ اللّه – عزَّ وجلَّ – وشكرته وكبَّرته كثيرًا؛ فسبحان من جعل الماء جندًا من جُنْدِه أنقذني به وخذلَ به الظالمين وجعلهم يبهتون.

لم تكن هذه نهاية القصَّة، بل بعد مرور فترة قصيرة من الزمن حدث أمران مدهشان أيضًا، حيث حدث أوَّلًا خلافٌ حاد بين العقيد عبد الحميد وبين العميد المفلح على المطامع الشخصية، كانت نتيجته أن جرى طردُ العقيد عبد الحميد من عمله واتهامه بالنصب والاحتيال، وأصبح بعدها أيضًا مطلوبًا وفارًّا من نظام الأسد. أما العنصرُ ياسين محمد فقد أصيب في أثناء حادث سير قوي جدًّا خلال قيادته للدراجة النارية، وكُسِرت كلتا يديه اللتين استعملهما سابقًا في محاولة ايذائي، فسبحان المنتقم جبَّار السماوات والأراضين.

لقد كانت أهم الجرائم البشعة التي قام بها العميد المفلح في أثناء فترة وجودي في الفرع هي ابتكاره لقضية /جند الشام/؛ فما هي هذه القضية!؟

كانت السنواتُ التي نمرُّ بها في ذلك الوقت هي السنوات الأولى لانتشار شبكة الإنترنت في سوريا، وقد وجد فيها الشباب الناشئون وطلاب المدارس والجامعات السوريين وقتَها ما ظنوه مساحاتٍ من حرية التعبير؛ وكانوا قد بدأوا يتعلَّمون كيفيةَ استخدام الصفحات والمدوَّنات، وكيف يتواصلون عبرها؛ ولم يكن المساكين يعلمون أنَّ نظامًا إجراميًا محترفًا في أساليب القمع - مثل نظام الأسد - لم يكن ليسمح لهم بالحصول على هذه التقنيات واستخدامها إلَّا بعد أن يتأكدَ من حصوله على الأجهزة والأدوات والوسائل اللازمة لمراقبتها والتجسُّس عليها. ونتيجةً لما ذكر، فقد كانت الاعتقالات الجديدة التي تقوم بها أجهزةُ المخابرات في سوريا منذ تلك الفترة ليست كالسابق هي نتيجة فقط لحديث أو تصرُّف قام به أحد المواطنين، بل أصبح تدوين أو نشر أمور على الإنترنت تنتقد أحدَ مسؤولي النظام أو أحد القوانين سببًا جديدًا لملاحقة واعتقال

أعداد من المواطنين عامة، ومن فئة الشباب تحديدًا، والتي كانت هي الفئة الأكثر استخدامًا للإنترنت وقتها.

وفي عام ٢٠٠٧، وبعد عدد من الاعتقالات لمجموعة من الشبان الحمويين طلاب الجامعات التي قام بها فرعُ الأمن العسكري بحماة، على خلفية اتهامات من هذا النوع، خطر على بال العميد المفلح فكرةً شيطانية رأى فيها ما يقرِّبه من قيادات النظام الأسدي ويجعلهم يرضون عنه وعن مستواه الإجرامي، ممَّا يمكن أن يجعلَه يحصل منهم على مناصب ومراكز أعلى مستقبلًا؛ وكانت هذه الفكرة هي صناعة عدو وهمي جديد خطير لنظام الأسد ليتمكَّن هو من تمثيل دور البطل الكبير الذي اكتشف هذا الخطرَ، وقضى عليه أمام هذا النظام؛ فكيف ذلك!؟

قبلَ فترة كانت قد ظهرت في لبنان البلد المجاورة لسوريا مجموعاتٌ إسلامية كان اسمها /جند الشام/، وحدثت ضجةٌ إعلامية كبيرة وقتها نتيجة صدام هذه المجموعات مع الجيش اللبناني. وقد وجد العميد المفلح في هذا فرصةً له، حيث أعطى أوامره لجلَّادي الفرع لفرض الاعترافات على بعض الشباب

الجامعيين من أبناء مدينة حماة، والذين كانوا قد اعتُقلوا وقتها على خلفية نشاطات بسيطة على الإنترنت، بأنهم أعضاء منتسبون لجماعة جند الشام؛ والجميع يعلم في سوريا طبعًا أنَّ التعذيب في سجون الأمن والمخابرات يستمر حتى موت المتهم أو الاعتراف بكل ما يريده المحقِّق، وتم فبركة الموضوع بطريقةٍ متقنة من قبل المفلح وأعوانه في الفرع عن تنظيم وأعضاء ونشاطات ... إلخ.

جرى إرسالُ هذه المعلومات إلى الرئيس السوري بشار المعتوه في دمشق وقتها، وجرى الحصولُ منه على قرار يسمح لفرع الأمن العسكري في حَماة بالتصرُّف مع المواطنين بأي طريقة وكما يشاء للتحقيق في هذا الموضوع؛ وكنتُ وجميع من كان يعمل في الفرع وقتها نعلم جميعًا أنَّ الموضوع بأكمله مختلق. وبعدها، شنَّ العميد المفلح ولمدة عامين كاملين تقريبًا حملةَ اعتقالات للأفراد، ومداهمات للمنازل، كانت مستمرة ومكثفة، وجنَّد لها جميعَ ضباط الفرع وعناصره وآلياته وإمكانياته ومفارزه، ولم يدع حيًّا في حَماة تقريبا أو قريةً إلَّا واعتقل عددًا من أبنائها من الشباب خلال هذه الحملة، من المسلمين السنَّة حصرًا كالعادة. وخلال عامين كاملين، كانت

زنازين الفرع وأقبيته ومكاتبه تعجُّ بالشباب المعتقلين ليلًا ونهارًا، وكان المفلح يقوم بالتجوُّل عليهم كلَّ يوم وبالإشراف بنفسه على عمليات التعذيب وحرق وتقطيع أطراف وأعضاء المعتقلين ولذعهم بالكهرباء. كانت صرخاتُ الألم والعذاب تملأ الفرع، وكنت أشعر بالألم يعتصر قلبي عصرًا، وأنا أرى هؤلاء الشباب والذين كان أغلبهم يدرسون اختصاصاتٍ مميزةً في الجامعات السورية مثل الهندسة والصيدلة والطب.

لقد كانت تعليماتُ المفلح للمحقِّقين في الفرع واضحةً ومحدَّدة وعلنية، وهي استمرار التعذيب حتى الموت أو الاعتراف بما يريده هو ويحتاج إليه لاستكمال قصَّته الملفقة والمفبركة عن جند الشام؛ وقد سمعتُ من المحققين عدَّةَ مرات أحاديث عن أوامر المفلح المباشرة لهم عندما يخبرونه أن الشابَ المعتقل لا يعرف شيئًا ولم يعترف بشيء، فكان جواب المفلح دائمًا .. اقتلوه .. إن لم يعترف بشيء، فيستمرُّون في تعذيبه حتى يموت. وفعلًا، كانت يحدث وفيات كل فترة بين هؤلاء المساكين؛ ورغم أنَّ عناصرَ الفرع النصيريين كانوا جميعًا مسرورين لما كان المجرم المفلح يفعله لصالح نظامهم ببني

قومه، إلَّا أنهم هم أنفسهم وفي أحاديثهم الخاصة التي كانت تجري بينهم بوجودي لم يستطيعوا إخفاءَ دهشتهم من مقدار الشر والعقل الإجرامي الذي يحمله هذا الشيطان، ومن مقدار الفبركة الكبيرة ومقدار اختلاق القصص التي كان يصنع منها ملفَّات المعتقلين، لإثبات كذبته التي اخترعها وأسماها جند الشام.

وأذكر انَّه، في نهاية هذا الموضوع وبعدَ قيام الفرع بمداهمة منزل كان فيه مجموعة من الشباب المدنيين العزَّل في حي طريق حلب بحماة، جرى قتلُ طفل بريء وقتها تصادف وجودُه مع والده في المنزل المقصود، حيث في أثناء المداهمة قام عناصر الفرع بإطلاق النار عليه بأمر من العميد مفلح خلال محاولة أبيه الخروجَ مستسلمًا مع طفله من المنزل. وكان وجودُ الطفل في هذا المنزل أساسًا دليلًا على براءة وسلمية من فيه. وبعدها، قام المفلح بإحضار كمية ضخمة من الأسلحة والمدافع الرشاشة والمتفجرات والقنابل من مستودعات السلاح في الفرع، وقام بتحميلها في سيَّارات إلى المنزل الذي حدثت فيه المداهمة، وجرى رشُّ بعض التراب والرمال على الأسلحة بعدَ نشرها في المنزل حتى تبدوَ مستعملةً، ثم قام

باستدعاء محطَّة الجزيرة الفضائية العربية الإخبارية لتقومَ بتصوير الحدث والمنزل تحت عنوان "إلقاء القبض على عصابة مسلَّحة خطيرة من جند الشام في منزل كان وكرًا لهم"، وكنت أنا شاهدًا على ذلك ورأيت تفاصيلَه بنفسي كما شاهده معظمُ عناصر الفرع الآخرين أيضًا.

مع حلول عام /٢٠٠٩/، وكان قد مضى على وجودي ودوامي وعملي المستمرّ في شعبة المخابرات العسكرية في سوريا بين هؤلاء الأعداء المجرمين خمسةَ عشر عامًا، كنت قد وصلتُ إلى حالةٍ شديدة من التعب والإرهاق الجسدي والفكري، خمسة عشر عامًا وأنا أعيش بين أشرار الناس وحثالة المجرمين، محاطًا بكل ما ومن أكرههم ويكرهونني، وبجميع ما يتنافر مع ديني وأخلاقي وعاداتي، أرى الجرائمَ والظلم والسرقة والغشَّ والدعارة والخمور وجميعَ أنواع الموبقات حولي؛ وفوق ذلك عليَّ أن أتحملَ التعايشَ مع فاعلي ومدمني هذه الأشياء، سنوات طويلة ذهبت من عمري وأمضيتُ شبابي خلالها أنام بين أعدائي متوقِّعًا عند أيّ صوت أو حركة منهم غدرهم بي في أيّ لحظة؛ كنت معرَّضًا في كل وقت سمحتُ

فيه بهروب أحد المطلوبين المظلومين، أو قمت فيه بتسريب معلومات لأحد أو حرَّفت وعدَّلت فيه أضابير وملفات الفرع بشكلٍ مغلوط، لأن أُعْتَقلَ وأن أتعرَّضَ لأبشع أنواع التعذيب، أو أن أُعدمَ فورًا.

ورغم أنَّني في فترة رئاسة العميد المجرم المفلح للفرع، كنتُ قد فقدتُ الكثيرَ من قدراتي السابقة على التحرُّك بحرية، وجرى وضعي تحت المراقبة دائمًا، إلا أنَّني مع ذلك كنت – وبفضل الله حتى آخر لحظات قضيتها في هذا الفرع – أتمكَّن كلَّ فترة من إنقاذ أحد الأبرياء؛ ولكنَّني وصلتُ لمرحلة في هذا العام أنني شعرت بالضيق كثيرًا، ولم أعد أتحمَّل المزيد من هذه الحياة أبدًا، واتخذتُ قراري بأنني لابدَّ وبأي طريقة كانت أن أُخْرِجَ نفسي من هذا العمل وهذا المكان الموبوء، وذلك رغم معارضة الكثير من الأصدقاء الشرفاء الحمويين لي في اتخاذي هذا القرار، والذين تابعوا وشاهدوا وعلموا وسمعوا بما كنت أفعله مع شعب مدينتهم عبر السنين؛ وقد حاولوا إقناعي مرارًا وتكرارًا بالتراجع عن قراري وهم يذكِّرونني بأنني كنتُ أمثِّل فسحةَ أملٍ صغيرة وبصيصَ نور بالنسبة للكثير من الناس في مدينة حماه؛ وكان البعضُ الآخر من معارفي وأقاربي

في حمص وحماه يستغربون بشدة ويستنكرون اختياري وقراري بترك الصلاحيات الواسعة والحصانة القانونية التي أملكها أينما ذهبت وتوجَّهت في سوريا لكوني موظفًا في المخابرات بمحض إرادتي، ولكنَّني أجبتهم بقول الله تعالى في كتابه العزيز ﴿لا يكلِّف الله نفسًا إلَّا وسعها﴾، وبأنني الآن لديَّ أولاد أطفال لهم حق علي أيضًا ونصيب من تفكيري.

لم يكن قرارُ خُروجي من الجهاز الأمني السوري قابلًا للتنفيذ بسهولة أبدًا، كما يعلم معظمُ السوريين، فلم يكن مسموحًا لأي ضابط أو موظف بالخروج من هذا العمل إلا في حالات خاصة جدًّا؛ وقد استغرق الأمر مني جهودًا مكثَّفة وطلبات متكررة وإصرارًا وإلحاحًا لمدَّة عام كامل. وخلال هذه الفترة، كنت أتعرَّض لمختلف الضغوط والتهديدات لجعلي أتراجع عن الطلبات التي تقدَّمت بها لتسريحي من وظيفتي. وبعد كل هذا، وبعدَ مقابلة جرى طلبي إليها مع أحد كبار وقيادات الأمن والمخابرات في سوريا وأحد مؤسِّسي هذا النظام الأسدي – وهو مستشار للرئيسين المجرمين الأسديين الأب والابن أيضًا – وهو اللواء النصيري المدعوّ علي يونس (والذي

كان ذِكرُ اسمه فقط يكفي ليثير الذعرَ حتى عند رؤوساء وضبَّاط فروع الأمن في سوريا) ، حدث جدالٌ ونقاش طويل جدًّا بيني وبينه حاول هو خلاله ترغيبي تارة وترهيبي تارةً أخرى ليجعلني أتراجعَ عن قراري. وعندما أدرك شدةَ إصراري على طلبي، أخبرني بأنه ليس لديه صلاحياتٌ تخوِّله تسريحي من العمل كوني ضابطَ صف قديمًا، وأصبحت أُعَدُّ خبيرًا في العمل الأمني العسكري، وأحمل وسامَ تقدير في هذا المجال؛ وأخبرني أنه في حال استمرار إصراري، فهو يستطيع نقلي فقط إن شئت إلى عمل أسهل في الجيش النظامي خارجَ شعبة المخابرات العسكرية، وقد وافقتُ فورًا طبعًا؛ فقد كان هدفي الأهم مبدئيًا هو الخلاص من شعبة الأمن العسكري.

وفي الأيَّام الأولى من العام /٢٠١٠/، جرى نقلي إلى إدارة المهندسين العسكريين في الجيش السوري.

وعندما كنتُ أخرج أخيرًا سالمًا من بوَّابات فرع الأمن العسكري في حَماة بعدَ سبعة عشر عامًا تقريبًا قضيتُ في المخابرات منها ستة عشر عامًا في هذا الفرع اللعين، لم يكن هناك كلماتٌ يمكن أن تصفَ شعوري الجميل وفرحي الهائل؛ وقد أوشكتُ – لولا علمي

بمقدار خطورة هذا التصرُّف - أن أسجدَ شكرا للّه على الأرض خلال خروجي من البوابة الرئيسية للفرع، وخرجت وأنا أشكر اللّه وأحمده بكلِّ جوارحي على ما أنعم عليَّ به من خروجي سالمًا من هذا المكان، وبعدَ تحقيقي لجزء لا بأس به من الأهداف التي دخلت أساسًا منذ سنين طويلة إلى هذا العمل من أجل تنفيذها.

لقد نجحتُ - بفضل اللّه وقدرته - أن أدخلَ وكرَ هذا الجهاز القذر حين أردتُ وأن أخرجَ حين أردت، رغم أنني كنتُ لا أعلم خلال كل يوم من أيام هذه السنين الطويلة هل سأتمكّن من العودة في ذلك اليوم إلى منزلي أم لا.

فالحمدُ للّه دائمًا وأبدًا.

عامان في الجيش ...
والثورة السورية المباركة

كان العامُ الأوَّل الذي قضيتُه في الجيش السوري في المركز العسكري المخصَّص لصيانة الآليات الثقيلة قربَ مدينتي حمص، والذي جرى فرزي إليه بمنزلة نقاهةٍ وفترة هدوء بعدَ سنواتي المنهكة الطويلة في المخابرات العسكرية. ورغم أنَّ معظمَ العلل والعيوب الموجودة في جهاز الأمن، مثل الطائفية وانتشار الفساد والرشاوى والمحسوبيات وغيرها، يوجد مثلها في الجيش، إلَّا أنَّ مقدارها ومستواها والصراع من أجلها هنا كان أبسطَ بكثير. والأهم من هذا جميعه أنَّ الجيش كان فيه نسبة لا بأس بها من المسلمين السنَّة الضباط والأفراد والمجنَّدين ومن أبناء جميع المناطق السورية تقريبًا؛ ولهذا، كان وجودي وعملي فيه طبيعيًّا ومتقبَّلًا من

الآخرين، وليس غريبًا وشاذًّا، كما كان في شعبة المخابرات. ومع أنَّه ليس من السهل أبدًا على أيِّ إنسان التأقلم مع تغيير مكان وطبيعة عمله بعدَ سنوات طويلة قضاها في العمل الأوَّل، إلَّا أنني تقبَّلت كلَّ شيء بسرعة وسارت أموري بتيسير من اللّٰه.

وفي تاريخ ١٥ /٢٠١١/٣، وبينما كنتُ جالسًا في منزلي أتابع شاشةَ التلفاز، ذُهلت بمشهد أوَّل مظاهرة صغيرة ضدَّ النظام السوري خرجت في سوريا في أحد أسواق دمشق، وكانت إحدى المحطات الفضائية تبثُّ مقاطع فيديو مصوَّرة لهذه المظاهرة، ولا أظن أنَّ أحدًا في الدنيا كان أسعدَ مني في تلك اللحظات التي كنت أرى فيها حُلمي وحلم والدي - رحمه اللّٰه - وحلم أغلب من عرفتهم من قومي طوالَ حياتي يبدأ أخيرًا بالتحقُّق. كنتُ أرى الشعبَ، الذي بقي لعشرات السنين يجترُّ ذله وقهره صامتًا كالأحياء الأموات، يعود أخيرًا للحياة من جديد. كنت أخيرًا أرى أنَّ ما ضحيتُ به أنا، وما ضحيتُ من أجله طوالَ عمري وكان قبلي الكثيرون قد ضحَّوا من أجله أصبح أخيرًا له ثمن.

وخلال شُهُور بعدَ ذلك، تسارعت وتيرةُ الأَحْداث، وانتقلت شعلةُ

المظاهرات من مكانٍ إلى آخر حتى بدأت تحدث في مدينتي حمص، والتي أصبحت بعدَها عاصمةً لهذه الثورة ومركزها الأساسي؛ وكنتُ بفضل الله ممَّن شاركوا في جميع المظاهرات الأولى ضدَّ النظام الأسدي التي كانت تخرج في حمص في كل أسبوع انطلاقًا من المساجد، وكان يقوم بها المصلون بعدَ خروجهم من صلاة الجمعة في هذه المساجد.

كنتُ أشارك دائمًا، رغم خطورة الأمر الشديدة عليَّ واختلاف شدَّة وسوء عواقبها إن أمسكَت بي قواتُ النظام وقتها عن جميع المشاركين غيري، وذلك كوني عسكريًا ولست مدنيًا مثل الآخرين، وذلك يعني أنَّ عقوبتي عندَ النظام وحسب قوانينه على هذا الفعل هو الإعدام الميداني الفوري؛ لكن الله سلمني، وبدأ النظامُ الأسدي بعدها يقوم بمعاقبة المدينة بقطع الماء والكهرباء والاتصالات والوقود المخصَّص للتدفئة عن جميع الأحياء الثائرة، ومنزلي كان منها طبعًا. كنَّا نبقى من دون وجود هذه الاحتياجات لفترة طويلة، وكانت أوضاعُنا نتيجة لذلك - ومعنا جميع الناس حولنا - صعبةً جدًّا.

وفي نفس الفترة، وبسبب الأَحْداث التي تدور، جُنَّ جنونُ النصيريين الذين يعملون معنا في الجيش، وأصبحوا أكثرَ عداء وطائفية وشراسة تجاهنا؛ وكنَّا نراهم في كل يوم وبعدَ انتهاء دوامهم معنا، يجري جمعهم جميعًا، ومعهم أيضًا جميعُ الرجال الموجودين في القرى النصيرية المحيطة بمدينة حمص، من قِبل فروع الأمن والمخابرات وتزويدهم بأسلحة، ثم نقلهم في حافلات بأعداد كبيرة إلى المدينة ليقوموا هناك بالمشاركة مع أجهزة الأمن في الجرائم التي كان النظامُ قد بدأ في ارتكابها يوميًا في حمص بغيةَ إخماد الثورة؛ حيث كانوا يقتلون ويذبحون الأبرياء بشكلٍ عشوائي دون تمييز في أحياء المدينة ويخطفون ويغتصبون النساء، وينهبون ثم يحرقون المنازل. وبسبب ذلك، بدأ الثوارُ يضطرون للدفاع عن أنفسهم وعائلاتهم بما يملكونه من أسلحة خفيفة، وبدأ الشرفاءُ من العاملين في الجيش يقومون بالانشقاق عن النظام، وتشكيل مقاومة مسلَّحة للدفاع عن الأبرياء.

اتخذتُ قراري عندها فورًا - وبلا تردُّد - بالانشقاق عن النظام والاشتراك في الدفاع عن الناس، وهو ما كنت أنتظره طوالَ

عمري؛ وبدأت بالتواصل مع مجموعات الثوار الموجودة في الأحياء المجاورة لمنزلي، وجمع المعلومات عنهم بغيةَ إيجاد المجموعة المناسبة لي للانضمام إليها؛ وعلمتُ أنه يوجد مجموعةٌ من الثوار ذات سمعة جيِّدة جدًّا وقائدها محبوب من قِبل الناس ومعروف بأخلاقه العالية. وكانت المجموعةُ تُسمَّى باسم قائدها /مجموعة أبو أسعد/. كانوا يتمركزون في حي البياضة في مدينة حمص؛ وفي لقائي الأوَّل معهم للاتفاق على انضمامي إليهم، وكنت قد قمتُ قبلها بفترة بتسريب معلومات أمنية إليهم حصلتُ عليها من خلال عملي في الجيش حولَ وجود جواسيس للنظام بين أحد مجموعات الثوار (والتي كانت تتمركز في قرية الزعفرانة) وحول نيَّة النظام مداهمةَ تلك المجموعة في مكان تمركزهم، وقد سبَّبت معلوماتي إنقاذَ أرواح عناصر مجموعة الزعفرانة؛ فقام أبو أسعد قائد مجموعة البياضة بشكري كثيرًا على هذا عندَ لقائي المذكور به، وأوصلَ إليَّ شكر وامتنان المجموعة التي جرى إنقاذُها في قرية الزعفرانة أيضًا، ورجاني وقتها أن استمرَّ بتسريب المعلومات العسكرية والأمنية بشكل سرِّي لهم من خلال بقائي في عملي،

وقال إنَّ هذا سيكون أنفعَ وأجدى لهم من تركي لعملي والانضمام إليهم بشكلٍ علني، لأنَّ لديهم أعدادًا كافية حاليًا من العناصر والقيادات. وفعلًا، اتَّفقنا على ذلك وأصبحت منشقًّا عن النظام، وأعمل لصالح الثورة والثوَّار بشكل رسمي ولكن سري.

وفي الصباح الباكر من يوم شتويٍّ بارد من أيام الشهر الثالث عام /٢٠١٢/، وكان وقتها قد مضى علينا حوالى شهر كامل من الزمان نعيش بلا ماء ولا كهرباء ولا تدفئة، وبينما كنا نتناول وجبة الإفطار أنا وأولادي في منزلنا في حي التأمينات بحمص، قام النظامُ الأسدي بقصف منزلي وجميع منازل الحي الذي نعيش فيه بعدَ حِصاره له ضمن خطَّته التي كان ينفِّذها منذ فترة بتدمير الأحياء التي خرجت منها مظاهراتٌ ضدَّهم بمختلف أنواع القذائف الصاروخية؛ وتعالت أصواتُ الانفجارات وصرخات الألم والذعر حولَنا دون سابق إنذار؛ وكانت جثثُ الأبرياء والدماء تملأ شوارعَ الحي حين قمت بمعجزة بإخراج عائلتي تحت نيران القناصين، بين انفجارات القذائف، ونجحتُ بتهريبهم من الحصار المفروض على الحي، وخرجتُ معهم منه بصعوبة بمساعدة بعض عناصر الثوَّار

من المجموعة التي أعمل معها، والذين كانوا موجودين بالصدفة في الحي نتيجةَ محاولاتهم إسعافَ بعض الجرحى من الأطفال الأبرياء فيه. وقد كنَّا أنا وعائلتي من العائلات القليلة التي استطاعت الخروجَ تحت نيران النظام الأسدي يومها، بسبب خطورة محاولة الخروج كثيرًا وإحجام أغلب العائلات بسبب ذلك عن القيام بها. ولكن كان خروجُنا بملابسنا التي علينا فقط؛ وفقدنا في ذلك اليوم جميعَ ما نملك في الدنيا من أموال وأوراق رسمية وملابس وحاجيَّات شخصية، حيث تركناها جميعها في المنزل الذي قام النظام الأسدي بإشراف فرع المخابرات الجوية بحمص في الأيام التالية لذلك اليوم بقصفه ثم نهبه ثم حرقه، ومعه جميع منازل الحي الأخرى.

ولا حولَ ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

باسل محمد روحي صنيب

الاعتقال ... ستَّة أشهر من العذاب وسجن تدمر الرهيب

بعدَ تدمير منزلي وما فيه من أثاث بفترة حوالى شهرين، وبعد أن أصبحت مشرَّدًا أنا وأولادي، نعيش مؤقتًا كضيوف في منازل أقاربنا، وتحديدا في الشهر الخامس من عام ٢٠١٢، كنت قد قرَّرت أنني لم أعد أتحمَّل وضعي الحالي ومجرد العمل السري مع الثورة بينما أنا مضطرٌ للدوام والوجود في فترة العمل في الجيش مع هؤلاء المجرمين الذين كانوا يفتخرون علنًا أمامَنا كل يوم بما يرتكبونه من جرائم علينا وعلى مدينتنا حمص؛ وأصبح وضعي معهم رغم فائدته لرجال الثورة غيرَ منطقي في نظري؛ وكنت خلال الفترة الماضية قد قمتُ بالتحضير لتنفيذ انشقاقٍ جماعي كبير من مكان عملي في الجيش، وجهَّزت عددًا من العناصر والمجندين والضباط

المستعدين لهذه الفكرة واتفقنا جميعًا على قيامي بتأمين سيَّارات عن طريق مجموعة الثوار التي أعمل معها لنقل الجميع عندَ حلول ساعة الصفر التي كنا سنتَّفق عليها. كما قمتُ بنقل وتخزين كميات من الأسلحة والذخائر من مستودعات الجيش إلى مكتبي بحجة زيادة الحيطة والحماية بسبب الثورة، بينما كان هدفُنا الحقيقي اصطحاب هذه الأسلحة معنا إلى الثوار في أثناء انشقاقنا وهروبنا من الجيش.

وبتاريخ ٢٠١٢/٥/١١، ونتيجة لاستفزاز أحد الضباط السنَّة الذين يعملون معنا للعناصر النصيريين، وتنفيذًا للخطة التي كان نظامُ الأسد قد بدأ بتنفيذها منذ فترة بالتخلُّص من جميع الضباط والعناصر السنَّة من جميع قطعات الجيش السوري وتصفيته منهم خوفًا من انقلابهم مع الشعب ضدَّه، جرى إلقاءُ القبض عليَّ صباح هذا اليوم ومعي مجموعةٌ أخرى من العناصر والمجنَّدين من قِبَل قوات فرع المخابرات العسكرية بحمص. وقد حدث هذا رغم أنَّني كنتُ قد جهزت نفسي سابقًا لهذا الاحتمال، وكنتُ أنوي في حال حدوثه المقاومة بما معي من سلاح وعدم الاستسلام أبدًا، ولكنهم

استخدموا الحيلةَ معي وقتها بتأكيدهم الشديد لي أنهم فقط يريدون استشارتي في قضية لديهم، وجرى اقتيادي بعدَها إلى مقر مفرزة الأمن العسكري بقرية المشرفة جانب حمص، وبعدَها جرى نقلي إلى مقر فرع الأمن العسكري في حمص، ووضعي في سجن الفرع.

في الحقيقة، من الصعب على أيّ وصف أن يوصلَ للقارئ الدرجة الحقيقية لسوء الأوضاع في المعتقلات الأمنية السورية ومقدار الحالة المزرية التي يُوضَع فيها المعتقلون، وأظن أنَّ هذه الأمكنةَ هي أقرب ما تكون إلى الصورة التي يتخيَّلها ذهن الإنسان عن الجحيم. ورغم أنني كنتُ قد أمضيت جزءًا كبيرًا من عمري في جهاز المخابرات السوري، وكان عندي معلوماتٌ ومشاهدات سابقة عن الزنزانات التي يستخدمها هذا الجهازُ، وحتى أنَّني - كما ذكرتُ سابقًا - سُجِنت في الكثير من المرات في مثلها من قبل، لكن بعدَ قيام الثورة السورية اختلف كلُّ ما كنت أعرفه، وازدادت الأمورُ أضعافَ الدرجات نحو الأسوأ؛ فقد ازدادت أعدادُ المعتقلين بشكلٍ رهيب، وازدادت الوحشيةُ كثيرًا في التعامل معهم، وأصبحت

صلاحياتُ الجلادين لقتل أيّ معتقل في أيّ لحظة مفتوحةً دائمًا.

منذ اللحظة الأولى التي يدخل فيها المعتقل يشعر بنفسه قد أصبح خارجَ العالم والزمان، وكأنه داخل عالم كوابيس لا ينتهي، حيث يكون أول أمر يُؤمَر بفعله كلُّ معتقل هو أن يتعرَّى تمامًا من ملابسه أمام الآخرين - كما ولدته أمه وكأنَّه سيولد مجدَّدًا في هذا العالم السفلي الأسود عالم المعتقلات - وبالنسبة لمجتمع محافظ على التقاليد والدين والعادات، مثل مجتمعنا السوري، فإن هذا يكون غاية الإذلال والقهر للرجل أن يراه الآخرون عاريًا، ثم يبدأ الجلادون يفرغون ما في جعبتهم المليئة بالقذارة الطائفية والإجرامية بالسياط والعصي والأكبال التي ينهالون بها على جسد كلِّ معتقل، مترافقًا ذلك بسيل النجاسات المنتنة التي تخرج من أفواه أولئك الجلادين بشكل شتائم وإهانات وألفاظ كفر وإهانة لكل ما هو مقدَّس في العالم، والذي يصبُّونه على المعتقل. ولم يكن الضربُ الذي رأيته يجري من قِبل جلادي المعتقلات في أثناء فترة الثورة السورية من أجل التعذيب فقط، بل كان واضحًا من طريقته وأسلوبه وأدواته أنه كان يقصد به القتل أو على الأقل

إصابة المعتقل بكسور وعاهات دائمة في جسده. وبعدَ هذا جميعه، وعندما يتعب أو يمل الجلادون، يقذفون بالمعتقل الضحية عاريًا ومطليًا بالكامل بدمائه التي نزفت منه فوقَ أكوام المعتقلين الآخرين داخل الزنزانات. أما داخل هذه الزنزانات، وبالنسبة إليَّ، فقد كان التعذيبُ الحقيقي هو الهواء ... نعم الأكسجين، حيث كان تنفُّسُ الهواء في هذا المكان هو الأمر الأصعب بالنسبة إليَّ، رغم أن الأسبابَ الأخرى التي كانت تسبب الألم والمعاناة لي وللجميع كثيرة جدًّا، فلا ماء للمعتقلين إلا ما يجري تسريبه من مياه قذرة من الحمامات التي لا توجد غالبًا، والطعام القليل كان منتنًا وفاسدًا وتم تلويثه بمختلف أنواع القاذورات حتى البشرية منها بشكلٍ مقصود، والخروج للخلاء لقضاء الحاجة كان أمرًا يحتاج إلى انتظار طويل جدًّا، ويجري أخيرًا في مكان قذر يجعل أجسادَ المعتقلين وأطرافهم تتلوث أكثر وأكثر بالفضلات البشرية. ومن دون وجود الماء والصابون، كانت هذه القذارات تبقى ملتصقةً بالجميع، وحتى المنظر الذي كنت أراه وبقية المعتقلين كان تعذيبًا بحدِّ ذاته، حيث كنا نرى الأشخاص أينما نظرنا في ظلام الزنزانات من كافة

الأعمار والأحجام منهم كبار السن ومنهم الأطفال ومنهم من هو مصاب ويحتضر وجميعهم محشورين بشكلٍ متلاصق في أماكن ضيِّقة جدًّا، وأجسادهم وما تبقى من ملابسهم الممزقة ملوثة بالدماء الجافة والتقيُّحات والقذارة.

كان مرضا الجَرَب والقمل اللذان كان أيّ معتقل جديد يصاب بهما فورًا، نتيجة التصاقه الإجباري بأجساد غيره المصابة بهذه الآفات، يجعلان جميعَ من في المشهد أمامي يقومون ليلَ نهار وبشكل لا ينقطع بنوبات حُكاك وهرش هستيرية. أمَّا وجوهُ المعتقلين فمنها تراه مذهولًا مدهوشًا شاردًا في العدم، ومنها الباكي ومنها ما يتألَّم ومنها ما تشعر أنَّ صاحبه بدأ يفقد الاتزان وتظهر عليه بدايات الجنون؛ ويرافق هذا جميعه أصواتُ صرخات الألم والأنين والنحيب التي لا تتوقَّف في هذا المكان أبدًا.

ولكن، كما ذكرتُ لكم، بالإضافة إلى كل هذه المعاناة مجتمعة، عانيتُ كثيرًا من صعوبة التنفس؛ فالهواء القليل الذي كان متوفرًا في زنزانتنا المغلقة تحت الأرض كان فاسدًا منتنًا مليئًا بروائح الدم مع البراز مع العفونة وروائح العرق البشري للأجساد القذرة. بشكلٍ

عام، كان الهواءُ خليطًا من جميع ما تشمئز منه وتعافه النفس البشرية؛ وبقيت طوالَ فترة الشهرين الأولين من اعتقالي تصيبني حالات اختناق تشبه الربو؛ وكنت أظنُّ في كل مرة من شدتها أنها ستكون الطريقةَ التي أختارها الله سبحانه لي لمغادرة الدنيا. وقد بقيتُ منذ اليوم الأوَّل لاعتقالي ووضعي في الزنزانات مدةَ سبعة عشر يومًا من دون أن أتمكَّنَ من إخراج ما في أمعائي من فضلات، وكنتُ لا أتناول في كل يوم أكثر من كسرة خبز صغيرة عفنة، وكنت قد وصلتُ في نهاية هذه الأيام إلى حالة شديدة من الضعف والمرض والألم. كما كنتُ أحيانًا لا أستطيع الحركة نهائيًا.

وفي هذا الوقت، وعند وصولي إلى هذا الحالة، بدأ محقِّقو النظام الأسدي في فرع الأمن العسكري بحمص التحقيقَ معي، وكانوا يُضَّطرون إلى سحبي على الأرض أو حملي في كل مرة ليتمكَّنوا من إيصالي إلى غرفة التعذيب والتحقيق. ومنذ أوَّل جلسة من جلسات التحقيق معي، وضَّحت للمحقق أنني لدي خبرة في عمله، وما سيقوم به معي لأنَّني قضيتُ سنواتٍ طويلةً أعمل في شعبة المخابرات، وانَّني بسبب علمي أنَّه لن يدعني أبدًا ولن يوقفَ

تعذيبه لي حتى يحصلَ مني على اعترافات، فإنني سأقدِّم له عرضًا سيريحه ويريحني، ويختصر عليه وقتَه وتعبه، وهذا العرضُ أنني سأوقع له فورًا على جميع التهم التي يريد توجيهها لي، وسأقرُّ على نفسي بفعلي ما يريد هو نسبه إليَّ من أفعال؛ وكان المحقق سعيدًا بهذا الاستسلام المبكِّر مني، ولم يتوانَ هو عن كيل مجموعةٍ متنوعة من التهم إلي، وهذه التهم هي: الاستهزاء بالجيش السوري وقوَّات الأمن علنًا والنيل من هيبتهما، والسخرية من الاقتصاد الوطني، ونشر الشائعات التي تسيء للنظام، واعترفتُ له بفعلها جميعًا حسب اتفاقنا. وشعرتُ رغم مرضي الشديد وقتها بالسخرية مجددًا من غباء النظام الأسدي ورجاله، لأنهم لو علموا ما كنتُ وما زلت أفعله بنظامهم حقًّا في اثناء عملي في المخابرات أو الجيش ومقدار تعاوني وتحالفي مع كل ثائر عليهم وعلى نظامهم، لكانوا قاموا بإعدامي فورًا؛ ولما كانوا اكتفوا بتوجيه هذه التهم البسيطة والسخيفة لي فقط، ولكن الله - سبحانه وتعالى - أعمى قلوبَهم وأبصارهم عن حقيقتي بقدرته.

ورغم فرح المحقِّق وارتياحه لما حصل عليه مني من نتائج، إلا أنَّه

استمر في تعذيبي والتحقيق معي بشكلٍ يومي مدة أسبوعين كاملين بعدها، حيث كان يبدأ تحقيقَه معي خلال تلك الفترة في مساء كل يوم بربط ذراعيَّ إلى الخلف بالحبال ثم بتعليقهما وهما مربوطتان إلى السقف بطريقة كانت يقصد بها خلعَ الكتفين تحت ضغط ثقل الجسد عليهما. ولم يكن المحقِّق يتركني ويقوم بفك الحبال في كل مرة إلَّا عند ساعات الفجر الأولى، وكان هدفُ استمراره هذا هو محاولة الحصول مني بعد أن اعترفتُ على نفسي بما أرادوه، على اعترافات جديدة عن أسماء ومعلومات عن أي أشخاص أعرفهم، وقد اشتركوا بأي طريقة في فعَّاليات الثورة السورية في أحياء مدينة حمص، ولكنني بقيتُ مصرًّا رغم آلامي ومرضي على إنكار معرفتي لأي أسماء، مع أنَّني في الحقيقة كنت وقتها أعلم كلَّ شيء عن جميع ثوار حمص تقريبًا.

كنت أشعرُ في نفسي وبكل ثقة وصدق أنَّني مستعدٌّ تمامًا للموت قبل أن أتسببَ في أيّ أضرار لأي شخص من الأبطال الذين ثاروا ضدَّ ظلم هؤلاء. وفي نهاية أسبوعين من تعذيبي اليومي، قام المحققُ بإيقاف كل شيء، وأخبرني أنه قد ملَّ مني ومن موضوعي، وطلب

مني التوقيعَ ووضعَ بصماتي على إفادتي واعترافاتي السابقة على نفسي. ومن الأمور التي حدثت وأذكرها في أثناء فترة التحقيق معي أنه في أحد المرات، وبينما كنت معلَّقًا بالطريقة التي ذكرتها سابقًا، أحضر المحقِّقون شابًا لا يتجاوز عمره ثمانية عشر عامًا، ووضعوه على آلات التعذيب، ثم اجتمع على تعذيب هذا الشاب المسكين أربعةٌ من الجلادين، اشتركوا معًا في تعذيبه، وبيد كل واحد منهم أداةٌ مختلفة يستخدمها لإيذائه؛ وقالوا له في أثناء ذلك إنَّهم لن يتركوه حتى يعترفَ بقتل أيّ شخص من النظام؛ وكان الشاب المسكين يصيح بأنَّه لا يستطيع قتلَ أيّ كائن حي، ولكنهم استمروا بضربه حتى وافق أن يكتبَ المحققون ما يشاؤون من اعترافات باسمه بأي جرائم يريدونها هم، وسيقوم هو بالتوقيع عليها فورًا؛ وفعلًا، جعلوه يوقِّع على اعترافات كاذبة بأنه كان قد أطلق النار سابقًا على تجمُّع لضباط نظام الأسد، وبأنه قتل أربعة منهم وقتها.

بعدَ إمضائي حوالى سبعة وخمسين يومًا في سجن فرع الأمن العسكري بحمص، جرى ترحيلي إلى سجن فرع الشرطة العسكرية في حمص؛ وقد شاهدت قبلَ خروجي النهائي من فرع حمص شيئًا

لن أنساه ما حييت، وهو رؤيتي لسيَّارة شاحنة ضخمة تقف في ساحة الفرع مقابل باب السجن المعدّ لاعتقال النساء، صندوقها محمَّل بالكامل حتى أعلاه بحقائب نسائية وعربات أطفال، وتذكَّرت مباشرة عددَ قصص اختطاف النساء والأطفال التي قامت بها قواتُ نظام الأسد ومعهم المجرمون الذين قاموا بإحضارهم من القرى النصيرية من بيوت وشوارع الأحياء المعارضة للنظام، ومن منازل الأشخاص الذين شاركوا في المظاهرات ضدَّ النظام في مدينة حمص، والتي كنا نعلم ببعضها، ونسمع بالبعض الآخر في كلِّ يوم منذ بدأت الثورة عام ٢٠١١.

بعدَ تسليمي لفرع الشرطة العسكرية بحمص، جرى ترحيلي مرةً أخرى في نفس اليوم بعد أن ربطونا ببعضنا بعضًا بالسلاسل المعدنية أنا وعدد كبير آخر من المعتقلين من الأذرع والأقدام، وحشرونا فوقَ بعضنا بعضًا بسيارات شاحنة مغلقة تُستخدَم عادة لنقل المواشي إلى قيادة الشرطة العسكرية بدمشق، ومنها إلى سجن الفرع ٢٤٨، وهو فرعُ التحقيق العسكري في دمشق التابع لشعبة المخابرات العسكرية، وأحد أضخم وأشهر مراكز التعذيب والاعتقال في سوريا

منذ عصر حافظ الأسد المجرم الأكبر. ويتكوَّن سجنُ الفرع المذكور من عدد من الطوابق المظلمة تحت الأرض، والتي منذ أن يدخلها المعتقل وحتى يخرج منها – إن خرج – لا يرى نورَ الشمس داخلها أبدًا، ولا يعرف نهارَه من ليله، وفيه كان يوجد معتقلون لم يغادروا هذا المكان منذ عقود مضت. وتعرَّضتُ فيه لما يشبه ما حدث معي سابقًا في فرع حمص تقريبًا، إلَّا أن الزنزانات في الفرع ٢٤٨ كانت أشد ازدحاما أيضًا من الفرع السابق، لدرجة أنه كان على المعتقلين المساكين تنظيم دور بينهم والانتظار لفترات طويلة للحصول على مساحةٍ صغيرة جدًا يجري توفيرُها من قبل الآخرين للجلوس قليلًا بين أقدامهم؛ وقد أمضيتُ فترة حوالى الشهر في سجن هذا الفرع، وكان من أشدِّ ما يؤلمني في هذه الفترة أنني كان قد مضى عليَّ نحو ثلاثة شهور من الغياب عن أولادي وعائلتي، وجرى هذا في ظروف غير اعتيادية تمرُّ بها سوريا، فالقتلُ والقصف والاختطاف وغيرها من الأخطار الكثيرة كانت تحدث في كلِّ مكان من سوريا. ولذلك، لم أكن أعلم خلال هذا الزمن هل أولادي ما زالوا أحياء وبخير أم حدث لهم مكروه، وكنتُ أعلم أنهم هم أيضًا لا يعلمون أيّ شيء

عن حال والدهم ومكانه، بالإضافة لكونهم بلا مأوى كما شرحتُ سابقًا.

وبعدَ بقائي نحو ثمانية وعشرين يومًا تقريبًا معتقلًا في الفرع ٢٤٨، جرى نقلي مجدَّدًا وبنفس الطريقة السابقة إلى قيادة الشرطة العسكرية في دمشق، ومنها إلى سجن الشرطة العسكرية في حمص؛ وهناك جرى عرضُنا أنا والكثير من المعتقلين على قضاة النيابة العسكرية في حمص، والذين كانوا يثبِّتون التهم الأمنية على الجميع دون أيّ تحقيق أو أدلَّة؛ ومن ذلك المكان جرى تحويلي من قِبل القاضي إلى سجن تدمر العسكري، هذا السجن الذي يعرفه جميعُ السوريين وله شهرة عالمية أيضًا حولَ كونه من أسوأ السجون والمعتقلات السياسية في العالم، وحول المجازر والإعدامات الكثيرة والعديدة والمستمرة لسنوات طويلة التي قام بها نظامُ الأسد لعشرات ألوف المعتقلين الأبرياء في ذلك المكان، والذي كنتُ منذ طفولتي أسمع كلَّ يوم تقريبًا قصصًا رهيبة عما يفعله نظام الأسد بالمعتقلين فيه.

وفعلًا، وعندما جرى وضعي في هذا السجن وفي الزنزانات

المخصَّصة للمعتقلين السياسيين مثلي، أدركتُ أنَّ سمعةَ هذا المكان والقصص السيِّئة عنه هي حقيقة. وشاء الله - عزَّ وجلَّ - ليس فقط أن أرى هذا المكانَ وأُسجَن فيه، بل وبسبب أعمال صيانة كانت تجري في زنزانتنا أيضًا نُقِلتُ في أثناء وجودي فيه إلى باحات وزنزانات كانت مغلقةً منذ عام ١٩٨٠، تاريخ المجزرة التي قام بها المجرم رفعت الأسد شقيق حافظ الأسد في ذلك التاريخ، عندما قام ومعه قوَّاته بفتح نيران أسلحتهم على المعتقلين داخل هذه الزنزانات وقتلهم جميعًا. وقد رأيتُ بعيني وقتها آثار الطلقات النارية التي تملأ جدرانَ الزنزانات من الداخل، وكان يوجد على الجدران أيضًا بقايا مواد جافة أظن أنها بقايا أشلاء بشرية.

وبعدَ مرور ثلاثة أشهر مستمرَّة عليَّ تقريبًا، وأنا معتقلٌ في سجن تدمر؛ ونتيجة للنقص الحاد في العدد الذي عانى منه الجيشُ السوري وقتها نتيجة الانشقاقات الكثيرة وعمليات الاعتقال ضمن هذا الجيش، أصدر المجرمُ بشار في نهاية الشهر الحادي عشر من عام ٢٠١٢ عفوًا رئاسيًا عن أغلب المعتقلين السياسيين، وجرى الإفراجُ عني من سجن تدمر بناءً على ذلك العفو، وذلك بعد أن

فرضوا علي شرط عودتي إلى عملي ودوامي في الجيش؛ وخرجتُ من سجن تدمر أخيرًا بعدَ رحلة من العذاب والمعاناة في سجون ومعتقلات النظام مدَّتها حوالى ستة أشهر؛ وكان وضعي الصحي حين خرجت يُرثى له، فقد كنت فقدتُ معظمَ وزني، وتحولت إلى شبه كومة من الجلد والعظام، وكانت الأمراضُ والأوبئة تنهش في جسدي، فقد عانيت في أثناء اعتقالي وبعدَ خروجي من النزف المعدي والمعوي ونوبات التشنُّج في القَوْلون وحصيات في المرارة، وكان القملُ والجرب قد حفرا أخاديدَ في جلدي تطلَّبت وقتًا وجهدًا حتى شفيت - بفضل اللّه عزَّ وجل - فله الحمد والشكر على كلِّ حال. وكنتُ في رحلة عودتي إلى مدينتي وأهلي وأولادي كأنني أرى النورَ والدنيا والناس لأوَّل مرة في حياتي.

الانشقاق الثاني ... المطاردة ... ورحلة الخروج من سوريا

كان يُفترَض بي، حسب قوانين النظام الأسدي ونصائح أغلب الناس حولي، أن أعودَ إلى دوامي وعملي في الجيش السوري مباشرة بعدَ خروجي من المعتقل؛ وكانت نصيحةُ من كانوا معتقلين معي من ضباط وعسكريين بأن ألتحقَ بعملي هناك مجدَّدًا لفترة صغيرة فقط ريثما أتمكَّنَ من الحصول على رواتبي المالية من النظام عن الأشهر الستة التي كنت معتقلًا خلالها، والتي تُصرَف لصاحبها عادة عندَ خروجه من المعتقل إن كان هذا الخروجُ نتيجةَ عفو، حيث إنَّ هذا المبلغَ كان سيشكِّل عونًا جيِّدًا لي ولعائلتي على مصاريف الحياة وعلى مصاريف علاجي من أمراضي التي أُصبتُ

بها داخل المعتقل، وخاصَّة أنَّ الحياة كانت قد أصبحت صعبةً جدًّا في ظل الظروف التي كانت سوريا تمرُّ بها، وأنني بعد هذا بإمكاني الانشقاق عن النظام مجدَّدًا إن كنت مصرًّا على ذلك، وهذا ما فعله الآخرون فعلًا، ممن كان حالُهم يشبه حالي.

ولكنني أخبرتُ الجميع بأنني قد حرَّمت على نفسي مالَ هذا النظام أو أي شيء آخر منه، وأنَّني لن أتمكَّنَ من تحمُّل لحظة واحدة إضافية من الوجود مع أولئك المجرمين في مكان واحد. من أجل ذلك، قمتُ فورًا بعدَ خروجي من المعتقل بعدم الالتحاق كما ينبغي أن أفعلَ، وانشققتُ عن نظام الأسد ثانية وبشكل نهائي؛ وطبعًا، هذا كان يعني أنني أصبحت فارًّا من عملي في الجيش ومطلوبًا وهاربًا؛ وكان هذا يعني في سوريا، وفي ظل حالة الطوارئ التي فرضتها أَحداثُ الثورة، أنني أصبحت حسب القانون محكومًا بالإعدام ومطلوبًا للنظام حيًّا أم ميتًا.

لذلك، قضيتُ بعدها عامي /٢٠١٣/ و /٢٠١٤/ مطلوبًا ومطاردًا وملاحقًا؛ وقد كنتُ خلال هذين العامين ما زلت بحالة صحية سيِّئة جدًّا، وبلا أيّ مصدر رزق لي ولأولادي، وكنت أتنقَّل

مختبئًا متخفِّيا ومتنكِّرا من مكان إلى مكان، ومن غرفة إلى غرفة، فيما تبقَّى من أحياء مدينة حمص المدمَّرة، والتي كانت تعجُّ بالخطر المميت بالنسبة لي، لأنها جميعًا كانت تحت سيطرة وسلطة النظام الأسدي ورقابته الدائمة. وكانت عملياتُ التفتيش المفاجئة لجميع البيوت في هذه الأحياء تجري بشكلٍ دوري كل فترة، ودون سابق إنذار، وقد أنجاني الله برحمته من اعتقالي مجدَّدًا عدةَ مرات خلال هذه الفترة، وكنت أتمكَّن في كل مرة من الهروب مصطحبًا أولادي في آخر لحظة.

وفي الشهر الأوَّل من عام ٢٠١٥، حيث كانت أوضاعي المعيشية قد أصبحت سيئة جدًّا ودرجة الخطر على حياتي وحياة عائلتي تزداد كلَّ يوم أكثر ولم أعد أستطيع المتابعةَ على هذا المنوال أكثر، قمتُ برحلة فرار من سوريا ومن النظام الأسدي مستخدمًا أوراقًا أمنية باسمي كنتُ قد خدعت شعبةَ المخابرات العسكرية حين تركت العملَ فيها وانتقلت إلى الجيش واحتفظت بها ولم أرجعها إليهم كما كان يُفترَض بي أن أفعلَ وقتها، وذلك تحسُّبًا لأي أوقات صعبة مستقبلية. وعبرت خلال رحلتي أكثر من ثلاثمائة حاجز تفتيش

أمني وعسكري لنظام الأسد، حيث كانت الحواجزُ تنتشر على طول طريقي الذي قطعته خروجًا من مدينة حمص إلى ريفها، وبعدها مدينة حَماة وريفها، ثم باتجاه مدينة الطبقة وريفها، وبعدها باتجاه شمال سوريا مرورًا بريف مدينة الرقة وحلب بمعدَّل حاجز كل مئتي متر تقريبًا. وفي كل حاجز منهم، كنت معرَّضًا طوالَ الطريق للاعتقال أو القتل فورًا؛ وكان الله سبحانه في كل حاجز جديد نمرُّ به يلهمني ما أتمكَّن به من عبوره، فمرة أستخدم الأوراقَ الأمنية التي بحوزتي، ومرة اختبئ عن أنظارهم، وأخرى أقوم بتمثيل دور أنَّني معاون لسائق الحافلة ولست راكبًا عاديًا حتى لا يجري تفتيشي وتدقيق شخصيتي. وعندما وصلتُ سليمًا أخيرًا، بعد هذه الرحلة الخطيرة، إلى الحدود السورية التركية اضطررتُ أيضًا أن أسيرَ في ظلام ليلة شتوية باردة جدًّا بين الثلوج والأوحال لمسافة تبلغ حوالى عشرة كيلومترات حاملًا حاجياتي. وكانت المنطقةُ الحدودية التي عبرتها في هذه الظروف الصعبة مليئةً بالخنادق والأسلاك الشائكة؛ وبسبب الظلام، وقعتُ في الخنادق الموحلة العميقة عدةَ مرات، وتمزَّقت ملابسي وامتلأ جسدي ووجهي بالجروح نتيجة

اصطدامي المتكرِّر بالأسلاك الشائكة ووقوعي فوقَها بسبب عدم رؤيتي لها أيضًا في الظلام.

وعندما وصلتُ أخيرًا إلى أول قرية تركية حدودية، كان شكلي وتلوُّثي بالدماء والأوحال من قمة رأسي حتى أخمص قدمي غريبًا وشاذًّا لدرجةٍ جعلت أهلَ القرية التركية يتنادون للخروج من بيوتهم لرؤية شكلي الذي أدهشهم وقتها، وأدركتُ عندها أنَّني أخيرًا ولأوَّل مرة في حياتي أصبحت خارجَ قبضة النظام الأسدي، وقد بقيت عامًا كاملًا بعدها أعمل وأعيش خلاله في تركيا، ولكنَّ الحياة كانت صعبة جدًّا بالنسبة لغريبٍ مثلي لايتقن لغةَ أهل البلاد. وحتى أتمكَّنَ من مصاريف الحياة وإطعام أولادي، قبلتُ أن أقومَ بأعمال في تركيا لم أكن سابقًا أتوقَّع حتى في أسوأ كوابيسي أن أقبلَ القيام بها، أوَّلها كان تنظيف زرائب الحيوانات وذلك لقاء أجور بالكاد تكفي حياةً متواضعة جدًّا؛ وكنتُ أتذكَّر دائمًا كيف كان مجرَّد ذكر اسمي مرعبًا لكثير من الفاسدين واللصوص، وكيف كنت أستطيع أن أحصلَ بلحظات على أيّ شيء أرغب به، ثم أقارنه بما وصلتُ إليه من شظف العيش؛ ولكنني دائمًا أعود وأذكِّر نفسي أنَّ جميعَ

ما فعلته سابقًا كنت أرجو بفعله رضى الله - عزَّ وجلَّ - عني، ثم من أجل مصلحة بلدي وأهلي وديني، وهذا ما كان يعيد لي صبري مجددًا. وبعدَ عام قضيتُه في تركيا، قمتُ مع عائلتي بسبب سوء أوضاعنا برحلةٍ جديدة من النوع الذي سُمِّيَ رحلة الموت في القوارب المطاطية باتجاه قارة أوروبا، ونجحنا بعدَها بالوصول إلى ألمانيا، وأنجانا الله سبحانه بفضله.

الخاتمة

قد يخطرُ لأي شخصٍ يقرأ قصَّتي هذه التي توخَّيت فيها دقةَ المعلومات قدرَ الإمكان، مع الاختصار بقدر ما استطعتُ ذلك، لأن ما في هذه السنوات الطويلة من أَحْداث وتفاصيل أكثر من أن يحصره بكامله كتاب، أن يتساءلَ لماذا وما الهدفُ الآن من كشفي لهذه المعلومات التي لم يكن يعرفها بالكامل إلَّا قلة نادرة من الناس!؟

في الحقيقة، إنَّني مع الكثيرين من أبناء جيلي كنا نلقي باللوم دائمًا على الأجيال التي كانت قبلنا في سوريا، ونعاتبهم على سكوتهم على الظلم والظالمين، وعلى عدم محاولتهم مقاومةَ تسلُّط هذه الطائفة الباغية عليهم؛ وقد أردت من أولادي والأجيال التي ستأتي أن يعلموا من خلال ما كتبت أنَّنا لم نكن جميعًا مستسلمين، وكان بيننا من كان يقوم وبصمت بثورته الخاصة، وأن يعلمَ كلُّ مظلوم في العالم أنه إن استمرَّ في المحاولة متوكلًا على الله - عزَّ وجلَّ - ولم يدع اليأسَ يتغلَّب عليه، فلابد أنه سينجح بإذن الله يومًا بأن يصنع فارقًا وإن كان صغيرًا.

والحمدُ لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على نبينا محمَّد وعلى آله وصحبه، وعلى من تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

تمَّ بعون الله تعالى في صباح يوم الجمعة بتاريخ ١٧ /٢ / ٢٠١٧

جميع حقوق الطبع والنشر والتوزيع محفوظة للمؤلف

باسل محمد روحي صنيب